الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه LMD

شعبة: دراسات أدبية تخصص: أدب عربي قديم

الحوار حول الجاحظ في الدراسات البلاغية المعاصرة

قراءة في المنهج والإجراء

إعداد الطالب:
كحلي رابح

إشراف:
أ . د دردار بشير

لجنة المناقشة:

د عطار خالد	أ. محاضر أ	جامعة تيسمسيلت	رئيسا
أ.د بشير دردار	أ.ت. العالي	جامعة تيسمسيلت	مشرفا ومقررا
أ.د شريفي فاطمة	أ.ت. العالي	جامعة تيارت	ممتحنا
أ. محمد داود	أ.ت. العالي	جامعة تيارت	ممتحنا
د تواتي خالد	أ.ت. العالي	جامعة تيسمسيلت	ممتحنا
د يعقوبي قدوية	أ.ت. العالي	جامعة تيسمسيلت	ممتحنا

السنة الجامعية: 1442/1441- 2020/ 2021

بسم الله الرحمن الرحيم

(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) سورة الأحقاف، آية:15.

إهـــــــداء

إلى والدي والدتي، فقد فارقتماني قبل أن تجنيا غرس يديكما ...

إلى زوجتي وإخوتي ... أخواتي وعائلتي

إلى أساتذتي وأصدقائي

إليكم جميعا...

أهدي عملي هذا، عربون محبة ووفاء

كحلي رابح

شكر وعرفـــــــــــان

نشكر الله عز وجل على توفيقه لنا حتى أتممنا هذا العمل، فسبحانك

لك الحمد كله.

أتوجه بالشكر الجزيل لجامعتي جامعة أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت

التي أتاحت لي الفرصة للدراسة فيها والتحضير فيها.

كما أشكر كلية الآداب واللغات قسم الأدب العربي بما حظيت به من الدعم والتشجيع

من الجميع من العمال المهنيين إلى الأساتذة إلى المدراء ونوابهم.

إلى الزملاء الذين ساعدوني من قريب أو من بعيد كلٌ باسمه ومقامه.

إلى الدكتور المشرف دردار بشير الذي صبر معي ووجهني أحسن توجيه، وأنار دربي

له مني فائق الاحترام والتقدير

مقدمة

مع التطور الذي شهدته الدراسات البلاغية العربية الحديثة، التي اهتمت بالتراث العربي، وببلاغة الجاحظ خصوصاً، كان من المهم الالتفات إلى هذه المنجزات-المهتمة بالبلاغة العربية-التي تمحورت بين طبيعة القراءة والقراء وفاعليتهما ونواتجهما في حقل له من الأهمية ما لا يخفى على أحد.

نبتغي في هذه الدراسة عرض وتحليل ذلك الحوار الذي دار حول جملة من القراءات التي تشكّلت حول نصوص الجاحظ؛ هذه القراءات كانت ممثلة

ومتباينة، وذات تفسيرات متعارضة في تقييم بلاغة أبي عثمان، كما أنّها ليست بحثاً في الخطاب البلاغي الجاحظي فقط، بل هي بحث في أشكال التلقي وأنماطه التي دارت حول نصوصه البلاغية، هذه القراءات حكمتها عدة آفاق معرفية، تشكلت وفق سياقات معينة ومتباينة.

فنمط التلقي الذي هو تعبير عن حالة من التلقي الجماعي المشترك، سواء أكان بين القدماء أنفسهم أو من المعاصرين. فالقدماء يجمعهم أفق تاريخي واحد، يحركهم هاجس الإيديولوجيا كما سنرى مع ابن قتيبة، وعبد القاهر البغدادي. والشيء نفسه يصدق على غيرهم، وإن بدرجات متفاوتة، الأمر الذي يجعلنا ملزمين في هذا البحث، بفحص المقولات الكبرى للمناهج النقدية الحديثة في توجهها الغربي تطبيقاً، قصد الاستعانة بها في تحليل مدونة بحثنا، وقد استطاع الخطاب النقدي العربي الحديث والمعاصر أن يستثمر مقولاته تلك، في مقاربة التراث العربي، خاصة الخطاب الجاحظي.

يركّز هذا البحث على تتبع المتصورات الجوهرية لقراءة القراءة، لأنه يشتغل على المتن النقدي خصوصاً، خاصة عند **حمادي صمود ومحمد العمري**، في الدراسات العربية البلاغية الحديثة، التي أعادت قراءة الموروث الجاحظي، ومن ثم تعتبر هذه الدراسة تقديماً للمشهد النقدي المعاصر في تعامله مع الظاهرة التراثية الجاحظيّة، بغية استكشاف طريقة توظيف النص الجاحظي في الخطابات الواصفة عند النقّاد المحدثين، وما وصلت إليه استعادة تلك النصوص وإعادة توظيفها في كتاباتهم.

كما أنّنا ننطلق في هذا البحث من محاولة استنطاق التراكم القرائي الضخم الذي قدّمه القراء العرب بدءًا من عصر الإحياء حتى اليوم، فكل واحد من هؤلاء الباحثين قرأ المدوّنة الجاحظيّة وفق أفقه الخاص، وهذا ما ساعدنا على تلمس تلك القراءات وإعادة بحثها من جديد، حتى يتسنّى لنا مقاربة هذه النصوص على حد سواء، وقد كان اختيارنا لنصوص الجاحظ بدءاً من كتابه (**البيان والتبيين**) بوصف هذه النصوص المؤسسة في المنظومة الأدبية والبلاغية العربية، فنحن لا نجد كتاباً أو مقالاً في الأدب والنقد، يخلو من ذكر الجاحظ إلاّ نادراً، حتى أصبحت نصوص الجاحظ شاهداً لكلّ باحث في التخصص وغيره، وهو ما شكّل في نقدنا الحديث والمعاصر تاريخاً تأويلياً يستحق منا بحثا دؤوبا.

وتبعا لذلك، يسعى ويركّز هذا البحث على تتبع المتصورات الجوهرية لقراءة القراءة كما أسلفنا، وهو رصدٌ للدراسات التي اهتمت بإعادة قراءة الموروث الجاحظي بتتبع خطواتها، ويتفحص مضامينها واتجاهاتها، على امتداد رقعة تاريخية طويلة نسبياً ممتدة من العصر العباسي إلى اليوم، وهذا ما يضاعف من ثقل وعبء المسؤولية التي يضطلع بها الباحث، ومقاربة هذه القراءات الضخمة تصعّب الإحاطة بها كليةً.

لقد استندنا في وضع خطة هذه الدراسة إلى تصور مفاده أنّ هذا البحث يُنطلق فيه من فحص فرضية استقرت عند جمهور واسع من الدارسين المعاصرين، يقول أصحابها **بمحورية الجاحظ ومركزيته في البلاغة العربية،** كما فحصنا بالمقابل، فرضيات أخرى أقل تواترا، من خلال هذه القراءة، عبر مراجعة ومساءلة التصور: من هو الأولى بالتقديم **الجاحظ** أم **غيره من أعلام البلاغة المشهورين** في التربع على عرش البيان؟ فافترضنا أنّ القول إن الجاحظ هو أساس ومركز البلاغة العربية له من الرسوخ وقوة المحاججة، ما يدعونا إلى كشف مضمرات الحوار بين الفريقين، وهو الحوار الذي تتجلى كل أبعاده في كتابين؛ هما: كتاب (**التفكير البلاغي عند العرب**) لحمادي صمود، وكتاب **(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)** لمحمد العمري.

وبين ذا وذاك نجد هذه (**القراءة الحوارية**) قد ولّدت لنا بعض الأسئلة التي أنتجتها قراءتنا للمشروعين، وقد جاءت كالتالي: ماذا أضاف العمري إلى ما جاء به صمود في كتابه؟ وإن كانت هنالك إضافة حقيقية، فلماذا خلا كتاب العمري من الاعتراض على **صمود** في مجمل الأطروحة التي حملها كتابه ؟ ولماذا اختار العمري أن ينتقد بعض الباحثين، على أن يخوض مناقشة علمية جادة مع كتاب اعترف بفضله في مقدمة كتابه، وعمل على نقضه في متنه وعتباته، دون الإحالة الواضحة إليه ؟

وعلى هذا الأساس قسّمنا الدّراسة إلى **مقدمة وأربعة فصول،** تدور مجتمعة حول البلاغة العربية من النشأة أو الأصول الكبرى إلى التأسيس أو الروافد الكبرى، مروراً بقراءة القدماء لبلاغة الجاحظ، وصولاً إلى قراءة المعاصرين لهذه البلاغة، وانتهاءً بالحوار الذي دار بين حمادي صمود ومحمد العمري حول **مركزية جهد الجاحظ في البلاغة العربية**.

حاولنا في **الفصل الأول** الموسوم بـ: **البلاغة العربية الأصول والامتدادات** فحص مفهوم البلاغة عند العرب والعجم، وحاولنا فيه كشف دلالات الممارسة البلاغية وما صحبها من ملاحظات في عصر ما قبل الإسلام، ووقفنا غير مطيلين عند اللمحات البلاغية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، وأسهبنا في استعراض وتحليل ما أنتج من تنظير بلاغي في العصر العباسي بطوريه؛ حيث تطرقنا فيه إلى تعريفات القدماء للبلاغة في البيئة العربية، وخارج البيئة العربية. وقد وقع اختيارنا على بلاد الهند، واليونان، وكان لنا حديث في هذا الفصل عن التصانيف البلاغية التي أنجزت في هذه المرحلة، ودوائر التأصيل المعرفي فيها.

وفي **الفصل الثاني** الموسوم بـ: **القراءات العربية القديمة لبلاغة الجاحظ،** كان لنا فيه تقديم لقراء بلاغة الجاحظ، بدأناه بموقف ابن قتيبة من بلاغة الجاحظ، حيث تعرضنا للقراءة الأخلاقية التي كانت معياراً للحكم على بلاغة الجاحظ، وكذلك كان لنا مبحث حول أبي حيان التوحيدي وموقفه من بلاغة الجاحظ، وانتقلنا للتعرف على قراءات بديع الزمان الهمذاني، وأبي الهلال العسكري، وعبد القاهر الجرجاني، وياقوت الحموي، والمبرد، وقراءة ابن وهب. كل هذه القراءات كان له موقف من بلاغة الجاحظ إمّا قبولا أو رفضا، والثابت أنها لم تخل من تقحمات الأيديولوجيا في كثير من الأحيان.

وفي **الفصل الثالث** الموسوم بـ: **قراءة الدارسين المحدثين لبلاغة الجاحظ،** تطرقنا لطبيعة الدراسات العربية الحديثة لبلاغة الجاحظ، مثل قراءة شارل بيلاّ **(chl. Pellat)**، وحسن السندوبي وشوقي ضيف، ومحمد العمري، وحمادي صمود.

وفي **الفصل (التطبيقي)** المعنون بـ: **الحوار حول بلاغة الجاحظ، حمادي صمود ومحمد العمري (أنموذجا)،** تطرقنا فيه إلى مدرستين كبيرتين اهتمتا بالبلاغة العربية عامة، وبالجاحظ خصوصا، يمثل المدرسة الأولى، وهي المدرسة التونسية **حمادي صمود،** ويمثل الثانية، وهي المدرسة المغربية **محمد العمري،** كما أدرجنا في هذا الفصل التطبيقي جهدا تحليليا، استضأنا فيه ببحث للسيد المشرف، تعرض فيه لتقييم قراءة العمري لجهد الجاحظ، وهو ما أفادنا خاصة في تحديد النموذج اللائق بالدراسة، فكان الاختيار اتباعيا لكتابين رئيسيين؛ هما: (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)، (**والتفكير البلاغي عند العرب**)، وهذا لكونهما يتضمنان أطروحتين متضادتين.

كما اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي في هذه الرسالة، كما أنه لابد لأي عمل من وجود الصعوبات وقد تمثلت عندنا في تشعب المادة العلمية، وضيق الوقت، وإذا كان من فضل يذكر على هذه الدراسة وعلى صاحبها –بعد الله عز وجل- فإنّه يعود ابتداءً، إلى الأستاذ الفاضل والأخ المشرف الدكتور بشير دردار –حفظه الله ورعاه- فإن لملاحظاته كبير الأثر في بلورة وتأسيس فصول ومباحث هذه الدراسة، فحفظه الله وأمدّ في عمره بالطول والبركة.

كما كان للمادة العلمية المبثوثة في الدراسات السابقة وغيرها، أهمية بالغة في عملنا، لأنّنا استطعنا الإفادة منها، فمنها ما يتعلق بنقد قُرّاء النص الجاحظي، ونخصّ بالذكر هنا قراءة محمد العمري، الموسومة بـ: **البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، والتفكير البلاغي عند العرب**، لحمادي صمود، **والبلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ**، لمحمد مشبال، **وكذلك دراسة للدكتور بشير دردار، بعنوان: إسهام الجاحظ في تاريخ البلاغة العربية قراءة حوارية لأطروحة العمري في كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، وأنماط تلقي السرد**، للتهامي، **والجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء**، لشارل بيلاّ، **وخطاب البلاغة بحث في الأنساق المتسارعة وجدل التأويل، بحث في مسارات تلقي الخطاب الجاحظي في النقد الحداثي**، لمحمد عبد البشير مسالتي.

في الأخير نرجو أن نكون قد وفقنا في تحقيق ما سعينا إليه من تقديم خدمة خالصة لتراثنا العربي، من خلال هذا الجهد العلمي المتواضع، المقلّ، وهذه الدراسة بوصفها مقاربة في نقد النقد لا نرى أنها حققت ما كانت تصبو إليه، فإن كان هذا العمل قدّم القليل ممّا رجوناه فللّه الحمد والمنّة، وإن كان العكس، فنرجو أن يعذرنا المتلقي، وأملنا أن نقدم ولو فكرة تمهد الطريق لغيرنا، ممن له اشتغال في هذا المجال، والله الموفق وإليه قصد السبيل.

الباحث: كحلي رابح

تيسمسيلت في: 2021/06/21.

الفصل الأول

البلاغة العربية، الجذور ومسارات التحول

الـفـصل الأول:
الـبـلاغة بـيـن الـعـرب و الـيـونـان

الـبـلاغة عـنـد الـعـرب

1. تمهيد:

لعله من المفيد في بداية هذا البحث -وقبل الحديث عن بلاغة العرب واليونان- أن نستعرض بعض تعريفات القدماء والمعاصرين للبلاغة، فهي تهتم «بالبحث في مظاهر الجمال الحسّي والمعنوي في المفردات والجمل، أمّا البحث في القيمة الجمالية للنص الأدبي المتكامل في أي صورة من صوّره، فهذا من وظيفة النقد الأدبي»[1]، من هنا ندرك قيمة ضبط مفهوم البلاغة في تنوير طريق الباحث عن جمال الكلمة العربية وفسيفساء العمل الإبداعي.

وهنا نذكر بأن البلاغة العربية تقوم بالمساهمة في بسط نظرياتها كآليات للدارس، وعلى أساسها يكون تقييم الشعر أو النثر، وما دامت البلاغة بهذه الأهمية، من حيث فاعليتها في التمييز بين جيد الخطاب ورديئه، «وعلى هذا فلابد للبليغ من التفكير في المعاني التي تموج في نفسه على أن تكون صادقة قوية يتجلى فيها أثر الابتكار وسلامة الذوق في تنسيقها وحسن ترتيبها»[2]، هذا بالنسبة للبليغ، فما هي البلاغة كمصطلح أو كمفهوم تداوله البلاغيون والدارسون في كتبهم، قبل أن تكبر وتتوسع مملكة البلاغة، وتتعالى أسوارها الشامخة ردحا من الزمن ؟

الـبـلاغة بـيـن الـلـغة و الاصطلاح

البلاغة لغة هي الانتهاء والوصول، وبلغ الشيء يبلغه بلوغاً وبلاغاً: وصل وانتهى، وتبلَّغ بالشيء: وصل إلى مراده، والبلاغ: ما يُتَبَلَّغ به، ويُتَوَصَّل إلى الشيء المطلوب، والبلاغ: ما بلغك والإبلاغ: الإيصال، بلغت المكان بلوغاً:

---

[1]- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم المعاني -البيان- البديع، دار النهضة العربية، بيروت،
(دت)، ص: 17.
[2]- المرجع نفسه، ص: 10.

وصلتُ إليه، والبَلْغ والبِلْغ: البليغ من الرجال، ورجل بليغ: حسن الكلام فصيحه، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، والجمع بُلَغَاء، وقيل: البلاغة: الفصاحة [1]، وفي تعريف آخر: «البلاغة التي يمدح بها الفصيح اللسان لأنه يبلغ بها ما يريده»[2].

وفي كتاب **البيان والتبيين** نجد تعريفات كثيرة للبلاغة عند العرب وغيرهم، وفسرها عمرو بن عبيد في أول الأمر تفسيراً دينياً ثم قال: فكأنك تريد تخير اللفظ في حسن الإفهام، وقال الأصمعي عن البليغ «إنّه من طبق المفصل وأغناك عن المفسر»[3].

وفي كتاب **نظرة الإغريض** أنّ «البلاغة هي الفصاحة، يقال بلغ الرجل بضم اللام فهو بليغ، ولا فرق بين البلاغة والبيان إلاّ في اللفظ»[4]، وقيل: البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكاناً كان أو زمانا، أو أمراً من الأمور المقدّرة.

انقسمت شروحات البلاغة وتفسيراتها بين الدارسين القدامى فقد قيل:«للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام، وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة، وقيل للهندي: ما البلاغة ؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة»[5].

والبلاغة تقع على الشخص وعلى الكلام نفسه، فنقول: رجل بليغ وكلام بليغ، والبلاغة لكليهما، وهي الفصاحة للقائل، وهي الكلام البديع المؤثر المفيد الصائب في موضوع لغته، المطابق لمعناه المقصود حقيقة ومجازاً، الصادق في ذاته، المطابق لمقتضى الحال والمقام، والراغب الأصفهاني (تـ502هـ) يجريه على القائل وعلى الكلام ذاته حين فسّر قوله تعالى: [**وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً**] (النساء آية رقم 63)، وذهب في تفسير كلمة (بليغ) إلى وجهين:

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط:8، 2014، مادة:(بلغ)، ج:1، ص: 143.
[2]- ابن فارس، مقاييس اللغة، بلغ.
[3]- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، عربي – عربي، مكتبة لبنان ناشرون، ط:2، 2007، ص: 236، نقلا عن البيان والتبيين، ج:1/ 88.
[4]- المظفر بن الفضل العلوي، نظرة الإغريض في نصرة القريض، تحقيق: نهى عارف الحسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، (دت) (دط)، ص: 17.
[5]- الجاحظ، البيان والتبيين 88/1.

- الكلام بذاته بليغ لأنه صواب في لغته، مطابق لمعناه المراد منه، وصادق في طبيعته ومضمونه، وإذا فقد إحدى هذه الصفات كانت بلاغته ناقصة.
- الكلام بليغ باعتبار قائله والمقول له، فالقائل يورد أمراً على وجه يقبله المقول له.

والبلاغة مأخوذة من قولهم: بلغت الغاية أي انتهيت إليها وبلغتها غيري، والمبالغة في الأمر أن تبلغ فيه جهدك، وتنتهي إلى غايته، وقد سميت البلاغة بلاغة؛ لأنها تعني المعنى إلى قلب سامعه فيفهمه[1]، وهي: «كل كلام يضطلع بمهمة الاقناع لا الإمتاع وحسب، وتسخر لأجل هذه الغاية كل الإمكانيات الفكرية والعاطفية واللغوية»[2].

هذه أبرز التعريفات التي شكّلت مفهوما لمصطلح البلاغة، فكل باحث حاول ضبط هذا المصطلح ليصبح تعريفا جامعا لها، منهم من نجح فيه، ومنهم من قصّر في إعطاء تعريف جامع للبلاغة، وعلى هذا الأساس نعود مرغمين لتعريفات القدماء، وإلى دراساتهم، لعلّنا نستطيع الإلمام بمادة البلاغة، دون إغفال الدراسات التي قام بها المعاصرون في تعريفهم للبلاغة عموما، وسنورد بعضها الآن، حتى تتشكل أمامنا الرؤية كاملة، وسيكون تفصيلها في المباحث اللاحقة سهلا لنا وللقارئ عموما:

- البلاغة هي **لمحة دالة**.
- البلاغة هي **معرفة الفصل والوصل**.
- البلاغة هي **الإيجاز من غير عجز والإطناب من غير خلل**.
- البلاغة هي **اختيار الكلام وتصحيح الأقسام، وهي قليل يفهم وكثير لا يسأم**.
- البلاغة هي **الإشارة إلى المعنى بلمحة تدل عليه**.
- البلاغة هي **الإيجاز مع الإفهام والتصرف من غير إضجار**.

---

[1]- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، علم المعاني –البيان- البديع، دار النهضة العربية، بيروت، (دت)، ص: 07.

[2]- فرونسوا مورو، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة: الولي محمد- عائشة جرير، أفريقيا الشرق، المغرب، 2003، ص:9.

- وهي وضوح **الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة.**
- وهي **قول تضطر العقول إلى فهمه بأيسر العبارة.**
- وهي **إجاعة اللفظ بإشباع المعنى.**
- وهي **إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع.**
- وهي **القوة في البيان مع حسن النظام.**
- وهي **ما قرب طرفاه وبعد منتهاه.**
- وهي **إصابة المعنى وقصد الحجة.**
- وهي **الجزالة والإطالة.**
- وهي **اهتداء المعنى إلى القلب في حسن صورة من اللفظ.**
- وهي **ما صعب على التباطي وسهل على الفطنة**[1].

تـعـريـفـات الـقـدمـاء لـلـبـلاغة الـعـربـيـة

1. مفهوم البلاغة عند العرب:

سنحاول إبراز مفهوم البلاغة عند العرب الأوائل، لأنه يكتسي أهمية بالغة، ما يجعله عنصراً مهماً في هذه الدراسة، لأن تحديد المفاهيم يقضي على الكثير من المغالطات الفكرية والإيديولوجية، ويحدد المعالم لدراسة أكاديمية ناجعة وفعالة، لذا نجد الجاحظ تناوله في (**البيان والتبيين**)، وأردف أقوالاً كثيرة تدل على اهتمامهم بالبلاغة العربية، وما التساؤلات التي يطرحها الخلفاء وعلية القوم على العلماء والأدباء في تلكم الفترة، إلاّ دليلٌ على عشق العربي لهذه البلاغة ولعربيته خصوصا، يقول الجاحظ: قال ابن الأعرابي: قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدي، ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا، فقال له رجل من عرض القوم: يا أمير المؤمنين، هؤلاء بالبسر والرطب منهم بالخطب، فقال له صحّار: أجل والله، إنّا لنعلم أن الريح لتلقحه، وأن البرد ليعقده، وأن القمر ليصغه، وإن الحرّ لينضجه، وقال له معاوية: ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال الإيجاز، قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحّار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ، فقال له معاوية: أو

[1]- عمار ساسي، المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع أربد الأردن- جدار للكتاب العالمي، عمان الأردن، ط: 01، 2007، ص: 39.

كذلك تقول يا صحّار؟ قال صحّار: أقلني يا أمير المؤمنين، ألاّ تبطئ ولا تخطئ[1].

يقول الجاحظ: والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الّذي كتبته لك في باب الإيجاز وترك الفضول، فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنّة[2]، ﴿**لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ**﴾ (الواقعة 19).

2. مفهوم البلاغة عند الجاحظ:

عند تتبع لفظة البلاغة في (**البيان والتبيين**) بالمعنى اللغوي والاصطلاحي، نجد أن «هذه المعاني تتضمن -بشكل أو بآخر- معنى الانتهاء إلى الغاية، مع بعض اللطائف الإضافية التي تقترب أو تبتعد من هذا المعنى العام، وغالبا ما يمكن استخلاصها من سياق النص الذي ترد فيه»[3]، وذكر الجاحظ عن أبي الأشعث قال: «أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة»[4]، وكذلك نجد لفظة البلاغة في قول صبرة بن شيمان الأزدي لمعاوية: «إنّا حيّ فعال ولسنا حيّ مقال، ونحن نبلغ بفعالنا أكثر من مقال غيرنا»[5]، وقد تأتي بمعنى الكيد والحيل في إدراك المطلوب، وذلك ما أورده الجاحظ من قول المهلب يوصي بنيه حيث يقول: «عليكم في الحرب بالمكيدة فإنّها أبلغ من الجدّة»[6].

والناظر في (**البيان والتبيين**) كذلك يجد مصطلح البلاغة بمعنى (المبالغة والإيغال)، وذلك في معرض حديثه عن موسى عليه الصّلاة والسلام: «رغبة منه غاية الإفصاح والمبالغة في وضوح الدلالة»[7]، والبلاغة عنده وصف للكلام واللفظ والمتكلم، حيث يقول: «إنّ الكلام لا يكون بليغاً إلاّ سابق معناه لفظه، ولفظه معناه، وأنّ اللفظ البليغ يقرر المعنى الشريف تقريراً يبلغ القلب ويتمكن من نفس السامع، وأن الواصف البليغ يجسم المعنى، ويصوّر الغائب

---

[1]- الجاحظ، الحيوان، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الثانية، 1424 هـ، ص: 1 /62.
[2]- المرجع نفسه، ص:42/3.
[3]- ينظر: محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1994، ص: 219.
[4]- الجاحظ، البيان والتبيين، 92/1.
[5]- المصدر نفسه، 247/1.
[6]- المصدر نفسه، 31/2.
[7]- الجاحظ، البيان والتبيين،31/1.

حاضراً»[1]، وكذلك نجدها في (**البيان والتبيين**) بمعنى اللسان والقلم، وذلك في قول بشر بن المعتمر: «فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ... إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة ... فأنت البليغ التام»[2].

وفي هذا الصدد يرى عبد العزيز عتيق أن «ترتيب المعاني التي حملتها لفظة البلاغة حسب التطور الطبيعي، وجدنا أنّ البلاغة أولاً كانت تستعمل ملحوظاً فيها معنى الخطابة، ثم وُسّع في مدلولها حتى شمل فنون القول المختلفة، من شعر ونثر وقصيد ورجز، ثم عن مدلولها حتى شمل الكتابة الفنية»[3].

3. مفهوم البلاغة عند سهل بن هارون:

هو سهل بن هارون* (142ه)، لُقّب لبلاغته وحكمته بزرجمهر الإسلام، كما نجد الجاحظ في مؤلفه **(البخلاء)** أورد رسالة لسهل بن هارون تتناول موضوع البخل، وهي رسالة أدبية طويلة، وهي رسالة قيل فيها الكثير، بحيث نجد فيها إدانة لصاحبها إذ عدّت شاهداً على بخله، وكذلك أظهرت شعوبيته ضد العرب، وأورد طه الحاجري محقق (**البخلاء**): «رسالة سهل بن هارون إلى محمد بن زياد وإلى بني عمه من آل زياد، حين ذمّوا مذهبه في البخل، وتتبعوا كلامه في الكتب»[4].

ومن خلال هذا الكتاب نستقرأ بعضاً من تعريفاته لمفهوم البلاغة، ولعلو منزلة سهل بن هارون عند الجاحظ، كثيراً ما يثني عليه «وفضلاً عن ذلك فقد احتفى الجاحظ في **(البيان والتبيين)** بكل قول قاله سهل في مسائل البلاغة والبيان وأبرزه بوصفه من الكلام المأثور الذي ينبغي حفظه والاستضاءة

---

[1]- المصدر نفسه، 113/1.
[2]- المصدر نفسه، 129/1.
[3]- عبد العزيز عتيق، تاريخ البلاغة العربية، ص: 64.
[4]- الجاحظ، البخلاء، تحقيق: طه الحاجري، ص: 20.

به»[1]، وذلك لقدرة هذا الأخير في مجاراة كبار الأدباء، وقيل أنه كتب كتابه هذا رداً على ابن المقفع.

يقول الجاحظ في **البيان والتبيين**، «وكان سهل في نفسه عتيق الوجه، حسن الشارة، بعيداً من الفدامة، معتدل القامة، مقبول الصورة، يقضي له بالحكمة قبل الخبرة، وبرقّة الذهن قبل المخاطبة، وبدقّة المذهب قبل الامتحان وبالنبل قبل لتكشف، فلم يمنعه ذلك أن يقول ما هو الحق عنده وإن أدخل ذلك على حالة النقص»[2]، والجاحظ عندما يأتي بترجمة طويلة لأحد ما فاعلم أنه بلغ مبلغه عنده من العلم والبلاغة والتأليف مبلغا.

ويقول أيضا: «كان سهل بن هارون شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة والجهارة، وبالحلاوة والفخامة، وجودة اللهجة والطلاوة»[3]، هذه هي ترجمة يسيرة من الجاحظ لبلاغة أبي سهل بن هارون.

تعريف البلاغة عند العسكري:

نجد مصطلح البلاغة بوضوح في كتاب **(الصناعتين)** لأبى هلال العسكري (تـ395ه) الذي فصّل فيه تفصيلا عجيباً حيث يقول: «إنّ أحق العلوم بالتّعلم وأولاها بالتّحفظ بعد المعرفة بالله-جل ثناؤه- علم البلاغة ومعرفة الفصاحة[4]»[0]، وقال البلاغة من قولهم: بلغتُ المكان، إذا انتهيت إليه وبلغته غيري، ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء: الانتهاء إلى غايته، فسميت البلاغة بلاغة؛ لأنّها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه، وسميت البلاغة بلاغة، لأنك تتبلغ بها

***- مترجم وفيلسوف وأديب، توفي 142ه. ولد قرب البصرة في أسرة فارسية الأصل ونشأ فيها وفي بغداد، ولابن هارون أيضا (تدبير الملك والرئاسة) و(الاخوات) و(المسائل) و(رسالة البخل)، التي اتهم بسببها بالشعوبية لازدرائه الكرم العربي.**

[1]- سهل بن هارون، كتاب النمر والثعلب – فصول مترجمة ومؤلفة- ت: ابراهيم عوض، مكتبة فلسطين للكتب المصورة، 2006- 1427، ص: 44.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، 92/1.

[3]- المصدر نفسه، 94/1.

[4]- أبي هلال العسكري، كتاب الصناعتين (الكتاب والشعر)، تحقيق: علي محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ط: 02، 1971، ص: 06.

فتنتهي بك إلى ما فوقها، وهي البلاغ أيضا[1]، والفصاحة والبلاغة ترجع لأمرين عند العسكري، هي كالآتي:

الأول:

أنّ الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما، لأنّ كل واحد منهما إنّما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له.

والثاني: أنّ الفصاحة والبلاغة مختلفتان، ذلك أنّ الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ، لأنّ الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى، والبلاغة إنّما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى[2].

6.البلاغة عند ابن سنان الخفاجي:

حاول ابن سنان الخفاجي(ت 466ه) أن يحدد البلاغة ويرسم معالمها، غير أنّه لم يأت بالكلمة الفاصلة والتعريف الجامع المانع، ولم يكن وحده الّذي فعل ذلك، فقد مرّت بالبلاغة تعريفات كثيرة نقلها الجاحظ في (**البيان والتبيين**)، وأبو هلال في(**كتاب الصناعتين**)، ولذلك أشار إلى اضطراب القوم في حدّها والوقوف على كنهها، وقال: «وقد حدّ الناس البلاغة بحدود إذا حققت كانت كالرّسوم والعلائم، وليست بالحدود الصحيحة فمن ذلك قول بعضهم (لمحة دالة) وهذا وصف من صفاتها، فأمّا أن يكون حاصرا لها وحدّا يحيط بها فليس ذلك بممكن لدخول الإشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هذا الحد»[3]، ولا نعرف لماذا لم يتوصل ابن سنان لتحديد تعريف جامع للبلاغة مثل الكثير من أقرانه.

وهنا نجده يفصل بين البلاغة والفصاحة، وهو واضحٌ جلي في قوله « :والفرق بين الفصاحة والبلاغة، أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلّا وصفاً للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح،

1- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

2- أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 07.

3- أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، ص: 56، نقلا عن سر الفصاحة، ص: 60.

وليس كل فصيح بليغا[1]»[0]، فالبلاغة عند ابن سنان تكمن في وصفها للمعاني والألفاظ، على عكس الفصاحة، فإنها تختص بوصف الألفاظ فقط.

هذا ما يؤكده أحمد مطلوب في تعليقه على القول السابق لابن سنان: «لقد وضع ابن سنان حدّا فاصلا بين المصطلحين، وحصر الفصاحة في الألفاظ، والبلاغة في المعاني والألفاظ، وأصبحت الفصاحة شطر البلاغة وأحد جزأيها، وهذه التفاتة حسنة، ولكنه أطلق **الفصاحة** على موضوعات البلاغة، وسمّى كتابه (**سرّ الفصاحة**) ومعنى ذلك أنّها تشمل الألفاظ والمعاني»[2]، هذا يدلّ دلالة واضحة على اهتمام ابن سنان بالفصاحة، إذ هي أكثر مباحث كتابه.

7.البلاغة عند عبد القاهر الجرجاني:

وفي المجال نفسه نجد عبد القاهر الجرجاني (تـ 471ه) لا يفرق بين البلاغة والفصاحة، لأنّه بفضلهما يستطيع المتكلم أن يعبر، ولهذا نجده يقول عن مزيتهما:«ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى (الفصاحة) و(البلاغة) و(البراعة)، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج، وكما ينفتح لك الطريق الى المطلوب لتسلكه»[3]، والفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان كلها كلمات مترادفة، ودقائق الفواصل والحدود بينها لم تتضح عند عبد القاهر.

8. البلاغة عند الرازي:

سار الرازي (313ه)على خطى عبد القاهر الجرجاني في ربطه الفصاحة والبلاغة بالمعنى، يقول عن البلاغة: «بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الاختصار المخل والإطالة المملة»[4]، وهو لا يختلف مع عبد القاهر في ربط الفصاحة بحسن الكلام والبعد عن سقيم البلاغة وعيّ الكلام.

---

[1]- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية الطبعة: الطبعة الأولى 1402هـ_1982م ص: 59.

[2]- أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، الفصاحة-البلاغة-المعاني، وكالة المطبوعات، الكويت، ط:1، 1980، ص: 57.

[3]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، علق عليه: محمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، ط:3، 1413ه-1992م، ص 34.

[4]- فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ، دار صادر، بيروت، ط:1، 1424ه-2004م، ص: 31.

10. البلاغة عند ضياء الدين ابن الأثير:

لا يختلف رأي ابن الأثير (ت630 ه) عن الجرجاني في البلاغة، حيث نجده يقول في تعريفه للبلاغة: «بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل والإطالة المملة»[1]، فنظرته للبلاغة كانت نظرة عامة شمولية، عكس نظرته للفصاحة فقد فصّل فيها كثيراً وأخذت حيزاً كبيراً من دراسته، فقد كان من أحسن المتتبعين لها.

ولا نغلو إذا قلنا إنّ ضياء الدّين ابن الأثير «كان أكثر من غيره تصوراً وفهماً لمعنى الفصاحة، وذلك حيث يقول: لم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول في الفصاحة والفحص عنها ولم أجد من ذلك ما يعول عليه إلاّ القليل، وغاية ما يقال من هذا الباب إنّ الفصاحة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي، يقال: أفصح الصبح إذا ظهر، ثم أنهم يقفون عند ذلك ولا يكشفون عن السر فيه، وبهذا القول لا تبين حقيقة الفصاحة، لأنه يُعترض عليه بوجوه من الاعتراضات: أحداها أنه لم يكن اللفظ ظاهراً بيناً لم يكن فصيحاً، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً، الوجه الآخر أنه إذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البين فقد صار ذلك بالنسب والإضافات إلى الأشخاص، فإن اللفظ قد يكون ظاهراً لزيد ولا يكون ظاهراً لعمرو، فهو إذن فصيح عند الجميع، لا خلاف فيه بحال من الأحوال »[2].

11.البلاغة عند السكاكي:

حينما قسّم السكاكي (تـ 626ه) البلاغة ووضع معالمها في كتابه **(مفتاح العلوم)** عرّفها تعريفا دقيقا، يقول:«هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها»[3]، وبهذا التعريف نستطيع القول إنه أخرج مباحث البديع من وجوه البلاغة، وترك علمي المعاني والبيان.

ولعل هذا كله كان وراء عدم وجود تعريف جامع للبلاغة عند العرب، وهذا ما توصل إليه ابن خلدون (ت808هـ) في كتابه **(المقدمة)**، إذ قال: « حصول

---

[1]- أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، ص: 58.

[2]- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، (دت)، ص: 13.

[3]- السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، لبنان، ط:2، 1987، ص: 415.

ملكة البلاغة للّسان، وقد مرّ تفسير البلاغة وأنّها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواصّ تقع للتّراكيب في إفادة ذلك، فالمتكلّم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرّى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فإذا اتّصلت مقاماته»[1]، ولعله من الواضح أن تعريف الكثير من القدماء لم يلامس الجوانب الكلية للبلاغة.

وفي خاتمة هذا البحث يمكننا القول أن هناك كثيراً من التعريفات تناولها حمادي صمود في كتابه، والذي يرى أن هذه تلك التعريفات لا تحقق الشروط الدنيا للمعنى الاصطلاحي، وإن توافر فيها جملة من الخصائص الأسلوبية المستمدة من النص، وأن البلاغة لم تخرج عن معناها اللغوي، ومن هنا ندرك جلياً أن هذه التعريفات لم تبتعد كثيراً عن بعضها وبقيت متقاربة جداً.

كما أنّ أحمد مطلوب أجاد وأفاد حول مصطلح البلاغة الذي يراه جامعا لها، لأنّ أي مصطلح من المصطلحات الجديدة التي أسرف بعضهم في إشاعتها والتعصب لها، وبذلك نحتفظ بالمصطلح القديم وما ينضوي تحته من فنون قديمة وحديثة، وللباحثين الجدد الحرية الواسعة في معالجتها ورسم المناهج التي تكفل فائدتها وتطورها، ما دامت الأصول ثابتة والأسس متينة راسخة[2].

ولعل أحسن ما نجد في هذا الباب، هو تعريف العسكري الذي يفصح عن معنى البلاغة وأهدافها بقوله: «البلاغة هي كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن»[3]، ولعل هذا التعريف الأقرب للصواب، وقد أعجب به كثير من الدارسين، منهم بدوي طبانة في كتابه **(علم البيان)** معلقاً على هذا التعريف: إنّما جعل أبو هلال العسكري حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة، لأن الكلام إذا كانت عباراته رثة ومعرضه خلقا لم يُسمَّ بليغا، وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المقرن، ومن قال إن البلاغة إنّما هي إفهام المعنى فقط جعل الفصاحة واللكنة

---

[1]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون المؤلف، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: 808هـ) عارضها بأصولها وعلق حواشيها: محمد بن تاويت الطنجي، الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1425 هـ - 2004 م، 1 / 775 .https://al-maktaba.org/book/32188

[2]- ينظر: أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، ص: 63.

[3]- أبي هلال العسكري، كتاب الصناعتين (الكتاب والشعر)، تحقيق: علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم– المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ص: 10.

والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة سواء، وأيضا فلو كان الكلام الواضح السهل والقريب السلس الحلو بليغا، وما خالفه من كلام المستبهم المستعلى والمتكلف المنعقد أيضا بليغا، لكان كل ذلك محموداً وممدوحاً مقبولا لأن البلاغة اسم يمدح به الكلام»[1]، ولعل تعريف العسكري هو الأقرب والأنسب للبلاغة بشهادة أكبر الدارسين المعاصرين.

12. مفهوم البلاغة عند الهند[2]:

ارتبطت البلاغة في الهند بالصحيفة الهندية، ولعل هذا ما يجعلنا نتساءل عن علاقة مفهوم البلاغة عند الهنود بمفهومها الذي عرفه العرب، ومن خلال هذه الصحيفة والنص الذي فيها، ما هو الدافع الذي جعل الجاحظ وغيره يوردونها ضمن مؤلفاتهم؟

لقيت الصحيفة الهندية مبلغاً كبيراً من الاهتمام لدى الدارسين، وقد اهتم بها الجاحظ، وهو أول من أوردها في كتابه **(البيان والتبيين)**، لما فيها من تعريفات للبلاغة، وتتبعها الجاحظ بمزيد من الشرح والتحليل، يقول فيها: قال معمّر أبو الأشعث: قلت لبهلة الهندي أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند، مثل منكة وبازيكر وقلبرقل وسندباد وفلان وفلان: ما البلاغة عند الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، ولكن لا أحسن ترجمتها لك، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، وتلخيص لطائف معانيها، قال أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا فيها:

أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمّة بكلام الأمّة ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كلّ التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما، ومن قد تعوّد حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة الاعتراض

---

[1]- بدوي طبانة، علم البيان – دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية- ، دار الثقافة بيروت، 1981، ص: 07.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، 95/1.

والتصفح، وعلى وجه الاستطراف والتظرف قال: ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال له وفقا، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا، ولا مقصرا، ولا مشتركا، ولا مضمّنا، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه مونقاً، ولهول تلك المقامات معاوداً، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلا[1]، ويبقى سبب إيرادها في **البيان والتبيين** هو اشتمالها على عدة فنون وقواعد في صفات البليغ والمتكلم.

1.البلاغة عند اليونان:

لقد شهد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد حركة علمية وثقافية وفكرية كبيرة، كانت الفلسفة أحد أقطابها، حيث اشتغلت بالميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة، وذلك راجع لطبيعة المعتقدات الدينية اليونانية في تصورهم لله الذي اختلفوا حوله كثيرا، في هذه الأثناء ظهرت جماعة السفسطائيين، الذين كان لهم نشاط قوي، وكلمة سفسطائي بمعنى أستاذ «وقد اشتق الاسم من كلمة **Sophia** أي الحكمة، وهي نفس الكلمة التي اشتق منها الفلاسفة اسمهم وأصبحت كلمة فيلسوف **Philosophe** تعني محب الحكمة وكلمة سفسطائي **Sophiste** تعني معلم الحكمة»[2]، ولكن المعنى الأخير تغير، كون السفسطائيين قد تعرضوا لهجوم شديد، بدءًا من سقراط **Socrates** إلى أفلاطون **Platon**.

2. السفسطائيون والتمهيد للبلاغة:

لقد كان السفسطائيون مهداً للخطابة أو البلاغة الإقناعية، التي تؤهل لاحتلال المراتب السياسية العليا في أثينا، «فهم علموا المواطنين الضروريين للمشاركة في الحياة السياسية فنون المناقشة والخطاب...»[3]، وهذا يدل بالتأكيد على تحكمهم في فن القول، وقدرتهم على الإقناع بالحجة والدليل.

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين،95/1.

[2]- ينظر: أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص:21.

[3]- غنار سكيريك- نلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، مراجعة نجوى نصر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان،ط1،2012م، ص:90.

من أشهر السفسطائيين في اليونان القديمة نجد غورجياس **Gorgias**، ولد سنة (487) (ق.م) وتوفي (380ق.م) معروف بأنه خطيب بارع، قد «انتقل إلى ممارسة فن الخطابة بوصفها طريقة إقناع»[1]، وليست مجالاً للنقاش والاعتقاد العقلي، فكان هدفه تغيير وجهات نظر المخاطَبين وآرائهم، أي التأثير على المستمعين.

كما نجد من زعماء السفسطائيين بروتاجوراس (**Protagoras**) عاش (485-410 ق.م)، الذي كان يتلقى أجراً باهظاً مقابل دروسه في الخطابة، وذلك ما أثار أفلاطون، ليشن عليه هجوماً قوياً، لعلمه بشدة تأثير الخطابة وآثارها السلبية على المستمعين، والسبب في تمكن خطابة بروتاجوراس من نفوس المخاطبين، هو فلسفته المغايرة لعرف الفلاسفة اليونانيين من قبلهم، وتجاوزه للميتافيزيقا، تلك الفلسفة التي تدعو إلى «أن يهتموا بالإنسان ومشاكله وعلاقته بالطبيعة وبالغير»[2]، وهو بهذا يكون واقعياً، فيجعل للإنسان موقعاً متميزاً وسط العالم الذي يعيش فيه، وأنه مركز التفكير في علاقته مع نفسه وغيره، وفي علاقته مع الطبيعة.

ولعل الجانب المهم في تاريخ البلاغة هو تفسير السفسطائيين لمفهوم المهارات الفنية في أسطورة إبيميتي* **Epiméthée**، وهي مهارات عملية يحتاجها الإنسان، إلاّ أن بروتاجوراس يؤكد على وجود مهارات أخرى، ليضرب مثالاً عن طبيب تكون له مهارة فنية عند وصفه الطريق إلى العلاج، لكن ماذا لو رفض المريض تناول الدواء، فنحن هنا بحاجة إلى مهارة لإقناعه، والشخص المناسب لهذه المهمة لابد أن يملك بلاغة القول، و«هكذا يضع بروتاجوراس المهارة العملية والقولية على قدم سواء بل إنه عند التأمل يجعل الأهمية لفن القول»[3]، فإذا كانت المهارات العملية تكتسب بالتعلم، فإن فن القول يجب أن يحظى بنفس ذلك الاهتمام.

---

[1]- غنارسكيريك - نلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ترجمة: حيدر حاج اسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط:1، 2012، ص:94.

[2]- أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي، ص:23.

***- إبيميتي: أسطورة تبين موقع الإنسان من الكائنات المحاطة به.**

[3]- أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي والأوروبي، ص:24.

ومن أهم مؤلفاته التي لاقت رواجاً كبيراً، ونقلة نوعية في هذا الباب «نجد كتاب (**الخطابة**) لأرسطو لا لغيره ممن تقدمه من الخطباء، أو ممن تأخر عنه من تلاميذه، والثانية أن فكرة الخطابة أصيلة في نفس مؤلف الكتاب، لم يقترضها من أحد ممن تقدمه»[1]، ومن شغف العرب به أن تمت ترجمته إلى العربية.

إنّ الطريقة والمنهج في كتاب الخطابة مما تفرد به أرسطو، ولم يعرضه أحد من سابقيه من خطباء وغير خطباء عرضه ولا نهج نهجه، ولا زالت جدته باقية على الزمن، ولا تزال طريقته خصبة منتجة، وإنّي لا أتردد في أن أقول إنه العمل الحقيقي الذي انتفع به المحدثون انتفاعا صحيحا[2].

وفي هذا الباب «قد عرض فيه الخطابة عرضا نظريا، كما عرض لهذه الأصداء الجدلية التي يختنق في ضوضائها صوت الخطابة، وهو يعرض ما يعرض في صراحة الواثق المجدد الذي يزهو بحدة تفكيره»[3]، وإن كتبه متأثرا بأفكار أشياخه سقراط وأفلاطون وبأفكار السفسطائيين الذين تصدى لهم ولأفكارهم، إلاّ أن شخصيته بارزة واضحة فيما كتب فقد قرأ أفكارهم وزيّف كثيرا منها، كأنه المؤلف الأول لتلك المادة البلاغية[4].

3.بلاغة سقراط:

تظهر مكانة الخطابة في المجتمع اليوناني القديم من خلال محاورات أفلاطون مع **جورجياس jorjiase وفيدر feder**، تلك المكانة التي تؤهلها لمنافسة الفلسفة، وإبعادها عن مجال الحياة والسياسة، «وقد تصدى سقراط لهذه النزعة التي استفحلت عند السفسطائيين»[5]، وهذا ما يدل على أن السفسطائيين قد أفادوا البلاغة لمّا جعلوها موضع الحوار والجدل بين الفلاسفة والمفكرين، وذلك ما ساعد أرسطو على إرساء قواعد بناء العبارة وتنظيم أجزاء القول.

---

[1]- إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، ط: 01، 1369هـ- 1950م، ص: 09-10.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 12.

[3]- إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، ص: 16.

[4]- ينظر: إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، ص: 17.

[5]- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الاقناعي، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2002، ص:14-15.

لقد نضجت البلاغة اليونانية كثيرا مع سقراط، وكان له تأثير كبير في بلورة البلاغة في تلك المرحلة من خلال الأمور التالية: أنه لا يحب البلاغة الكلامية، وأنه يفضل التمسك بالحق والعدل على الزخرف والتثقيف في الكلام الذي يلفق تلفيقا، فالبلاغة عنده هي بلاغة الحق، أما الفصاحة أو البلاغة فلا يلجأ إليها إلا المخادعون والمخاتلون»[1]، فهذه الفترة عرفت تقديسا للعقل إذ هو المحكم لكل شيء، وعليه تم استبعاد البلاغة.

1. القضايا المستوردة من اليونان:

2. المجاز:

من أبرز القضايا المستوردة من اليونانيين هي المجاز، والمجاز عند اليونانيين كما شرحه أرسطو هو: «الإجادة في المجازات معناها الإجادة في إدراك الأشياء»[2]، ويقول أيضاً: «والمجاز نقل اسم يدل على شيء إلى شيء آخر، والنقل إمّا من جنس إلى نوع أو من نوع إلى جنس، أو من نوع إلى نوع أو بحسب التمثيل»[3]، فالمجاز بهذا التحديد عند أرسطو يعني كل ما يتجاوز التعبير الحقيقي البسيط؛ هو تعبير ذو احتمالات وتأويلات مختلفة، كما تحدث أرسطو عن أنواع المجاز المختلفة كالاستعارة والألغاز والأمثال والطباق والتقابل، وقرن المحاكاة بالمجاز.

3. الحجاج: تعود أصول نظرية الحجاج إلى ما أنجز ما بين القرنين(5 ق م) (و4 ق م) في اليونان، وهو من القضايا النظرية التي طرحها التراث الخطابي اليوناني، بعد تاريخٍ طويل من إسهام السفسطائيين ومعلمي الخطابة قبلهم، فقد استوى نظرياً على يد أرسطو.

4. الخطابة: يعتبر أرسطو **aristo** خطيباً يونانياً مؤصلاً للخطابة في كتابه **(الخطابة)**، المترجم إلى العربية، هذه الطبعة جاءت –وللأسف- سقيمة انحرفت عن معاني النص وأساءت فهمه، وعبر المترجم - المجهول لنا - عمّا فهمه بألفاظ واصطلاحات غريبة يعسر على المرء أن يفهم السر في التجائه إليها[4]،

---

[1]- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الاقناعي، ص: 234.

[2]- أرسطو، فن الشعر، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973م، ص:64.

[3]- أرسطو، فن الشعر، ص85.

[4]- ينظر: تصدير أرسطو طاليس، الخطابة الترجمة العربية القديمة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت– دار القلم، لبنان، 1979.

وله كتاب منسوب أيضا (**الشعر**)، إذ يعتبر «كتاب الخطابة لأرسطو لا لغيره ممن تقدمه من الخطباء، أو ممن تأخر عنه من تلاميذه، والثانية أن فكرة الخطابة أصيلة في نفس مؤلف الكتاب، لم يقترضها من أحد ممن تقدمه»[1]، والناظر في موضوعات الكتاب يدرك جليا أنه كتاب بلاغي بحت في تعدد مواضيعه التي أسهمت في التعالق مع البلاغة العربية بالرغم من سوء ترجمته كما قال غير واحد من المحققين.

وقد أظهر أفلاطون معاداته لبلاغة السفسطائيين، وعمل على نقض أصولها، خصوصاً من خلال محاورته لجورجياس، باعتبار بلاغتهم ركّزت على الحشود الشعبية القائمة على المصالح والأهواء، فكان مجيء أرسطو في الوقت المناسب، ليعيد لها مكانتها من خلال مؤلفه **(الخطابة) (Rhétorique)**، الذي كانت فيه بحوث جد مهمة في بلورة المباحث البلاغية برؤية جديدة تعكس توجهه، حيث يعرفها بقوله: «الريطورية قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة»[2]، ومعنى الخطابة هنا هي القدرة على التأثير باستخدام الوسائل الممكنة وذلك بحسب الأحوال أو الموضوع.

ويقسم أرسطو الخطابة إلى ثلاثة أنواع: **الاستشارية والقضائية والاحتفالية**، وهي كما عبّر عنها بقوله: «فمن الاضطرار إذاً يكون الكلام الريطوري ثلاثة أجناس: مشوري، ومشاجري، وتثبيتي»[3]، وقد استخلص أرسطو تلك الأنواع من السفسطائيين؛ حيث يعتبرها من الأدوات الأساسية لتسيير المجتمع في المحاكم أين تلقى الخطب القضائية، وفي التجمعات الشعبية تلقى الخطب الاستشارية، وفي الأولمبياد تلقى الخطب الاحتفالية، وهذه مقامات مخاطبة العامة بغية الإقناع، وبهذا حاول أرسطو الربط بين البلاغة والمؤسسات الديمقراطية الأثينية والحياة الاجتماعية.

كما أن موضوع الخطابة مجال رحب للقيّم التي تحيا في كنف الأجناس الخطابية الثلاثة، فالعدل والظلم يلازمان الخطابة القضائية، والخير والشر يلازمان الخطابة الاستشارية، والجميل والقبيح يلازمان الخطابة الاحتفالية أين

---

[1]- إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، ط: 01، 1369ه- 1950م، ص: 09-10.

[2]- أرسطو طاليس، الخطابة، ص:9.

[3]- المصدر نفسه، ص:17.

يكون فيها المدح والذم، وبذلك «فإن الناس جميعا إنما يمدحون ويذمون على حسب ما هو موجود قائم وقد يستعملون الأدب أحياناً»[1]، وبالتالي أمكن إدراج الخطابة الاحتفالية ضمن الخطاب الأدبي؛ حيث إن الجمهور غير مطلوب منه أن يصدر حكماً، والخطبة التي تضطلع عند الإغريق بالمدح والذم، بالإمكان أن تحقق ما كان يحققه شعر المدح والهجاء عند العرب.

وتنقسم البلاغة اليونانية إلى قسمين القسم الأول هو الابتكار(**Invention**)، وفي مصطلح أرسطو(**Eurisis**)، وهو قسم يتعلق بابتكار الموضوع والمادة الخام للنص، «ويعني به أرسطو تجميع الوسائل الضرورية أو المواد الخام التي سوف يتشكل منها المقال أو الخطبة، ومن بين هذه الوسائل تأتي وسائل الاحتجاج»[2]، إلاّ أن حمادي صمود يرى أن معاني هذا القسم موجودة (في كلمة) البصر بالحجّة «العربية وموجودة في الشروح والتحليلات المصاحبة لكلمة (**Eurisis**)»[3]، والبصر بالحجة معناه الظفر بالشيء والوقوع عليه، وهو معنى موجود في العبارة العربية.

وقد استعرض في الفصل الخامس الخاص بـ (**الفلاسفة والمتكلمين**) من كتابه (**مناهج بلاغية**) المطبوع ببيروت عام (1973)، جوانب واسعة من أوجه تأثر البلاغة العربية بكتب الفلسفة اليونانية ومنطق أرسطو بدءاً من مقالة بشر بن المعتمر المتوفى في نهاية العقد الأول من القرن الثاني الهجري، وانتهاءً ببعض القرون المتأخرة التي طغت فيها الفلسفة وعلم المنطق وعلم الكلام على البلاغة، بعد أن اكتملت مباحثها حتى أحالت كتبها ميدانا للنزاع الفلسفي والجدل المنطقي، وأدى الأمر إلى انتهاء البحث في البلاغة إلى ضروب من الخلاف والمناقشة، تعقد لها مجالس المناظرة ويجلس لها المحكمون بين السعد التفتازاني والسيّد الشريف، حين يتناظران في اجتماع الاستعارة التبعية والتمثيلية وعدم اجتماعهما، كأنهما يتناظران في مشكل من أصول القوانين أو معضل من مسائل

---

[1]- أرسطو طاليس، الخطابة، ص:17.
[2]- أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي الأوربي، ص:26.
[3]- فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس، ص:14.

الفلسفة إلى أن ينهزم السعد فيموت كمدا وضحية الفلسفة في البلاغة المظلومة[1].

أمّا القسم الثاني فيتمثل في الترتيب أو التنظيم (**Disposition**) وعند أرسطو (**taxis**) والمقصود بهذا القسم الترتيب المنطقي للأفكار والموضوعات والمقدمات والنتائج، أما القسم الثالث فيتمثل في الفصاحة (**Elocution**) وهو (**Lexis**) في خطابة أرسطو، ويسمي صمود هذا القسم بالعبارة وهي «اللفظ المناسب الذي به يخرج كل ما كان في الذهن والذاكرة إلى الوجود والفعل»[2]، فيستطيع الخطيب عن طريق العبارة أن يوصل رسالته إلى المخاطب ويقضي حاجته.

وقد تناول هذا القسم أساليب الفصاحة وصياغة الألفاظ وتحسين العبارة وأناقة الرصف والسبك، ولعل الفصاحة «تحل من الخطابة -كما يقول الأقدمون- محل الألوان من الرسم، وتفصيل القول في طريقة محاولة تحقيق الفصاحة في العمل الأدبي هو المجال الواسع لعلم البلاغة بتفريعاته المختلفة، لكن هناك في المنهج الأرسطي سمات عامة للأسلوب تكسبه الفصاحة مثل الصفاء والتجديد وعدم التكلف وعدم السوقية والاتساق بين أجزائه»[3]، وبهذا فقد أحدث أرسطو تقارباً كبيراً بين الخطابة والأدب، وهو ما يجعل عنصر الفصاحة من أهم الأقسام.

أما القسم الرابع فيعرف بالإلقاء، وهو الأداء الفعلي وما يصاحب ذلك من أساليب التشويق والحركات الجسدية المصاحبة للإلقاء، وقد أضاف أرسطو للمراحل الثلاث السابقة الخاصة بفن القول «مرحلة رابعة سمَّاها (**Hypocrisis**) وتعرف في اللاتينية بـ (**Actio**)»[4]، وهي عند الإغريق تدل على تقمص الشخصية في التمثيل المسرحي، «أما ابن رشد فاستعمل في مقابل المصطلح

---

[1]- ينظر: أحمد مطلوب، مناهج البلاغة، بيروت، 1973، ص:204 .
[2]- فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة، فريق البحث في البلاغة والحجاج، تونس، ص:16.
[3]- أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي الأوربي، ص:27.
[4]- فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج، ص:173-174.

الأرسطي عبارة (الأخذ بالوجوه)»[1]، أي أن الأشياء المصاحبة للألفاظ أثناء القول أو التعبير، تثير اهتمام المستمعين وتجعلهم يقبلون بوجوههم على المتكلم.

والقسم الخامس كما يقول اللاتين «مرحلة خامسة لكن لا علاقة لها بالإنتاج في الحقيقة وتتمثل في استظهار الخطيب للخطبة استعداداً لإلقائها وسمّوا هذه المرحلة (**Memoria**) أي الاستظهار»[2]، وهذا القسم متعلق بحفظ الخطبة أو النص الخطابي عن ظهر قلب، وما يصاحب ذلك من مهارات التذكر والاستحضار.

وكمحصلة لهذا المبحث نستطيع القول إن البلاغة اليونانية لم تبتعد كثيرا عن البلاغة العربية نظرا لتعدد مواضيعها وتقاربها في الغالب، وهذا ما ظهر جليا في القسم الثالث من بلاغة أرسطو الذي يشبه **المعاني والبيان والبديع** عند البلاغيين العرب.

لـمحات بـلاغيـة فـي الـعصر الـجاهـلي و الإسلامـي

1.العصر الجاهلي:

لقد زخرت الأمة العربية منذ القديم بتاريخ حافل وثري، من حيث ما تملكه من بيئة ولغة وعرق، كان الجاهلي يقطع المسافات الطويلة بحثا عن الكلأ والماء، وباحثا عن وطن جديد، وفي خضم هذه التنقلات بين الرمال والجبال ومواقع القطر جعلته يعيش حياة خاصة، في طريقه كان يحدو متغنياً بكلمات عشقها على مر الأزمنة، فكم تعلق الجاهلي بلغته، بل بلغ من عشقه لها مبلغا كبيرا، أن صار هو المنافح عن قبيلته، لأنه أصبح هو لسان القبيلة والمدافع عنها، فكلماته تبلغ الآفاق، ترفع أقواما وتضع آخرين، فكم من بيت يقوله الشاعر يرفع قبيلة إلى المجد والعز، وكم هانت قبيلة ما بسبب قصيدة أو بيت مقذع.

لقد فتق لسان الجاهلي وأصبح بليغا متكلما لأسباب كثيرة سنوردها لاحقاً، و«إذا نظرنا إلى تاريخ البلاغة العربية سنجد أن ملاحظة تميز بعض صيغ التعبير، وانزياحها عن المعتاد المستعمل عند عامة الناس، وسجل في الذاكرة

---

[1]- فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج، ص:174.
[2]- المرجع نفسه، ص:174.

قبل عصر التأليف، وقبل أول محاولة لتقعيد اللغة وهذا أمر طبيعي وقع ذلك قبل مجيء الإسلام واستمر بعده »[1]، وهكذا تطورت لغته وفق ما عرفته بيئته من تطورات أيضا.

نستطيع القول بأن العرب في العصر الجاهلي لم تكن تفخر بالفصاحة فحسب، بل لا يتسيّد الفرد قومه، ولا يصبح من الكبراء والوجهاء حتى تكتمل له عدة خصال، مثل البيان والتواضع والحلم والصبر والسخاء، كما عرف عندهم أن البيان شرط من شروط السيادة عند العرب، وقد وصف الله تعالى ذلك في عدة مواضع مثل: ﴿**وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ**﴾ (المنافقون، الآية 4)، ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (البقرة، الآية 204)، وقوله تعالى ﴿**ما ضرَبُوهُ لكَ إلاّ جَدَلا بَلْ هُم قومٌ خَصِمُون**﴾ (الزخرف، الآية 58)، ويروى أن الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول الألدَّاء استمع إليه وهو يتلو بعض آي القرآن، فقال: {**واللهِ لقَد سمعتُ منْ محمد كلاماً، ما هُو من كلامِ الإنسِ ولاَ من كَلامِ الجِن وإنّ لهُ لحلاَوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لـمُثمِر، وإنّ أسفله لـمُغدِق**﴾[2]، هذا فيه دلالة على ما كان لهم من الفصاحة وحسن الكلام، لذلك تحداهم القرآن الكريم بأن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، هاته القوة الخطابية البلاغية تظهر في خطبهم وقصائدهم الطوال، وذلك جليٌ في لغة العرب في العصر الجاهلي، وهي لغة الإيجاز، يقول بعض الحكماء: البلاغة علم كثير في قول يسير[3].

وهكذا كان ولع العربي الجاهلي بشعره «ولهذا فقد كانت نظرتهم إلى الفن عموما، وإلى الشعر خصوصا، نظرة دقيقة، مستمدة روحها من الإحساس المرهف والشعور الرقيق الذي يمكنه من تمييز الأشياء والحكم على الجيد

[1]- محمد مشبال، البلاغة والخطاب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط:01، 1435ه- 2014، ص: 18.

[2]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط: 9، ص: 9، نقلا عن تفسير الزمخشري لسورة المدثر.

[3]- عبد القادر حسين، فن البلاغة، عالم الكتب، بيروت، ط: 2، 1984م، ص:14، نقلا عن خزانة الأدب للبغدادي 95/3.

والرديء منها على حد سواء»[1]، وأصبحت ملكة النقد عنده قوية يستطيع بها تمييز الجيد من غيره وفق أحكام عرفية متعارف عليها في تلكم الفترة.

وأكثر من هذا فقد وضع العرب محاكم بلاغية يعرض فيها الشاعر شعره، ويرى النقد يطاله فيها، وكانت سوق عكاظ بجوار مكة محفلا بلاغيا تعرض فيه العرب أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولا وما ردوه منها كان مردودا، فقدم عليهم علقمة بن عبدة اليمني فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هل ما علمتَ وما استودعتَ مكتومٌ أم حَبلها أن تأتِك اليومَ مصرومُ

فقالو: هذا سمط الدهر، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم:

طحا بك قلب في الحسان طروبُ بعيد الشبابِ عصرٌ حان مشيبُ

فقالوا هاتان سمطا الدهر[2].

تميّزت القصائد التي أُلِّفت في العصر الجاهلي باعتناء العربي بالألفاظ والمعاني والصّور، فقصائدهم مملوءة بالتشبيهات والاستعارات والكنايات والطباق والمقابلة والجناس، كما يروى أن زهير بن أبي سلمى كان يدقّق وينقّح قصائده، لأنّ النقّاد لن يتركوا القصيدة دون غربلة، فتمر السنة قبل أن يشرع في قصيدة أخرى، «ولا نبعد كثيراً إذا زعمنا أن العرب في الجاهلية عرفوا الفن البياني، ولعل قول زهير:

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من لفظنا مكرورا

أوضح دليلٍ على أن العرب في الجاهلية عرفوا الفن البياني»[3]، وما يلاحظ فيما يقوله زهير وغيره تكرار للمعاني المعروفة بألفاظ مختلفة.

والناظر في شعر الجاهليين يلحظ أنهم مطبوعون على السليقة، والإحساس والمزاولة والممارسة، والدّليل على هذا كله، هو أن العرب في جميع أزمنتهم اعتنوا بفصاحة اللفظ وجزالته، ورقّة الأسلوب، وحسن اختيار الألفاظ، والموافقة بين كلمة وكلمة أخرى، هذا ما يجعل الوقع أقوى على السامع، «وكان للغة قريش أوفى نصيب في اللغة التي اختارها العرب لغة لأسواقهم الأدبية

---

[1]- بلخير ارفيس، البلاغة العربية بحث في الأصول والامتدادات، (ب س)، (ب ت)، ص: 13.
[2]- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تح: إحسان عباس وآخرون، دار صادر، بيروت، ط:3، 2008، ج:21، ص: 144.
[3]- عبد القادر حسين، فن البلاغة، عالم الكتب، بيروت، ط: 2، 1984، ص:15-16.

ولغتهم الموحدة»[1]، فاختيار لغة قريش كلغة أدبية فنية يتقاسمها الجميع، يرجع إلى ثقل المكان المتمثل في موقع مكة المكرمة، وما تحمله هذه الأخيرة من رمزية دينية عندهم.

كان للعرب أسواق كثيرة في «نجد والحجاز واليمن وحضرموت، وأشهر تلك الأسواق ثلاثة كانوا يجتمعون فيها في أوقات صعبة وهي سوق عكاظ وهي أشهرها، وكانت بين نخلة والطائف شرقي مكة، وكانت تستمر عشرين يوما من أول ذي القعدة إلى العشرين منه»[2]، ولم تقتصر على التجارة وحدها بل كانت سوقاً للشعر والخطابة يتعاكظ فيه العرب أي يتفاخرون ويتناشدونّ.

وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قس بن ساعدة وهو يخطب في الناس بسوق مُجنة، وكانت على مقربة من عكاظ، وكانت تعقد في العشرة الأخيرة من ذي القعدة وتنطلق الأفراح من «سوق ذي المجاز كانت تعقد في أوائل ذي الحجة وتستمر إلى نهاية الحج وهي على مقربة من ينبع»[3]، وصارت هذه الأسواق محفلاً للمساجلات الشعرية، وأصبح الشاعر صاحب رسالة، وأخذ مكانة رفيعة وسط قبيلته وفي القبائل المجاورة، وإذا ظهر في هذه المرحلة شاعر أصبحت له حظوة وأتت إليه القبائل مُهنِّئةً، مقيمة له الأفراح.

قال صاحب الأغاني: كان يضرب للنابغة قبة من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها وحدث ذات مرة أن أنشده الأعشى أبو بصير، ثم حسان بن ثابت ثم أنشده الشعراء ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد:

وإن صخراً لتأتّم الهداةُ به كأنّهُ علمٌ في رأسه نـارُ

فقال: والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقال حسان: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابغة: يا بن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فـإنّك كالليلِ الذي هو مُدركي وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ
خـطاطيف حجنٌ في جبال متينةٍ تمـدُّ بـها أيدٍ إليك نـوازعُ

---

[1]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، (دط)،(دت)، ص:26.
[2]- سامي أبو زيد – منذر كفافي، الأدب الجاهلي، دار المسيرة، عمان، ط:1، 2011م، ص:32.
[3]- المرجع نفسه، ص:32.

فخنس حسان لقوله، ولما غضب حسان قال له حيث تقول ماذا ؟ قال: حيث أقول:

لنا الجَفَناتُ الغُــرُّ يلمَعنَ بالضُّحى وأسيافنا يقطرن من نَجدَةٍ دَمَــا
ولـدنـا بـنـي العنقاء وابْنيْ مـحرِّقٍ فأَكرمْ بنا خالاً وأَكرمْ بنا ابْنَمَا

فقال له النابغة: إنك لشاعر لولا أنك قَلَّلْتَ عدد جِفانك وفخرتَ بمن ولدتَ ولم تفخر بمن ولدك[1].

لقد احتل الذوق مكانة مرموقة في الأدب كونه «الملكة التي لا غنى لأي ناقد عنها، لأنها تملكه من التعرف على مواطن الجمال والقبح فيها، يعرض له من النصوص عند سماعها أو قراءتها، ويستطيع بعد ذلك أن يقف عندها ويتبين أسرارها، ثم يعلل له بما أوتي من العلم والمعرفة، والإحاطة بجوانب الموضوع، وبما أوتي كذلك من قدرة على التعمق، والتحليق والاكتشاف»[2]، فهل أصبح الذوق مهمة يستلهمها -الناقد- في مرحلة من مراحل ما قبل الإسلام، ومنه نستطيع القول إن الذوق هو مرحلة أولية للحكم على الشعر.

كما أنّ العرب في هذا العصر اهتموا باللغة والبيان وبرعوا فيه، وهذا ظاهر في قصائدهم التي اشتهروا بها، وحملتها دواوينهم، وفي تلك المرحلة «كان الشعراء حينئذ يقفون عند اختيار الألفاظ والمعاني والصور، وكانوا يسوقون أحيانا ملاحظات لا ريب في أنها أصل الملاحظات البيانية في بلاغتنا العربية»[3]، فقد كان الشاعر يعبر عن ما في داخله من مشاعر وأحاسيس تجاه القبيلة وتجاه نفسه وهمومه، وتجاه الأعداء والأصدقاء، فاعتنى بالوزن والقافية، بل تفنن فيها تشبيها واستعارة.

كانت هذه الفترة الجاهلية ممهدة لمرحلة أخرى بعد أن أرسل نبي الهدى إلى البشرية عامة وإلى جزيرة العرب خاصة، كان مبعثه نقطة انعطاف في الكثير من مظاهر الحياة في هذه المرحلة، ومعها تغير النثر والشعر والبلاغة في عصر جديد سمي بالعصر الإسلامي.

---

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط:9، (ب ت)، ص: 11.
[2]- طه إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب حتى القرن الرابع هـ، ص: 29.
[3]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 13.

الـبـلاغة الـعـربـيـة فـي صدر الإسلام

1. تمهيد:

بعد بزوغ فجر الإسلام واتساع رقعته، وكثرة الوافدين إليه، أصبحت الحاجة ماسة إلى شعراء وخطباء مفوهين، يدافعون عن هذا الدّين الجديد، وعن العقيدة التي تنادي إلى توحيد الله ونبذ الشرك ومظاهره، فالمسلمون يدافعون عنه وعن رسولهم عليه الصلاة والسلام وصدق نبوته بكل قوة، وهنا إذ ننوه بأنّ الدعوة الإسلامية قامت بالحجة والبيان، فالمسلمون يمدحون ويفتخرون برسولهم، ويهجون المشركين، والمشركون بدورهم يردون، وكل فريق يركّز على البراعة الفنية والمقدرة البلاغية لاستمالة المخاطبين.

والإسلام هو الدّين الجديد المهيمن على هذه المرحلة التي جرى فيه التغيير رأساً على عقب، «وأهم حدث في تاريخ العرب هو نزول القرآن، وأهم شيء فيه أن تحداهم فيما برعوا فيه، وجعل عجزهم على ذلك دلالة على صدق نبوة النبي صلى الله عليه وسلم»[1]، فالجزاء من جنس العمل والتحدي جاء من الذين يحسنون، فهل يستطيعون؟

فتحداهم أن يأتوا بمثله ولن يستطيعوا، فقال سبحانه عز وجل: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (يونس الآية،38)، وقال لهم أيضا ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِين**﴾ (هود، الآية،13)، وقال لهم أيضا في معرض التحدي: ﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ**﴾ (الطور الآية، 34).

ولما سمع العرب بهذه الآيات العظيمة انبهروا، وشدتهم هذه الأساليب البلاغية، كيف لا وهم أهل لغة وبيان، وهم قوم «عرفوا بالبلاغة وخصّوا بالفصاحة، وكانت هذه المزية مجال الافتخار وموطن الشرف والاعتزاز، غير أن إمكانية وجود رؤية واضحة حول طبيعة ذلك السر الجمالي الذي حذقوه، لم يكن يعلم بوجود غريزة لغوية، وحس مرهف يمكن تحديد الحسن من

[1]- بلخير ارفيس، البلاغة العربية بحث في الأصول والامتدادات، ص: 19.

الرديء»[1]، وهي مزية قد يكون الإسلام سببا في تطويعها، وتدويرها لخدمة الإسلام وقضاياه.

هذا النزول القرآني المتواتر أشعرهم بالنقص والغيض، حاولوا بكل ما استطاعوا من قوة أن يأتوا بمثله ولكنهم يردوا على أعقابهم خاسرين، وقالوا بأنه ما هو بشعر ولا بنثر، ولا سجع كسجع الكهان، وإنما هو سحر كسحر السحرة، وقد أدرك الوليد بن المغيرة بأن بلاغة القرآن الكريم فاقت بلاغة البشر حتى قال عنه إنه ﴿**سحرٌ يُؤثر**﴾ (المدثر، الآية 24).

لا شك أن القرآن الكريم كان له تأثير عظيم في نشأة البلاغة وتطويرها، فقد عكف العلماء على دراسته وبيان أسراره، واتخذوه مداراً للدرس البلاغي، وجعلوا آياته شواهد على أبواب البلاغة، واعتبروها مثالاً يحتذى به في جمال النظم ودقته، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب، كما كان شديد الاهتمام والحرص بالشعر والشعراء، ومن ذلك قوله لحسان رضي الله عنه: «**قل وروح القدس يؤيدك، وقوله لأبي ليلى: لا فضّ فوك**»[2].

وفي نفس السياق يقول الجاحظ: «بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، قطع العذر وأزال الشبهة»[3]، هذه المرحلة -كما يقول الجاحظ- هي مرحلة الدعوة، وإنزال الحجج على المخالف وتقديم خطاب موجه لمتلقي يحمل في مخيلته الرفض لهذا الدين الجديد، فكانت الحجة دامغة في نزع هذه الشبه من عقول المعارضين.

وقد سمع النبي صلى عليه وسلم قول النابغة الجعدي الذي فيه:

بلغنا السَماء مجدنا وجُدودنا وإنّا لنبغي فوق ذلكَ مظهراً

ومن فرط إعجابه بهذا البيت قال له: **إلى أين المرتقى يا أبا ليلى: فقال إلى الجنة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (لا فض فوك)**، وفيه يقول الجاحظ:

---

[1]- بلخير ارفيس، البلاغة العربية بحث في الأصول والامتدادات، ص: 19.

[2]- الرافعي، إعجاز القرآن الكريم وبلاغته النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ص:256.

[3]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الوعي، الجزائر، ط3، 2012، ص36، نقلا عن الاتقان 2، 117-118.

«لم ينطلق إلاّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلاّ بكلام قد حف بالعصمة... وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته.. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم»[1]، وهو كلام نفيس من أبي عثمان لبلاغة المصطفى عليه السلام، وتعبير في غاية الروعة والجمال.

وكان يقول عليه الصلاة والسلام {**لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفس، كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه**}[2]، وهذا من حسن بلاغته عليه السلام.

وفي عهد الخلفاء الراشدين حافظت اللغة العربية على نقائها وسلامتها، «كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي خطباء مفوهين، وكانوا يستضيئون في خطابتهم بخطابة الرسول الكريم وآي الذكر الحكيم»[3]، وما يدل على خطابة الخلفاء الراشدين وبلاغتهم في القول.

وكذلك ما يروى عن أبي بكر رضي الله عنه من أنه عرض لرجل معه ثوب فقال له: أتبيع الثوب؟ فأجابه: لا عافاك الله، وهنا ظاهر اللفظ عند الفصل بين النفي والدعاء يوحي بأن النفي مسلط على الدعاء وذلك ما يؤذي أبا بكر، فقال له: لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا وعافاك الله[4]، وقول أبي بكر هذا ينم عن روح نقدية متميزة.

ويحكي الرواة عن بلاغة عمر رضي الله عنه إنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أي شدقيه شاء، كما كانت له مساهمات نقدية ضمّنها النقاد والبلاغيون على حد سواء في مؤلفاتهم، أمّا علي رضي الله عنه فقد اشتهر بالفصاحة والبيان، ولا شك في أنّ بلاغة العرب في صدر الإسلام لا تختلف عن

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، 17/2.
[2]- الجاحظ، الحيوان، 335/1.
[3]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص14.
[4]- الجاحظ، البيان والتبيين، 161/1.

بلاغة العصر الجاهلي، حيث بقيت أساليبهم على الطبع والسليقة والدربة والتثقيف، كما عرف العرب في هذا العصر الإيجاز والإطناب والمساواة في القرآن.

أمّا العصر الأموي شهد ازدهاراً كبيراً لفن الخطابة بمختلف أنواعها من سياسية وعظية واحتفالية، أشهرهم في السياسة من ولاة بني أمية، الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن أبيه، وفي الحجاج يقول مالك بن دينار: «ربما سمعت الحجاج يخطب، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجج»[1]، وهذه شهادة على اقتدار الحجاج وبراعته في حسن الكلام وقوة الإقناع.

ومن خطباء المحافل صحّار العبدي الذي راع معاوية بخطابته «فسأله: ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز فقال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحّار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ»[2]، أمّا خطباء الوعظ فقد اشتهر فيهم غيلان الدمشقي، والحسن البصري، وواصل بن عطاء، فبلغوا ببيانهم أعلى المراتب، حتى قال الجاحظ: «إنّ أدباء العصر العباسي كانوا يتحفظون كلام الحسن وغيلان، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية»[3]، وهذا ما ألهمهم بياناً خالصاً سادوا به زمناً طويلا.

الـبـلاغة فـي عصر بـنـي أمـيـة

لقد كثرت الملاحظات البيانية في عصر بني أمية وذلك لعدة أسباب منها تحضُّر العرب واستقرارهم في المدن والأمصار، كما ازدهرت الحياة العقلية بسبب ظهور الأحزاب السياسية، فكان هناك الأمويون والخوارج والشيعة والزبيريون، والفِرق الدينية من المرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة، «فكان طبيعياً أن ينمو النظر في بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان، لا في مجال الخطابة والخطباء فحسب، بل أيضاً في مجال الشعر

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص394.
[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، 96/1.
[3]- المرجع نفسه، 95/1.

والشعراء»[1]، ولعله يعد العامل الأكبر في الرقي باللغة والخطابة وحسن البيان، فكل فريق يحاول استمالة المتلقي بسحر بيانه وقوي عباراته.

لقد اشتد التنافس بين شعراء المديح والهجاء خاصة شعراء النقائض جرير والفرزدق والأخطل، فأكثروا في مدح الخلفاء والولاة لينالوا الجوائز والثناء والقربى، «وقامت في هذا العصر سوق الـمِـربَد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة مقام سوق عكاظ في الجاهلية»[2]، لينشد فيهما الشعراء أحسن ما صاغوه من قصائدهم، وأجود ما جادت به قرائحهم.

يروى عن جرير أنه سمع عمر بن لجأ التيمي ينشد في أرجوزة له يصف إبله:

قـد وردتْ قبل إنى ضَحائها وتَفرِسُ الحيَّاتِ في خِرشَائها*

جَرَّ العجوزِ الثَّنْيَ من رِدائها

فتعرض له يقول: كان أولى بك أن تقول: (جَـرَّ العروس) لا جر العجوز التي تتساقط خوراً وضعفاً واستشاط عمر غضبا، فهجاه، واحتدم بينهما الهجاء»[3]، وملاحظة جرير تدل على السعي لاختيار أحسن الألفاظ ووضعها في سياقاتها المناسبة، ليزيد الكلام بلاغةً وفصاحة.

الـبـلاغة فـي عصر الـخلافـة الـعـبـاسية

1.تمهيد:

بعد سقوط الخلافة الأموية، ظهرت الخلافة العباسية على أنقاضها الذين بنوا حضارة كبيرة اتسعت للكثير من الأجناس والقوميات، واستثمرت في الجانب العلمي والأدبي، واستغلت كل الجنسيات في تقريب الأدب والعلم والثقافة من الجنس العربي، فبعد القضاء على بني أمية ولاحقوهم في كل مكان،

1- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:15 – 16.

2- المرجع نفسه، ص: 16.

*- إنى: وقت، من أنى يأنى حان وقته، ضحاء الإبل: مرعاها في الضحى، تفرس: نحطم وتدق، الخرشاء: جلد الحيات.

3- الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 03، 2008، ج8، ص: 75، http://www.islamport.com

كان آخرهم محمد بن مروان الملقب بالحمار الذي قتل بمصر، واستمر حكمهم طويلا حتى انتهى على يد المغول الذي لم يترك أخضراً ولا يابساً.

وتنسب الخلافة العباسية لابن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد بنوا دولتهم على ضفاف بغداد بعدما نقلوها من دمشق، لتكون عاصمة لهم ومنها تنتشر الفتوحات في ربوع العالم شرقا وغربا، وقد عمّرت قرابة ثمانية قرون بداياتها كانت أكثر قوة، كانت الحاضرة العربية تجمع الفنون والعلوم من أصقاع الدنيا وعملت على ترجمتها، وتشجيع الكتاب والعلماء والأدباء، وأغرتهم بالأموال والمناصب وقربتهم من الديوان الملكي ككتاب وخطاطين ومستشارين.

بعد دخول الموالي من الفرس وغيرها والذين كثر فيهم الشعراء والكتاب، فكانوا سببا في تطور الشعر والنثر، حيث اشتهر الكثير من الوافدين إلى جزيرة العرب ووصل صيتهم الآفاق، وإضافة إلى الشعر اهتم الكثير باللغة أيضا، وكانت لهم بحوث وجهود مباركة في الرقّي بالنحو والعروض وغيرها من الفنون اللغوية، زيادة على أن هناك من اعتنى بالخطابة والمناظرة، وصولا إلى الترجمة التي ازدهرت وغيرت مجرى الحياة الأدبية في ذاك الزمن.

لقد كثرت الملاحظات البلاغية في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، فكان العرب يكرهون التكلف والإغراب في اللفظ، ولا يحبون الإسهاب في الكلام وهو صفة ذم، أما الإطناب فصفة مدح في البلاغة، وكانت أقوال الخلفاء والصحابة رضوان الله عليهم تعتبر من الشواهد لدى البلاغيين في البديع والمعاني، من هنا كان اعتناء النقاد والبلاغيين بالملاحظات البيانية، وعليه نستطيع القول بأن الأصول الأولى للبلاغة العربية بدأت ملامحها تتضح في بيئة هؤلاء العرب الخُلَّص.

2.البصرة:

لقد جعل العباسيون من بغداد القرية الصغيرة الحالمة على ضفاف دجلة، عاصمة تزهو بقصور شامخة قامت على أنقاض صروح كسرى، قبل هذا الازدهار الكاسف الذي عرفته مدينة الرشيد، كانت البصرة حاضرة العلم والتجارة، كانت سوقها المربد ملتقى التجار والمثقفين واللغويين والشعراء يتبارون فيها ويتبادلون الرأي والسلع، وكانت خضرتها الخصبة تستهوي المتمولين فيؤمونها انتجاعاً للراحة واللهو، قامت البصرة على مفترق طرق

المواصلات البرية والبحرية والنهرية وغصت بالسكان من كل جنس ولون: من عرب، إلى آراميين، إلى انباط إلى فرس، إلى زنج وزط، إلى هنود وسنديّين[1].

فالبصرة التي نشأ بها الجاحظ هي «شيخة المدن، المدرسة التي عرفت بتبني المذاهب العقلانية في مجرى حضارة العرب، إن نضجت تلك الحضارة بعد المهدي، خاصة عهد الرشيد والمأمون والواثق وعندما حان القطاف عند عصر المتوكل في القرن الرابع الهجري ويعدونه صاحب الفضل والزخم في منح العبارة العربية، وفن التأليف، والنظرة البانورامية لشؤون الكون، ورسم كل ما رأى في مؤلفات لها الموسوعية وإن ما كتبه الجاحظ عن شؤون المعرفة يلذ لنا، ويحملنا على الاختيار والمصاحبة، وما ذلك إلاّ لأن الرجل مهر كل مؤلفاته بطابع شخصه المحبب، الظريف، الذي يروقك، ويسحرك»[2].

إذن دراسة الجاحظ من الداخل لا تكفي دون الرجوع إلى البيئة الحاضنة أو إلى الخارج، ومن المعلوم أنّ الجاحظ قد ظل في بغداد متعلقا بالبصرة وذا صلة بها، «ففيها تعلم، وهو مدين لعلماء البصرة بثقافته العربية وبعد تخرجه من الكتّاب حيث حفظ القرآن، سلك مسلك الهواة، فلازم بعض رواة الحديث، ولكنه كان يفضل عليهم حلقات اللغويين والنحاة والندوات التي كانت تعقد في المسجد أو سوق المربد حيث كان يحضر المساجلات الشعرية ويستمع الى رواة الاخبار، كما أنه لم يفته الاستماع إلى بعض الوعاظ الشعبيين»[3]، ومن خلال الاطلاع على مؤلفات الجاحظ نجده يذكر البصرة كثيرا بين ثنايا كتبه، فما هو السبب؟، وما هي الدوافع التي جعلته يحن للبصرة.

وفيها قد كوّن ملكته العلمية واستنار طريقه في نظم الكتب والرسائل، «ولقد اهتم الجاحظ اهتماما كبيرا برسم ملامح البصرة بصفة واضحة، وذلك من خلال أعماله الفنية، حيث نرى التركيز على أن يكون ذكر البصرة في مواضع كثيرة، ولكنها غير مكررة حتى يستطيع الباحث أن يكون ملامحه الذاتية، وانطباعه الشخصي عن هذا الاقليم ولذلك فإنه يصدر به حكاياته في

---

[1]- ينظر: جميل جبر، الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط:1، 1429ه- 2008، ص: 7-8.

[2]- علي شلق، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1:، 2006، ص: 7.

[3]- شارل بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، المؤسسة الثقافية للنشر والتوزيع سوريا، 1961، ص: 12-13.

البخلاء، فيأتي موضوع ‹قصة أهل البصرة من المسجديين›، بعد رسالة سهل بن هارون وطرق أهل خراسان، ونحن نعلم ما كان للمسجد من وظائف أساسية في الانتشار المعرفي وتأصيل المفاهيم، ومناقشة وتعليم الدرس البلاغي ذاته»[1]، فالأدوار التي لعبتها هذه البيئة في تكوين الجاحظ المعرفي والذي سيكون له شأن كبير في امتداد السنوات التي عاشها أبو عثمان.

كما كان الجاحظ شرارة النثر الأولى، وبه بدأ التأسيس، «كما كانت البصرة كما يقول شارل بلات- في بادئ أمرها فسيفساء من اللغات والتنوع اللغوي، ورغم ذلك كان هناك توحيدا لغوي ونهضة فكرية بارزة»[2]، كانت إلى زمن بعيد تمثل صرحا ثقافيا متميزا، يرحل اليها من علت همته من كل حدب وصوب، فكانت ملهما للشعراء والأدباء والفلاسفة، وأسست البصرة والكوفة في وقت معا وترضت كلتاهما لأسباب متشابهة وظروف متقاربة، وتكون شعبهما من جماعات إسلامية ترجع إلى أصول متحدة فنزلها العدنانيون والقحطانيون والمضريّون والربعيّون.

ونشأ بين البصرة والكوفة خلاف من الناحية العلمية جاء بعد محل العصبية القبلية، كما يقول أحمد أمين، فتأثر العرب بالفرس، فقد أسس العرب البصرة في السنة الرابعة عشر وضعت على نمط عربي في السنة السابعة عشر، وأصبحت البصرة مدينة إسلامية تمثل الدين الجديد، وغلب عليها العنصر العربي الفاتح، ونشطت الحياة فيها نشيطا عجيبا، فكان في هذه الحياة الجديدة ما جاء موائما للطابع العقلي، مؤازرا له.

كما ظهرت صورة واضحة لحركة الجدل الديني المسيحي الذي كان سائداً في هذا الإقليم متأثرة بالفلسفة اليونانية، كذلك كانت حركة الكلام في حقيقة أمره إلا صناعة الجدل وفن المناظرة لتأييد مذهب أو رأي ديني أيا كان هذا المذهب، إسلاميا أو غير إسلامي، فهو ليس خاصاً بالمعتزلة، ففي الرافضة والمجبرة والنابتة والمنانية متكلمون، والكلام فيما يظهر أخص بالمعتزلة دون غيرهم لأن الرافضة حينما اضطروا للمنافحة عن مذهبهم كان لابد لهم من اصطناع أساليب

---

[1]- شوقي علي الزهرة، في المفهوم البلاغي عند الجاحظ قراءة ابداعية جديدة، دار الآفاق العربية، مصر، ط:1، 2016، ص:36.

[2]- شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص: 176-177.

المعتزلة في المناظرة[1]، وبالتالي تبقى البصرة ركيزة من ركائز الحضارة العربية التي كانت لها اليد الطولى في تكوين أدب الجاحظ.

هذا الزخم بمختلف ألوانه وتناقضاته في الواقع العباسي انعكس على كتابات الجاحظ فلم ينس الديك والكلب والبغال وأخلاق الملوك والحيوان والبيان والتبيين، وغيرها من العناوين التي أشغلت الدارسين قديما وحديثا.

3. صناعة التأليف كما مارسها الجاحظ:

قبل أن يصبح الكتاب كيانا معرفيا له وضعه التداولي الخاص بين قارئيه، بعد أن كان أوراقا مبعثرة هنا وهناك، فقد عاشر الكتاب حياته كلها دون ملل وسآمة، كل هذه الارهاصات تقدم صورة عن طريقة تأليف الكتاب في لحظة تأسيس كيان ثقافي إسلامي عربي، وتدشن مرحلة جديدة في تاريخ المعرفة الإنسانية بشكل عام، والإشكال الذي يطرح نفسه كيف يصبح الكتاب حاملا للمعرفة بين دفتيه؟، وفي سبيل إيصال المعرفة للقارئ ما المنهج الذي اتبعه؟، وكيف كانت ملامح التأليف في كتبه ورسائله؟

نجد عند الجاحظ إشارات إلى تاريخ التأليف والترجمة، فانتشرت الكتابة في كل الأمصار حيث أحصى أربعة عشر رجلا ألفوا في الأنساب، عاش أكثرهم في الجاهلية، وعند ظهور الإسلام، كما أشاد بمجموعة اشتهرت بالشعر والأخبار والأنساب وأيام العرب، وهم مخرمة بن نوفل وأبو الجهم بن حذيفة وحويطب بن عبد العوى، وعقيل بن أبي طالب، كما أشار الجاحظ إلى معاناة الوراقين في التصحيح والنسخ وقد كتب فيهم رسالتين إحداهما مدحا والأخرى ذما[2].

وقد كان الجاحظ على وعي تام بما تمليه العملية الكتابية، وما يقوم عليه المنهج في العملية البنائية لمؤلفاته، «وما تقتضيه طرق الاستدلال لتبليغ مقاصده إلى من سيتلقى كتابه على الوجه المقبول، كقوله في رسالة نفي التشبيه: ‹وقد بينت ذلك بالوجوه القريبة، والدلالات المختصرة، وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة، واستشهدت الكلام المعروف، والقياس على الموجود›، ووجدت أن

---

[1]- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، ص: 40-46

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، 323/1

إحساس الجاحظ بتبويب كتاب الحيوان ظل يؤرقه طيلة تصنيفه للكتاب»[1]، وفعلا عندما نأتي إلى أبواب البيان والتبيين نراها متداخلة أتي فيها بكل أنواع الحيوان دون ذكر سبب للتقديم والتأخير وعلى أي أساس بنا كتابه فهناك أبواب بلغت من الطول ما بلغت، وأخرى قصيرة إلى حد الإخلال، كل هذا استطرادا.

ولكن كان للجاحظ تصور خاص للكتاب وللكتابة كيف لا وهو أمير البيان العربي، ونجد الجاحظ يقدم تصورا واضحا لتصميم الكتاب في نص أورده ياقوت في مقدمة معجم البلدان، وهو قوله: «وقد حكي عن الجاحظ أنه صنف كتابا وبوبه أبوابا، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء، فأحضره وقال له: يا هذا إن المصنف كالمصور وإني قد صنفت في تصنيفي صورة كانت لهما عينان فعورتهما، قطع الله يديك، حتى عدّ أعضاء الصورة، فاعتذر إليه الرجل بجهله هذا المقدار وتاب عليه عن المعاودة إلى مثله»[2]، فالجاحظ له طريقة خاصة في التأليف لا يشبهه فيها أحد، وحتى الذين ينتحلون مؤلفاته سرعان ما يكتشفهم، وهذا بالضبط الذي وقع له مع رجل قد عوّر كتابه بالحذف الذي أوقعه على كتابه.

ومن جهة أخرى نجد الجاحظ معجبا بتصميم الكتاب وخاصة جودة الابتداء عامة، «جاء في البيان والتبيين: ‹الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه ‹...› وأسموها: جودة الابتداء› ولعله هو أول من استعمل لفظ مقدمة وأدرك أهميتها، وتوطئة في رسالته المسائل والجوابات»[3]، وهذه لفتة لم يسبقه فيها أحد من الأدباء.

كان الجاحظ شديد الإعجاب بمؤلفاته، متباهيا بها مستشعرا عظمة أدبه وما جادت به قريحته، وها هو يقول في كتابه فصل ما بين العداوة والحسد: «هذا كتاب ‹...› نبيل بارع، فصل فيه بين الحسد والعداوة، لم يسبقني إليه أحد، ولا إلى كتاب فضل الوعد الذي تقدم هذا الكتاب، ولا إلى أخلاق الوزراء الذي تقدم كتاب الوعد، وإنما نبلت هذه الكتب وحسنت وبرعت وبذت غيرها لمشاكلتها

---

[1]- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، ص: 89.

[2]- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1397ه- 1977م، المجلد1، ص: 14.

[3]- ينظر: عباس أرحيلة، الكتاب وصناعة التأليف عند الجاحظ، ص: 90-91، نقلا عن البيان والتبيين ص: 112/1.

شرف الأشراف، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغربية، والآثار الحسنة اللطيفة، والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة، ومكارم الباقية المأثورة»[1]،وهذا يدلنا دلالة واحدة على اهتمام الجاحظ بما كتبه، فقد برع في هذا الفن وسبق الكثير في هذا المضمار.

يرى الجاحظ أن سلطة الكتاب هي سلطة المعاني، كيف لا وهو الذي دافع كثيرا عن المعاني وخصّها بمباحث بين طيات كتبه، وها هو يقول: «والأصل في ذلك أن الزنادقة أصحاب ألفاظ في كتبهم، وأصحاب تهويل، لأنهم حين عدموا المعاني ولم يكن ولم يكن عندهم فيها طائل، مالوا إلى تكلف ما هو أخضر وأيسر وأوجز كثيرا»[2]، فنظرة أبي عثمان تنطلق من زاوية خاصة به تمثلت في المعاني، حيث استكره التكلف الذي يعتبر من العي في البلاغة العربية.

هنا نجد الجاحظ ينبه على ضرورة العناية بمراجعة الكتاب، والعمل على تنقيحه قبل عرضه على المتلقي، حتى لا يصير هدفا للانتقاد والمتابعة، بحيث يعتبر القارئ عدو للكاتب، هذا العدو هو الناقد البصير أو المتخصص البارع، الذي يتتبع الاخطاء والهفوات بصمت، فعلى المؤلف عدم التسرع في إخراج الكتاب، «ينبغي لمن كتب كتابا ألاّ يكتبه إلاّ على أن الناس كلهم أعداء، وكلهم عالم بالأمور وكلهم متفرغ له»[3].

وفي سياق آخر يرى الجاحظ أنه يجب على الكاتب تحمل «بعض المضايقات، كان الجاحظ على علم بما ينتظره عندما ينوي وضع كتاب باسمه»[4]، فكان له استراتيجية بعيدة المدى حول ما يدور في الساحة الأدبية، ولهذا لم يبخل في تقديم النصيحة للمؤلفين عساهم يسلمون من سهام النقد.

لقد أسهمت بيئات مختلفة منذ أوائل العصر العباسي في تسجيل ترقية الملاحظات البلاغية إلى مستوى اللبنات النظرية الأولى، أولها طائفة اللغويين التي كانت لها مباحث لغوية وقرآنية تتخللها إشارات بيانية، وطائفة المتكلمين،

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين: 8/1.

[2]- المصدر نفسه، 342/1.

[3]- المصدر نفسه، ص: 88/1.

[4]- عبد الفتاح كيليطو، الكتاب والتناسخ مفهوم المؤلف في الثقافة العربية، ترجمة: عبد السلام عبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط:2، 2008، ص: 61.

وعلى رأسهم المعتزلة التي كانت أكثر البيئات إسهاماً في تطور البلاغة العربية، ويمكننا تلخيص السمات والخصائص العامة التي ميزت هذه المؤلفات:

- عدم التبويب العلمي، والذي برز أكثر في مؤلفات الجاحظ، «فعلى الرغم من أن كتابيه الكبيرين البيان والتبيين والحيوان من أهم المؤلفات البلاغية في تلك المرحلة – بل لعلهما أهمها على الإطلاق – فإن افتقار الكتابين إلى التبويب العلمي الدقيق يجعل الإفادة الكاملة منهما على قدر كبير من الصعوبة والعسر» ، وذلك ما يجعل القارئ يبذل جهداً كبيراً لاستخلاص الآراء المبعثرة فيهما.

- اختلاط قضايا البلاغة بالعلوم الأخرى، والتي كان أبرزها مجموعة العلوم القرآنية ومجموعة العلوم اللغوية ومجموعة العلوم الأدبية ، وذلك ما نجده في مجاز القرآن لأبي عبيدة والبيان والتبيين للجاحظ.

وبعد فترتين مختلفتين تماما، فترة ما قبل الإسلام المسماة بالمرحلة الجاهلية، والأخرى الفترة الإسلامية، وبين ذا وذاك سار الدرس البلاغي بوتيرة بطيئة، مقارنة بما ستشهده البلاغة فيما بعد، حيث اختلطت المباحث البلاغية بفنون أخرى كالنحو والإعجاز، والذي سيكون عليه الحديث في المبحث التالي.

4.أوليات التفكير البلاغي عند العرب:

منذ أن وطئت أقدامهم جزيرة العرب أصبحوا مهووسين بفصاحتهم مجبولين بفطرتهم على القول البليغ، فقد كانوا إن «تكلموا بالخطابة، يوجزون موضع الإيجاز ويسهبون موضع الإطناب، ويصرحون موضع التصريح، ويلمحون في موضع التلميح، وكانوا يخاطبون الناس على قدر عقولهم وأفهامهم، فيكلمون العامي بلفظ عادي، والفيلسوف بلفظ منطقي، إذ الناس عندهم مقامات ولكل مقام مقال»[1]، فهذا ميدانهم الذي برعوا فيه، وتربى عليه الصغير قبل الكبير، وأصبح عرب الجاهلية معروفين بهذا دون سواهم من الأمم الأخرى كالفرس الذين عرفوا بالسياسة، واليونان الذين اشتهروا بالفلسفة والحكمة، والهند الذين غلبت عليهم الكهانة.

---

[1]- حسين حسن أسود، ملامح من التفكير البلاغي عند العرب في العصر الجاهلي، مجلة التراث العربي، عدد: 116، ص:02.

اشتهر عرب الجاهلية بالسجية البلاغية، والحس النقدي، بحيث أصبح الواحد منهم يميز بين الكلام الجيد وبين الكلام الرديء، فإن خرج عن سجيته أو خرج عما هو شائع عندهم، تدخلت القوانين الطبيعية لتصحيح الخطأ، وتقويم هذا الشذوذ، هذا ما جعلهم يدعون إلى الوعي والتفكر والتأمل والنقد، ومن هنا بدأ التفكير البلاغي ينمو ويكبر شيئا فشيئا في تلك البيئة، وقد بدأت تظهر ملامح هذا التفكير في بعض المظاهر التي اعتاد عليها العربي الجاهلي والتي جاءت كالتالي:

5. الوعي اللغوي:

لقد عرف الجاهلي قيمة اللغة التي وهبها الله له، وأدرك أنه يرث ملكة الفصاحة والبيان، من هنا عملوا على تطوير لسانهم قصد مسايرة لغته، والرقي بها، فكانوا يمحصونها، «لذلك يصح أن يقال إن اللغة العربية كانت مبعثا أساسيا من بواعث التفكير البلاغي عن العرب القدماء، فعندما نظر العربي القديم إلى لغته في مهدها الأول فكر ببصيرته، وأدرك بفطرته وذوقه السليم ضرورة تجنب كل ما يشين الكلام، وينقص من جماله، ويحط من درجة بيانه، فيتجنب كل ما يشنع تأليفه من الألفاظ أو يثقل نطقه على اللسان»[1]، فوعيهم بلغتهم حقق لهم التدرج في الرقي بتفكيرهم البلاغي، «ولم يقف الأمر عند هذا الحد فلقد أسهموا في تشكيل الذوق الأدبي عند العرب بصفة عامة، وسرى مفعول ذلك إلى وقت متأخر جدا وصل إلى مشارف القرن السادس»[2]، فقد كان اللغويون لهم دور كبير في بلورة الذوق العربي لوقت متأخر.

6. القرآن الكريم:

يعتبر القرآن الكريم أهم حدث عرفه العرب فقد كان منعطفا للكثير من المحطات التي ألفوها، فقد كان له بالغ الأثر في تحويل حياة العرب من جاهلية جهلاء إلى نور الإيمان والإحسان، «ولقد غدا القرآن القطب الذي تدور حوله مختلف المجهودات الفكرية والعقائدية للمسلمين، ومنطلق تلك المجهودات وغايتها في نفس الوقت ناهيك وأنه استطاع، بإشارة ذكية من أحد أقطابه وهو عبد الله بن عباس، أن يحتوي الشعر، وهو ذاكرة العرب وهو ذاكرة العرب

[1]- حسين حسن أسود، ملامح من التفكير البلاغي عند العرب في العصر الجاهلي، ص: 220.
[2]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 31.

وصلتهم التاريخية بحياتهم قبله»[1]، فكان بالفعل منشئا للكثير من القضايا التي شكلت موضع التفكير لديهم كقضية الإعجاز والاحتجاج للنبوة، والحقيقة والمجاز.

7. المؤثرات الأجنبية:

لقد كان لليونان والفرس الأثر الكبير في تطوير التفكير البلاغي عند العرب منذ أن اطلعوا على آدابهم، وفي هذا الصدد نجد حمادي صمود يذكر أن هناك عدة أسباب منها: «تاريخية وتقارب الحدود الجغرافية، وكذلك حركة الترجمة ونقل الفكر الأجنبي واليوناني بصفة خاصة مثل كتاب (**الخطابة**) و(**الشعر**) لأرسطو، فقد شرحه الفارابي (ت339ه)، وكان لابن رشد والكندي وغيرهم إسهامات كثيرة في ترجمة وشرح كتاب (**الشعر**) والإفادة منه»[2]، فقد أسهم هذا الوافد الجديد في بلورة التفكير البلاغي عند العرب.

2.التأثر والتأثير بين العرب واليونان:

خلال الخلافة العباسية اهتم الخلفاء بالترجمة واعتنوا بها كثيرا، فقد ترجموا كمًّا هائلاً من التراث الغير عربي، واستفادوا من الفرس والهند واليونان في مجالات عدة، وقد كثر الجدل حول تأثير تلك الثقافات -خاصة اليونانية- في العلوم العربية المحضة، وعلى رأسها البلاغة.

بجمع الدارسون والمؤرخون على أن التأثير كان واضحا على البيئة العربية في الأدب والبلاغة والتأليف عموما، لكنهم يختلفون في تحديد مقدار ذلك التأثير. لقد شكّك العديد من النقاد والبلاغيين المعاصرين في أصالة البلاغة العربية، مثل أمين الخولي، وإبراهيم سلامة، ورجاء عيد، وشوقي ضيف، وطه حسين الذي يرى «أن أرسطو طاليس لم يكن أستاذاً للعرب في الفلسفة فحسب، بل كان شيخهم وأستاذهم في البيان كذلك»[3]، وبهذا الكلام يتضح لنا أن طه حسين قلل من قيمة المنجز البلاغي الجاحظي.

---

[1]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 34.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 67.

[3]- فضل حسن عباس، البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية، دار الفرقان، ط2، 1999م ص: 74.

وبالنظر للمجهود البلاغي للجاحظ يتضح أنه تحدث عن خمسة أقسام رئيسة، هي نفسها التي عرفت في الخطابة اليونانية، «وليس التقريب بين وجهة اليونان في التقسيم ووجهة المؤلف دليلاً قاطعاً على الأخذ والتأثر»[1]، كما أن مصادر الجاحظ في البحث البلاغي كانت عربية إلى حد كبير، وما أورده عن البلاغة الأجنبية كان من أجل المقارنة فقط.

وفي السياق نفسه «لم يقف الدكتور طه حسين عند قضية ارتباط البيان العربي بالبيان اليوناني، وإنما عمد إلى دفع بعض طلابه إلى الكشف عن تأثيرات بلاغية جاءت العرب من الثقافة الفارسية ولغتها الفهلوية»[2]، وقد أسهب كثيرا الدكتور طه حسين في تناول هذه القضية التي أسالت الكثير من الحبر في الدراسات العربية، وعليه يمكننا القول إن قضية التأثر لا يختلف فيها الكثير، وإنّما الكلام حول قيمة التأثير اليوناني في البلاغة العربية. هل كان كبيراً لدرجة الانسلاخ الكلي في هذه البلاغة؟ أم حافظت البلاغة العربية على هويتها على العموم ؟

هذا ما يدعونا إلى موضوع إثبات أصالة البلاغة العربية للعرب عند الجاحظ «مدفوع بالعصبية العربية للفض من الشعوبية، وفي الحق أن الجاحظ مضطرب في هذه الناحية يجري هنا وهناك، لا يفرغ من التدليل على أصالة البلاغة عند العرب، حتى يقرر أن العرب أنفسهم عرفوا بلاغة الهند، وأنهم قرأوا الصحيفة الهندية التي عرفهم بها (بهلة)، ثم هو يعترف بعد ذلك للفرس بالخطابة»[3]، ولعل هذا الاضطراب الذي تحدث عنه إبراهيم سلامة مرده لعدة عوامل أثرت في الجاحظ دعته لهذا القول، وكما لا يخفى على أحد فإن الجاحظ هو أبو البيان العربي ويحزنه هذا التأثير الوافد من خارج حدود الخلافة العباسية، لذا نراه يتعصب بين الفينة والأخرى للعرب على غير العادة.

---

[1]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص259.

[2]- ضياء خضر، مسألة الأثر الأجنبي في البلاغة العربية، محاضرة ألقيت في المجمع العلمي العراقي بتاريخ 1998/3/9م . https://www.aljabriabed.net/n41_07khadir.htm#_ednref11

[3]- ابراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، نقلا عن: طه حسين، البيان، ج:01، ص: 51.

وفي السياق نفسه نجد الكثير ممن قالوا بتأثير الأدب والفلسفة الفارسية واليونانية في البلاغة العربية، منهم الجابري الذي «يعرف أن مثل هذا الحكم سيستفز كثيرا من المطلعين والمختصين في تاريخ البلاغة العربية من الباحثين العرب والأجانب الذين يكادون يجمعون، كما ذكرنا، على أن السكّاكي اعتمد على منطق أرسطو وقتل بتقعيداته وتعقيداته الحياة في البلاغة العربية»[1]، وهذا القول يعطينا فكرة جلية واضحة على مدى تأثير الفلسفة والبلاغة اليونانية في البلاغة العربية.

ومن خلال آراء النقاد والبلاغيين سواء من المشككين في أصالة البلاغة العربية أو من المدافعين عنها، يمكن القول إن البلاغة اليونانية كان لها تأثير، ولكنه لم يكن بالحجم الكبير الذي يجعل البلاغة العربية تتنصل من مكونها العربي الأصيل.

الـبـلاغة نـهـايـة الـقـرن الأول وبـدايـة الـقـرن الـثـانـي

1.تمهيد:

لقد كان العرب البلغاء من الخطباء والشعراء لا يقبلون كل ما يجول بخواطرهم، وإنما يقومون بعملية نقدية دقيقة بحيث ينقحون ويجودون، حتى يظفروا بأعمال ترقى إلى ما يتمنونه من قصائدهم، وفي (**البيان والتبيين**) نجد الجاحظ ينوه بمنهجهم في نظم الشعر وتحبير الخطب وتدقيقها وتنميقها، ومما ورد عنه في هذا الباب أنه كان الشعراء يتبعون نظاما خاصا فمنهم «من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (كاملا) وزمنا طويلا يردد فيها نظره، ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله زماما على رأيه عيارا على شعره ... وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمحكمات، ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقا»[2]، كما تميز

---

[1]- مسألة الأثر الأجنبي في البلاغة العربية، ضياء خضير، 2020/11/14، 02:36. https://www.aljabriabed.net/n41_07khadir.htm#_ednref14

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج:02، ص: 9.

العصر العباسي بتطور الملاحظات البلاغية التي تطورت فيما بعد إلى وضع اللبنات النظرية، واتساع مملكة البلاغة واتساعها، وذلك مردُّه إلى تطور فنَّي الشعر والنثر.

هذا التطور ليس وليد اللحظة بل هو نتاج تعالق عوامل مختلفة من أبرزها كما قلنا آنفا الشعر والنثر الذين كان لهما الأثر البليغ «في نشوء طائفتين من المعلمين، عنيت إحداهما باللغة والشعر وعنيت الأخرى بالخطابة والمناظرة وإحكام الأدلة ودقة التعبير وروعته»[1]، فالطائفة الأولى هي طائفة اللغويين المحافظة، والتي كانت تهتم برواية الأدب وأصول اللغة والنحو، كما اهتمت بالشعر الجاهلي والإسلامي من أجل وضع القواعد اللغوية، أما الطائفة الثانية فهي طائفة علماء الكلام وفي طليعتهم المعتزلة، التي اهتمت بفن الخطابة والمناظرة ومسائل البيان والبلاغة.

وإذا حاولنا تتبع مسار التطور البلاغي وازدهاره في تضاعيف الكتب، يمكننا أن نقسم التأليف في مجال البلاغة إلى ثلاثة مراحل تتمثل في: مرحلة الإشارات البلاغية ومرحلة الدراسات المنهجية، ومرحلة ازدهار البلاغة، ومرحلة التقهقر والضعف.

ازدهار التصنيف في حقل البلاغية

1.تمهيد:

لقد عرفت البلاغة العربية في نشأتها دراسات العديد من العلماء والباحثين، الذين أسهموا في وضع البذور الأولى للدرس البلاغي، وذلك من خلال بعض التأليفات التي اهتمت بدراسة القرآن الكريم، والمقصود هنا بهذه الطائفة هو مجموعة من اللغويين في الأساس، ولكن إشاراتهم البلاغية تظهر في المؤلفات التي تدرس جوانباً في القرآن الكريم.

البيان والتبيين والحيوان للجاحظ:

كان أبو عثمان عمرو بن بحر، المشهور بالجاحظ (تـ 255ه) واضع البيان العربي والذي ألَّف **(البيان والتبيين)** «في أربعة مجلدات كبار جامعاً فيه

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:19.

ملاحظات العرب البيانية وبعض ملاحظات الأجانب، وسجل كثيراً من ملاحظات معاصريه وخاصة المعتزلة»[1]، الذين يروا بأن البلاغة تكون على طبقات، وهي فكرة يشترك فيها الجاحظ مع بشر بن المعتمر فيقول:« وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات»[2]، حيث أخذ يطبقها على البدو في كلامهم الوحشي وغريب ألفاظهم، مع مراعاة المعنى والمقام وأحوال المستمعين النفسية.

لقد حفظ لنا كتاب **(البيان والتبيين)** قدرًا كبيراً من الملاحظات البلاغية، كان مصدرها التراث العربي، وثقافات الأمم الأخرى، «ويتضح ذلك حين نجد الجاحظ المعتزلي يورد في كتابه البيان والتبيين تعاريف اليونان والفرس والهند للبلاغة»[3]، إلاّ أنها آراء قليلة للأجانب أوردها الجاحظ للموازنة بين بلاغة العرب وغيرهم من الأمم الأخرى، محاولاً بذلك التقعيد ووضع قوانين للبلاغة العربية.

وكانت للجاحظ آراء وملاحظات بلاغية كثيرة «ولا سيما ما يتصل بالتشبيهات والاستعارات والمجازات التي هي موضوع علم البيان»[4]، أكثرها مبثوثة في كتاب الحيوان، كما أورد الجاحظ مصطلحات بلاغية لم يسبقه أحد في التسمية، منها: إصابة المقدار، وسماه البلاغيون بعده ‹الاحتراس› والهزل يراد به الجد، الاعتراض والتعريض، الاستعارة والكناية[5]، وأما ما تعلق بالبديع فيرى الجاحظ أنه «مقصورٌ على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأَرْبَتْ على كل لسان»[6]، وحكمه هذا ناتج عن إكثار معاصريه من فنون البديع، فذكر نماذج من الشعراء أمثال الراعي وبشار والعتابي وإن كان بعضهم قد سبقه.

---

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص46.
[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص144.
[3] - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص9.
[4] - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص:20.
[5]- ينظر: شوقي ضيف، بلاغة تطور وتاريخ، ص:54.
[6]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج:4، ص:55.

وبهذا كله فليس من المبالغة إذا قلنا أنّ الجاحظ يعدّ «مؤسس البلاغة العربية»[1]، لأنه قد أفرد لها في كتابه **(البيان والتبيين)** ونثر فيه ملاحظاته البلاغية وملاحظات معاصريه، كما سجّل في كتابه **(الحيوان)** تحليلات لبعض الصور البيانية.

2.رسالة البلاغة للمبرد:

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عمير، ولد سنة (210ه) وتوفي سنة (285ه)، تلقى العلم على يد نخبة من علماء عصره، مثل الجاحظ والسجستاني والأخفش الصغير، وابن درستويه والزجاج وغيرهم، وقد اشتغل بالتدريس، له **(كتاب الكامل)** و**(رسالة البلاغة)**[2]، وهي رسالة صغيرة أجاب فيها المبرد على رسالة أحمد بن الواثق إليه يسأله فيها عن أفضل البلاغتين شعرا أو نثرا، فأجابه المبرد بتعريف البلاغة وذكر شرائط معينة يكون بها الكلام بليغا.

وقد قدم المبرد في **(الكامل)** دراسة وافية لفن من أهم فنون علم البيان ألا وهو **التشبيه**، وقد خصّه بباب كامل لم يعتمد فيه على أسلافه من علماء البلاغة والنحو كسيبويه والفراء وأبي عبيدة وابن قتيبة وإنما اعتمد على استقراءاته في الشعر العربي وجمع الشواهد الشعرية التي تحقق له إفراد باب بأكمله في موضوع واحد ونعني به التشبيه[3].

3.كتاب البديع لابن المعتز:

يعتبر كتاب **(البديع)** «أول ما استقرت فيه صياغة نظرية لبعض الفنون البلاغية»[4] كالاستعارة والمطابقة والتجنيس، وقد صرح ابن المعتز (تـ 296ه)، بسبقه إلى التأليف البلاغي حيث يقول: «وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد»[5]، أي أنه كان السَّبَّاق في جمع فنون البديع في كتاب واحد، والتي أصبحت متفرقة بعد انقسام البلاغة إلى ثلاثة علوم (**البيان والمعاني والبديع**).

---

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:58.

[2]- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، البلاغة، تحقيق: رمضان بن عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، ط:2، 1985، ص: 70.

[3]- محمد مصطفى أبو شوارب- فاطمة هلال فوزي، البلاغة العربية قراءة تاريخية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط:01، 2016، ص: 39-38.

[4]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:68.

[5]- عبد الله ابن المعتز، كتاب البديع، شرح وتحقيق: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:1 2012م، ص:72.

لقد كان النقاد القدماء ينقدون على أساس تتبع الأخطاء اللغوية والنحوية، «أما ابن المعتز فقد أرسى للنقد جانباً آخر، جانباً يقوم على تمييز الأسلوب الأدبي بما فيه من فنون البديع»[1]، حيث جعل من تلك الصور البديعية عاملاً من عوامل المفاضلة بين الأدباء، وبالتالي يكون ابن المعتز قد جمع بين النقد والبلاغة، حين جعل العناصر البلاغية مقاييس صالحة للنقد الأدبي، وما يهمنا من كتاب البديع هو أنه يمثل مرحلة التطور البلاغي من تسجيل الملاحظات إلى وضع الدراسات.

4.كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر:

لقد تناول قدامة (تـ 337ه) في كتابه **(نقد الشعر)** كثيراً من الفنون البلاغية « توزعتها علوم المعاني والبيان والبديع، وذلك كالتتميم، والإيغال، والمساواة، والتشبيه، والاستعارة، والتمثيل، والإرداف، والتصريع والسجع، والجناس...»[2]، وهذه المصطلحات وغيرها قد أسهمت في إغناء المعجم البلاغي والنقدي.

وما يلاحظ على الكتاب طغيان «التأثرات الفلسفية في التقسيم والتفريع ومحاولة مَنْطَقة كل شيء»[3]، عند تصنيف قدامة لأنواع من البديع، وذلك يعني تأثره بمقاييس البلاغة اليونانية وبالمنهج الفلسفي، مما أدى إلى تغريب البلاغة العربية، وابتعاده عن الروح الأدبية التي تمتع بها ابن المعتز في كتاب البديع.

5..مجاز القرآن لأبي عبيدة:

يعتبر أبو عبيدة (تـ 208ه) أول من تكلم في المجاز بالمعنى البلاغي والاصطلاحي، وإن كان المراد بالمجاز عنده هو «الدلالة الدقيقة لصيغ التعبير القرآنية المختلفة»[4]، أي أن المجاز هو بيان الأساليب التعبيرية في القرآن الكريم، وقد ذكر ابن تيمية في كتابه **(الإيمان)** أن أبا عبيدة لم يتكلم عن المجاز الذي هو قسيم الحقيقة وإنما «كلمة المجاز عنده مرادفة لكلمة التفسير أو التأويل»[5]، ولذلك كان مؤلفه في تفسير آيات القرآن وتأويلها، «ومع هذا فقد

---

[1]- المرجع السابق، ص:73-74.
[2]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:77 – 78.
[3]- رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط:2، ص:27.
[4]- رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، ص:29.
[5]- مازن مبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:39.

وردت في كتابه مجاز القرآن إشارات إلى بعض الأساليب البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية، وبعض خصائص التعبير النحوية التي لها دلالات معنوية من مثل الذكر والحذف والالتفات والتقديم والتأخير»[1]، وتلك الإشارات بمثابة اللبنات الأولى التي وضعها أبو عبيدة في صرح البلاغة العربية، والمصباح الهادي والنور المضيء للبلاغيين الذين أتوا من بعده.

7.معاني القرآن للفراء:

لقد عاصر الفراء (تـ 207ه) أبا عبيدة، ونهج نهجه في تأليف كتابه **(معاني القرآن)** في الأسلوب القرآني والملاحظ هو الطابع النحوي الغالب على الكتاب، كون الفراء أحد أئمة النحو الكوفيين في عصره.

وكان للفراء إسهامه هو الآخر في التأسيس لمباحث البيان، إذ عُني في كتابه بتفسير آيات القرآن الكريم، «وتحدث فيه عن التقديم في الألفاظ والتأخير والإيجاز والإطناب والمعاني التي تخرج إليها بعض الأدوات كأداة الاستفهام، كما تحدث أو أشار إلى بعض الصور البيانية من مثل التشبيه والكناية والاستعارة»[2]، إلاّ أن تلك الملحوظات البلاغية كان يغلب عليها طابع الإعراب والسبب في ذلك يعود إلى ما قلناه سابقاً بأن الفراء كان إماماً نحوياً وعالماً باللغة.

8.تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة:

ألَّف ابن قتيبة (تـ 276ه)كتابه **(تأويل مشكل القرآن)** للرد على الملاحدة وأشباههم الذين طعنوا في القرآن الكريم، وقد أشار إلى العديد من الصور البيانية، في قوله مثلاً: «وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى

---

[1]- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985م، ص:9.

[2]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:29.

الخصوص»[1]، وقد عدَّد ابن قتيبة هذه الفنون لورودها في القرآن الكريم ورداً على الطاعنين بما خفي عليهم، مما فيه من أساليب القول وفنون التعبير، «فأراد أن يبين أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة، والتوكيد، والإشارة إلى الشيء وإغماض بعض المعاني»[2]، وهذه طريقة العرب في التعبير والاستعمال.

وما ميَّز ابن قتيبة عن سابقه أبي عبيدة هو حسن التبويب وجمع المعلومات بعضها إلى بعض وإضافته لبعض الإشارات والتفاصيل «كأن يتوسع في الحديث عن الكناية أو يعرض للمبالغة»[3].

لقد تحدث ابن طباطبا (تـ 322ه) في كتابه (**عيار الشعر**) عن صناعة الشعر والميزان الذي تقاس به البلاغة «ولعل من أبرز ما تناوله في الصنعة الشعرية ومعيارها موضوع التشبيه»[4] الذي فصَّل فيه القول عارضاً لعديد الأنواع من التشبيهات، ومعتمداً في ذلك على دراسات السابقين، «ومبحثه فيه يعد أهم مبحث في كتابه يتصل بالبلاغة وتطور البحث في مسائلها»[5].

9.عيار الشعر لابن طباطبا:

كما مزج ابن طباطبا بين النقد والبلاغة، «وأياً ما كانت آراؤه في التشبيه فإن الرجل كان من أوائل من تناولوا هذا الموضوع بمثل هذا العمق وهذا التوسع في نقدنا العربي القديم»[6]، ولذلك حظيت آراؤه النقدية بأهمية كبيرة لتأثيرها البالغ في مسار البلاغة والنقد العربي.

10.كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي:

استهل الآمدي كتاب (**تـ** 371ه) (**الموازنة**) ببيان مذهبين للشعر، مذهب المطبوعين ويمثله البحتري، ومذهب المتكلفين الذي يمثله أبو تمام، وجعل معهما الأدباء والنقاد والعلماء في قسمين، «فأما الكتاب والأعراب والشعراء

---

[1]- ينظر: بدوي طبانة، البيان العربي، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1958م ص:20.
[2]- بدوي طبانة، البيان العربي، ص:20.
[3]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:60.
[4]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:81.
[5]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:124.
[6]- علي عشري زايد، النقد الأدبي والبلاغة في القرنين الثالث والرابع (المصادر والقضايا)، مكتبة الشباب، القاهرة، ط:2، 1995م، ص:92.

المطبوعون وأهل البلاغة العربية فيؤثرون البحتري، وأما أصحاب الفلسفة والمعاني العويصة والشعراء أصحاب الصنعة (البديع) فيؤثرون أبا تمام»[1]، وبذلك احتدم الجدال حول الشاعرين أو المذهبين.

ومع أن الجانب البلاغي في الكتاب ضئيل مقارنة بالجانب النقدي، إلاّ أنه قد عرض «إلى كثير من الفنون البلاغية التي استعملها كل من الشاعرين، فيستعين بها على الموازنة بينهما، إنه يفاضل بين استعارات وتشبيهات، ويوازن بين أنواع بديعية وقعت في شعر الشاعر»[2]، وذلك من أجل المفاضلة بين الشاعرين، والانتصار لمذهب على حساب الآخر، ومعظم ما تعلق بالبلاغة في كتاب الموازنة كان مخصصاً «لبيان إسراف أبي تمام في استخدام الاستعارات الغريبة المستكرهة والجناس والطباق القبيحين»[3]، وذلك ما يعتبره الآمدي عيباً، لرداءة تلك الاستعارات في الحقيقة، ولإساءة استخدام المطابقة والتجنيس.

11.كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر:

لقد تناول قدامة (تـ 337ه) في كتابه **(نقد الشعر)** كثيراً من الفنون البلاغية « توزعتها علوم المعاني والبيان والبديع، وذلك كالتتميم، والإيغال، والمساواة، والتشبيه، والاستعارة، والتمثيل، والإرداف، والتصريع والسجع، والجناس...»[4]، وهذه المصطلحات وغيرها قد أسهمت في إغناء المعجم البلاغي والنقدي.

وما يلاحظ على الكتاب طغيان «التأثرات الفلسفية في التقسيم والتفريع ومحاولة مَنْطَقة كل شيء»[5]، عند تصنيف قدامة لأنواع من البديع، وذلك يعني تأثره بمقاييس البلاغة اليونانية وبالمنهج الفلسفي، مما أدى إلى تغريب البلاغة العربية، وابتعاده عن الروح الأدبية التي تمتع بها ابن المعتز في كتاب البديع.

12.النكت في إعجاز القرآن للرماني:

لقد تحدث الرماني (تـ 386ه)**:** في رسالته **(النكت)** عن وجوه إعجاز القرآن، فجعلها سبعة أوجه، منها البلاغة التي جعلها في «ثلاث طبقات: عليا ووسطى

---

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:128.
[2]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:81.
[3]- علي عشري زايد، النقد الأدبي والبلاغة، ص:145.
[4]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:77 – 78.
[5]- رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، ص:27.

ودنيا، والعليا هي بلاغة القرآن، والوسطى والدنيا بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم في البلاغة»[1]، فما كان أعلاها طبقة فهو معجز يختص بالقرآن وما كان دونها فهو ممكن عند بلغاء العامة من الناس.

أما عن أقسام البلاغة فقد جعلها في: الإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل، التجانس التضمين، التصريف، المبالغة وحسن البيان[2]، حيث فصل الحديث في كل قسم منها، مستشهداً بآيات القرآن الكريم، وبذلك يكون قد أفاد البلاغيين من بعده بما نثره من ملحوظات بلاغية.

13.كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري:

لقد ألَّف العسكري (ت 395ه) كتاب **(الصناعتين الكتابة والشعر)** ليجعل «أهم أهداف البيان أو البلاغة غرضاً كلامياً هو إثبات إعجاز القرآن، ولذلك كان علم البلاغة في نظره أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالحفظ بعد المعرفة بالله جلَّ ثناؤه»[3]، لأنه علم يعرف به الإعجاز القرآني من كل وجوهه.

كما جعل كتابه في عشرة أبواب «تشتمل على ثلاثة وخمسين فصلاً، تتناول الموضوعات البلاغية المختلفة من تحديد موضوع البلاغة لغة واصطلاحاً، إلى تمييز جيد الكلام من رديئه، ومعرفة صنعته وحسن الأخذ وقبحه، إلى ذكر الإيجاز والإطناب، والتشبيه، حده، وما يستحسن منه وما يستقبح وذكر السجع والازدواج، والقول في البديع ووجوهه وحصر أبوابه وفنونه...»[4]، كلها مفاهيم ومصطلحات تندرج ضمن الدرس البلاغي، عني فيها بكثيرٍ من الأمثلة والشواهد ما ينم عن ذوقه الأدبي الرفيع.

14.كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني:

لقد عالج ابن رشيق (ت 463ه)، في كتابه **(العمدة)** العديد من الموضوعات الأدبية والقضايا النقدية فأفاض في الحديث عن الشعر ونقده، وذكر كثيراً من الفنون البلاغية، «حيث يفرد للبديع خمسة وثلاثين باباً كما فعل العسكري وإن

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:104.
[2]- ينظر: فضل عباس، البلاغة المفترى عليها، دار الفرقان، ط:2، 1999، ص:126-127.
[3]- بدوي طبانة، البيان العربي، ص:79.
[4]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:84 – 85.

خالفه في بعض أسمائه ومصطلحاته كما ذكر في كتابه باباً للبلاغة وباباً للإيجاز وباباً للبيان»[1]، وهو ما يبين أن علم البديع قد حظي باهتمام بليغ من ابن رشيق.

وما يمكن قوله هو أن حظ التأصيل البلاغي عند ابن رشيق ضئيل، إلا أن قيمة كتابه العمدة تكمن في «فضل الجمع بين خيرة آراء السابقين مما يغني عن قراءة كتبهم، فهو خلاصة يجد فيه القارئ بغيته دون الرجوع إلى ما كتبه السابقون عن أبواب البلاغة»[2]، وهو ما يحسب لابن رشيق كي يكون حلقة مهمة في تاريخ التأليف البلاغي.

15.كتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي:

يتضح من خلال عنوان كتاب (**سر الفصاحة**) لابن سنان (ت 466ه) أن الجانب الأكبر منه مخصص منه للحديث عن الفصاحة وما يتعلق بها، حيث يدعو إلى وجوب معرفة الفصاحة لأنها الطريق إلى فهم بلاغة القرآن، إلا أنه «يفرق بين لفظي الفصاحة والبلاغة، فالفصاحة عنده خاصة بالألفاظ، وأما البلاغة فهي للألفاظ مشتملة على المعاني»[3]، ولعل هذا التفريق الذي وضعه ابن سنان كان له أثرٌ في دراسات البلاغيين الذين جاؤوا من بعده.

كما ذكر ابن سنان العديد من المباحث البلاغية «حيث تناول فصاحة اللفظة، ثم بيَّن ما يتصل من ألوان البديع بجهة اللفظ وما يتصل بجهة المعنى، مما فتح الطريق إلى تقسيم ألوان البديع إلى لفظية ومعنوية»[4]، وذلك ما جعل مباحث البديع منفصلة فيما بعد عن علمي المعاني والبيان.

لقد تحدث ابن سنان بصورة عميقة في فصاحة اللفظ المفرد وفصاحة التركيب، كما عرض لكثير من الصور البيانية وفنون البديع، «ولكنه لم يعرضها عرضاً قاعدياً، وإنما يعرضها عرضاً أدبياً نقدياً»[5] مبيناً أثرها في صناعة البيان، ومبرزاً مواطن القبح والحسن فيها، وذلك ما يدل على صحة واستقامة الذوق الأدبي لابن سنان.

16. نقد النثر (كتاب البرهان في وجوه البيان) لإسحاق ابن وهب:

---

[1]- رجاء عيد، فلسفة البلاغة، ص:31.
[2]- عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص:125 – 126.
[3]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:88.
[4]- رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، ص:31.
[5]- بدوي طبانة، البيان العربي، ص:115.

أول ظهور لهذا الكتاب لابن وهب بعنوان (**نقد النثر**)، ونسب إلى قدامة بن جعفر، قام بنشره عبد الحميد العبادي بأن هذا الكتاب يعود لقدامة بن جعفر، بينما كان طه حسين يجزم بأن الكتاب لكاتب شيعي، وقد ثبت فيما بعد أن الكتاب ليس لقدامة مطلقا، وإنما في الغالب لشيعي ظاهر التشيع[1]، من هنا ندرك أن هذا الكتاب سيكون له شان في مقارعة بلاغة الجاحظ عموما.

لقد ألَّف ابن وهب كتاب (**البرهان**) «معارضةً لكتاب الجاحظ المسمى بالبيان والتبيين»[2]، إلا أنه في الواقع قد تأثر به كثيراً، وذلك في تقسيمه للبيان حين جعله في أربعة أوجه: بيان الاعتبار، بيان الاعتقاد، بيان العبارة وبيان بالكتاب[3]، والملاحظ في هذا التقسيم لوجوه البيان هو قربها من أصناف الدلالات التي أحصاها الجاحظ.

والواضح أن الأثر اليوناني كان بارزاً، كون ابن وهب لم يكتف بالأخذ من كتابي الخطابة والشعر لأرسطو، وإنما توسع في الأخذ من كتابي المنطق والجدل أيضاً، كما أن الوجوه البلاغية التي استقاها من أرسطو لم يحسن تطبيقها مثلما فعل قدامة، إضافةً إلى أننا لا نجد ذكراً لابن وهب في معظم كتابات البلاغيين، والسبب في ذلك يعود إلى أنه قد أوغل في الاستعارة من التفكير اليوناني[4] ما دفع البلاغيين إلى عدم الاهتمام بمؤلفه، وعدم شهرته مثلما اشتهر كتاب البديع لابن المعتز وكتاب نقد الشعر لقدامة.

17. إعجاز القرآن للباقلاني:

لقد ألَّف الباقلاني (تـ 403ه): (**إعجاز القرآن**) للرد على الطاعنين في القرآن الكريم، وجعل وجوه إعجازه في الإخبار عن الغيوب والقصص الديني وسير الأنبياء، وبلاغته التي تعنينا فنونها، «فذكر الاستعارة والتشبيه والتمثيل، والكناية، والتعريض، وهي من مباحث علم البيان، وذكر التكرار، والإيغال والتوشيح والالتفات وهي ألصق بمباحث علم المعاني، وذكر كثيراً من مباحث علم البديع، كالجناس والمقابلة والمطابقة وصحة التقسيم، ورد العجز على

---

[1]- ينظر: طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، مقدمة: البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر.
[2]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:96.
[3]- ينظر: بدوي طبانة، البيان العربي، ص:76 – 77.
[4]- ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:101-102.

الصدر، وصحة التفسير، إلى غير ما هنالك من أنواع كثيرة»[1]، وبعد أن يحصر الباقلاني عشرة وجوه لإعجاز القرآن البلاغي أو بديع نظمه، يتوصل إلى نتيجة مفادها «أن القاسم المشترك بين هذه الوجوه هو مخالفة البيان القرآني لكلام البشر»[2]، وهي القضية التي اشتغل عليها على امتداد صفحات كتابه، محاولاً إثباتها بتحليل بعض أروع النماذج الأدبية المتفق على بلاغتها.

18. إعجاز القرآن للقاضي عبد الجبار:

لقد ألَّف عبد الجبار كتابه **(المغني في أبواب التوحيد والعدل)**، وقد خصَّص الجزء السادس عشر منه لإعجاز القرآن، حيث يتحدث عن فصاحة الكلمة المنفردة التي لا تكون إلا في القرآن «فالكلمة الفصيحة لا تظهر فصاحتها إلاّ مع أخواتها، فتكون فصيحة في موضع من كلام الناس، وغير فصيحة في موضع آخر. أما القرآن فالكلمة فيه تكون فصيحة أبداً، لأن منزل القرآن –وهو الله تعالى- يضع الكلمات في مواضعها»[3]، وهذه إحدى الصور لبيان إعجاز القرآن في ألفاظه، كما أثبت عبد الجبار للمعاني «حُسناً في الفصل الأول ولكنه لم يعتد بها في الفصاحة، إذ مضى يسجل في براعة نظريته في الوجوه التي تتفاوت بها ارتفاعاً وهبوطاً، وقال إنها لا ترجع إلى المعاني بحال وإنما ترجع إلى انتظام الكلمات في التعبير»[4]، وهو يتطابق في ذلك مع عبد القاهر الجرجاني تطابقاً بيناً في نظرية النظم.

كانت هذه إطلالة على بعض المؤلفات البلاغية والنقدية في مرحلة الدراسات المنهجية، والتي يمكننا أن نحدد أهم ملامحها كملاحظات عامة فيما يلي:

- الالتزام بالمنهج العلمي، وإن كان هناك تفاوت في ذلك بين المؤلفات، «ولعل من أكثر كتب المرحلة التزاماً بالمنهج العلمي كتاب **(نقد الشعر)** لقدامة، الذي التزم فيه صاحبه منهجاً على قدر كبير من الإحكام والصرامة والدقة»[5]، حيث يكاد يخلو من الحشو والاستطراد الذي ميّز مرحلة الإشارات البلاغية.

---

[1]- فضل عباس، البلاغة المفترى عليها، ص:129.
[2]- علي عشر زايد، البلاغة العربية، ص:57.
[3]- عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص:36.
[4]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:118.
[5]- علي عشري زايد، البلاغة العربية، ص:102.

- بدأت تتبلور وتتحدد مدلولات بعض المصطلحات، ولعل الفضل يعود إلى قدامة الذي «حشد مصطلحاً كبيراً أصبح مادة هامة في نقد الشعر وفي البلاغة على السواء»[1]، وهو ما فتح المجال لمن جاء بعده في تنمية المصطلحات وتعديلها، وإثراء المعاجم البلاغية والنقدية.
- ظلت علوم البلاغة الثلاثة مختلطة وغير متمايزة، وقد برز البديع الذي رسَّخه ابن المعتز في كتابه **(البديع)**، وإن «كان يستخدم بمدلول محدد يشمل الصور البلاغية من استعارة وتشبيه وجناس وطباق»[2]، والتي أصبحت تندرج ضمن علم البيان فيما بعد.

19. مرحلة ازدهار الدراسات البلاغية:

لقد كانت البلاغة العربية عبارة عن إشارات وملحوظات مبثوثة في تضاعيف الكتب منذ عصر التدوين، وبدأت تنمو وتتطور إلى أن وصلت مرحلة النضج والازدهار على يد شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني، فأصبحت علماً مستقلاً قائماً بذاته، له قواعده وأساليبه وفنونه التي تميزه عن بقية علوم العربية الأخرى، ونبدأ بأعظم كتاب ألفه عبد القاهر في هذا الباب ألا وهو الدلائل ثم الأسرار.

20. دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني:

لقد بلغت البلاغة العربية في القرن الهجري الخامس أوجّها، كان رائدها الأول الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471ه)، وذلك من خلال مؤلفين بارزين هما: **(دلائل الإعجاز)** (و**أسرار البلاغة)**، «إذ استطاع أن يضع نظريتي علمي المعاني والبيان وضعاً دقيقاً، أما النظرية الأولى فخص بعرضها وتفصيلها كتابه **(دلائل الإعجاز)** وأما النظرية الثانية فخص بها وبمباحثها كتابه **(أسرار البلاغة)**»[3]، فكانتا نظريتين متكاملتين ومنعطفاً خطيراً في تاريخ التأليف البلاغي.

إن ما دفع عبد القاهر لتأليف كتاب الدلائل هو اهتمامه بأسلوب القرآن الكريم ونظمه، ورد الشبه التي أثارها الطاعنون في الإسلام والقرآن، «وقد

---

[1]- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط:4، 1983م، ص:194.
[2]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:104.
[3]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:106.

سعى عبد القاهر في هذا الكتاب إلى إثبات أن بلاغة الكلام تكون في النظم وأن القرآن معجز بالنظم لا بالصرفة»[1]، وبذلك فإن سر الفصاحة هو ارتباط الكلام بعضه ببعض، وليس المقصود بالنظم هو ترابط الألفاظ وإنما هو تتالي المعاني واتساقها فيما بينها، وبأسلوب عقلي ومنطقي يمضي عبد القاهر «ليثبت ما يريد من أن إعجاز القرآن ليس في ألفاظه المفردة، فاللفظ المفرد لا قيمة له في ميزان البلاغة، وإنما البلاغة في الأسلوب أو الصياغة أو ‹النظم›، وما النظم عند الجرجاني إلا ائتلاف الألفاظ ووضعها في الجملة الموضع الذي يفرضه معناها النحوي»[2]، فلا يكون النظم إلا بتوخي معاني النحو، وبذلك فإن نظرية النظم أساسها هو علم النحو.

وبعد أن بنى عبد القاهر القواعد العامة لنظرية النظم أخذ يفصل القول فيها مستعيناً بالفنون البلاغية المختلفة كالاستعارة والكناية والمجاز والتمثيل لإثباتها، «ولا سيما تلك التي لها تعلق بتركيب الجملة والعبارة كالفصل والوصل والتقديم والتأخير والحذف والذكر وارتباط الكلام بالحروف والأدوات»[3]، حتى اكتملت نظريته وأصبحت نظرية قائمة بنفسها يرجع اليها الباحثون من كل حدب وصوب وتدرس بالمعاهد والجامعات.

ومن خلال ضرب الأمثلة والاستشهاد بالقرآن الكريم أو الشعر، استطاع عبد القاهر «أن يرسي قواعد علم المعاني على أساس من المعرفة والعقل والذوق، وفي ضوء المثل والدليل والبرهان»[4]، وهي سمة برزت عنده في جمع صفات العالم، صاحب العقل الراجح، والذوق الأدبي المرهف الذي يعتبر أحد الشروط المهمة في تبيان جيد الكلام من رديئه، وإدراك أسرار الجمال في نظم الكلام.

لقد اختلف هدف عبد القاهر في كتاب **(أسرار البلاغة)** عن هدفه في الدلائل، «فهو لم يؤلفه لغرض ديني أو مسألة تتعلق بالإعجاز وإنما ألفه لغاية بلاغية فوضع الأصول والقوانين وبين الأقسام وذكر الفروق بين العبارات

---

[1]- أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط:1، 1973م ص:34.
[2]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:93.
[3]- أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص:34.
[4]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:94.

والفنون البيانية»[1]، وبذلك وُفِّق في إبراز نظرية علم البيان وتوضيحها، من خلال الموضوعات التي قد سبق دراستها وعلاجها كثير من العلماء والنقاد الذين سبقوا عبد القاهر أمثال ابن المعتز وقدامة وابن سنان.

ومن الذين تناولوا الفنون البلاغية وعالجوها مثلما عالجها عبد القاهر، والتي من بينها «الحقيقة والمجاز، والاستعارة، والتشبيه، والتمثيل، والكناية، والتعريض»[2]، إلا أن عبد القاهر قد تناولها بكثير من العمق، وبيَّن أثر كل فن في العمل الأدبي، وكشف عن عيوبها ومحاسنها وربطها ربطا وثيقا بالدراسات النفسية، «ولم نجد عالماً بالأدب أو ناقداً من نقدته استطاع أن يذلل فن الكلام لعلم النفس ويخضعه له...كما استطاع عبد القاهر أن يفعل»[3]، فهو عمل جديد، لا من حيث الموضوع، وإنما من حيث منهج البحث وأسلوب التناول، وهذا النزوع النفسي في دراسة البلاغة ونقد الأدب يكاد ينفرد به عبد القاهر عن الدارسين.

لقد وضع عبد القاهر القوانين لنظريتي المعاني والبيان في كتابيه: الدلائل والأسرار، ولكنه لم يهتم بالبديع ولم يتوسع في فنونه، «وواضح أنه لم يحاول وضع نظرية في علم البديع، وإن كان فصل القول في أسرار البلاغة عن الجناس والسجع وحسن التعليل وأشار غير مرة إلى الطباق، ولكنه لم يحاول وضع نظرية عامة له»[4]، ولو حاول ذلك لاكتملت المعالم النظرية لعلوم البلاغة العربية الثلاث المعاني والبيان والبديع.

إن ما قام به عبد القاهر في بناء صرح البلاغة العربية هو أعظم إنجاز في تاريخ التأليف البلاغي، وبهذا «يعد بحق واضع أسس البلاغة العربية والمشيّد لأركانها، والموضّح لمشكلاتها، والذي على نهجه سار المؤلفون من بعده، وأتموا البنيان الذي وضع أسسه»[5]، وفي طليعتهم الزمخشري الذي سار على خطى عبد القاهر في الدراسات البلاغية.

21.الكشَّاف للزمخشري:

---

[1]- أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، ص:38.
[2]- بدوي طبانة، البيان العربي، ص:149.
[3]- المرجع نفسه، ص:151.
[4]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:218-219.
[5]- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص:22.

يعتبر الزمخشري (تـ 538ه) من كبار أعلام البلاغة العربية، وهو المعتزلي المفسِّر صاحب (**الكشَّاف**)، الذي كشف فيه عن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن، وعن خفايا معانيه وأسراره، وزاد في توضيح الكثير من المسائل البيانية، «فقد طبَّق فيه آراء عبد القاهر المتعلِّقة بالمعاني والبيان تطبيقاً نموذجياً، محللاً مستقصياً حتى أوفى على الغاية، ولم يترك من أساليب البلاغة الفنية باباً إلا ولجه وأدلى فيه بسهم»[1]، فأثبت بذلك قدمه الراسخة في علم البلاغة تنظيراً وتطبيقاً على السواء.

لقد جعل الزمخشري علمي **المعاني والبيان** أهم عدَّة لتفسير آيات القرآن الكريم، معتقداً «أنه ما من فقيه، ولا متكلم، ولا لغوي ولا نحوي، ولا حافظ أو واعظ، أياً كان مبلغه من علمه، يستطيع أن يتصدَّى لتفسير القرآن مالم يبرع في علمين مختصين في القرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان»[2]، وهي إشارة واضحة للفصل بين العلمين، وبذلك يكون أول من ميَّز بينهما، بعد أن كان السابقون يجعلون البلاغة والفصاحة والبيان ألفاظاً مترادفة وذلك عند عبد القاهر، كما كانت تسمى جميعها بالبديع عند ابن المعتز.

لقد كانت للزمخشري إضافات كثيرة في علمي المعاني والبيان، وخاصةً «في استكمال صور الكناية والاستعارة والمجاز المرسل والمجاز العقلي، وإحكام وضع قواعدها إحكاماً دقيقاً»[3]، مقرونةٌ بشواهد قرآنية وآراء تدل على تعمُّقه وفطنته في رصد المعاني والإحاطة بأفانين التعبير البيانية، ومضى الزمخشري على هدى عبد القاهر فيما يخص ألوان البديع التي لم يعن بتفصيل القول فيها، وقد أشار إلى بعضها كالطباق، المشاكلة، اللف والنشر، الالتفات، تأكيد المدح بما يشبه الذم، مراعاة النظير والتناسب التقسيم، الاستطراد، التجريد[4]، وهي ألوان لم يبسط الكلام فيها لأنها تأتي في ذيل علمي المعاني والبيان وذلك يتفق مع ما يراه السكّاكي في جعل البديع ومحسناته تابعاً لهما.

إنّ ما قام به عبد القاهر الجرجاني في تأسيس نظريتي المعاني والبيان، وتطبيقات الزمخشري عليهما والإضافات الجديدة التي استكمل بها قواعدهما هو

---

[1]- عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص:185.
[2]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:106.
[3]- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص:29.
[4]- ينظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:266-269.

أفضل مرحلة في تاريخ التأليف البلاغي والتي أعقبتها حالة من السبات العميق وكثير من الجمود والتعقيد.

1.مرحلة التعقيد والجمود:

لقد رأينا فيما مضى أنّ الدراسات البلاغية قد ازدهرت وبلغت أوجّها على يد عبد القاهر الجرجاني والزمخشري، الأول وضع نظريتي المعاني والبيان، وأما الثاني فطبَّقهما تطبيقاً بارعاً على آيات القرآن الكريم، وبعد ذلك توقف الإبداع الفني في تناول المسائل البلاغية وبدأت مرحلة التعقيد والجمود، «مما دفع بقواعد النظريتين جميعاً إلى أن تصبح قواعد جافة جامدة»[1]، ولعل السبب يعود إلى جمود الأدب شعراً ونثراً، والذي «أخذ يزداد حدّة مع الزمن لما استقر في نفوس الأدباء من أن من سبقوهم استنفذوا المعاني ولم يعد لهم إلاّ أن يعيدوها، مدخلين عليها صوراً من التكلف والتعقيد»[2]، فلا يستطيع الشاعر أو الكاتب أن يأتي بالمعاني الممتعة التي تؤثر فينا، وإنّما أصبح كلامه جافاً وذوقه سقيماً ما أسهم في تأخر البلاغة.

لقد خلف علماء البلاغة خلفٌ أضاع أصالة البلاغة، وذلك يعود لتأثرهم بالفلسفة والكلام والمنطق، فجاءت بلاغتهم خالية «مجردة من أسباب الحياة، جافة لا روح فيها، معقدة لا (بيان) يوضحها، مقيدة بالحدود، وإذا هي غادرتها فإلى جدلٍ فلسفيٍ لا أثر للبلاغة الحية فيه»[3]، وهذه الصفات نلمسها في التلخيصات والشروحات التي أعقبت ازدهار البلاغة، فكان أولها ما قام به فخر الدين الرازي في كتابه **(نهاية الإيجاز)**.

2.كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي:

لقد كان كتاب **(نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)** للفخر الرازي (تـ 544ه) عبارة عن تلخيص لكتابي عبد القاهر الجرجاني **(دلائل الإعجاز** و**أسرار البلاغة)**، ولكنه «لم يُبق في تلخيصه لهذين الكتابين إلا هيكلاً لعلوم البلاغة يتسم بالجفاف والركود، ثم أقحم على هذه القواعد الجافة كل ما هو بعيد عن ميدان البلاغة وفنونها، فأضاف شيئاً من المنطق والفلسفة، والكلام والجدل،

---

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:271.
[2]- المرجع نفسه، ص:272.
[3]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:108.

والفقه والأصول وغير ذلك»[1]، فالكتاب تنظيم وتبويب لما كتبه عبد القاهر، حيث جعله في أسلوب علمي كثير التقسيمات والتفريعات، سائر نحو الجمود والتعقيد، وبعيد عن الفهم الدقيق للبلاغة التي تحولت إلى علم جاف و«خرجت عن وظيفتها الأصلية من تربية الذوق وإحكام الملكة الأدبية»[2]، فأصبحت من علوم اللغة التي تشوبها الفلسفة والمنطق والقوانين الصارمة.

3.مفتاح العلوم للسكاكي:

لقد كان **(مفتاح العلوم)** أهم كتاب للسكّاكي (ت 626ه)، وقد قسّمه إلى ثلاثة أقسام رئيسة إذ «خصّ القسم الثالث بعلم المعاني وعلم البيان وألحق بهما مبحثاً عن البلاغة والفصاحة، وآخر عن المحسنات البديعية اللفظية منها والمعنوية»[3]، فجعل علمي المعاني والبيان مرجعاً للبلاغة، ونظر للفصاحة على أنّها مرجع للمحسنات البديعية التي اعتبرها توابع للمعاني والبيان، «وما وضعه السكّاكي في **مفتاح العلوم** من تقسيم لعلوم البلاغة هو الذي أخذ به علماء البلاغة من بعده، وهو الذي استقرت عليه هذه العلوم إلى يومنا الحاضر»[4]، وبذلك يكون قد مهَّد للبلاغة العربية المتضمنة للعلوم الثلاثة وهي الصورة التي جمدت عليها.

القسم الثالث من **(مفتاح العلوم)** هو تلخيص لعلوم البلاغة التي جمع فيها بين أفكاره الخاصة وأفكار البلاغيين من قبله، حيث اعتمد على تلخيص الفخر الرازي وكتابي عبد القاهر: الدلائل والأسرار، والكشاف للزمخشري، وبالمقارنة اتضح أن تلخيص السكاكي «كان أكثر ضبطاً وتنظيماً للمسائل، مع ترتيب المقدمات وإحكام القياس»[5]، إلاّ أن تحليلاته طغت فيها القواعد والقوانين على روح البيان والجمال الفني، وذلك بسبب استخدامه للمنطق من أجل تقنين البلاغة وتقعيدها.

---

[1]- عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص:187.
[2]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:286.
[3]- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص:30.
[4]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:110-111.
[5]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:31.

مهما قلنا عن السكّاكي بأنه صبغ كتابه بثقافته النحوية والفلسفية والمنطقية والكلامية فتمسك بالحدود والتعريفات، وأحب التقسيمات والتفريعات، وعَقَّدَ البلاغة بالقوانين والقواعد فإنه «ينبغي أن لا ننسى، ولا يجوز أن ننسى، أن البلاغة كانت بحاجة إلى من يحدد لها مصطلحاتها تحديدا تاما، ومن يُفصِّل مسائلها، ويفصل بعضها عن بعض، وتلك حسنة لا ينبغي أن تُغْفَل»[1]، وما قام به السكاكي في وضع قواعد البلاغة باعتماد الفلسفة والمنطق اليوناني من حسن الترتيب والتبويب، قد جعل كتابه (**مفتاح العلوم**) محوراً للتأليف البلاغي، فتوالت حوله الشروح والتلخيصات.

ونلتقي بعد السكاكي بطائفة من علماء البلاغة الذين إما انحرفوا عن طريقته، وإما ساروا عليها تلخيصاً لمجهوداته، حيث سنتطرق لأهم شروحات وتلخيصات بعضهم كبدر الدين بن مالك وضياء الدين بن الأثير، والخطيب القزويني.

4.كتاب المثل السائر لضياء الدين بن الأثير:

لقد كان ابن الأثير (تـ 637ه) من الذين انحرفوا عن طريق السكاكي في دراسة البلاغة، وذلك في كتابه (**المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**)، حيث «تتسع عنده كلمة ‹علم البيان› لتشمل كذلك مباحث المعاني والبديع»[2]، فبذلك تصبح البلاغة مرادفة للبيان مثلما كان يراها الجاحظ.

إن المطّلع على (**المثل السائر**) يجده يفوح بالعُجب لأنّ إبن الأثير يزهو ويعجب بنفسه في كل فصل من فصول الكتاب، حيث يخبرنا في مقدمته «أن الناس ألّفوا في علم البيان كتباً، وجلبوا ذهباً وحطباً، وما من تأليف إلاّ وقد تصفح شينه وزينه، وعلم غثّه وسمينه، ثم أعمل رأيه فيما قرأ، وابتدع مسائل في علم البيان لم يسبقه إليها أحد، ولم يُنبِّهوا على شيء منها»[3]، فهو يعتد بنفسه اعتداداً شديداً، ويُوهِن ما قام به البلاغيون ممن سبقه، ويدعي السبق في ابتكار مسائل في البيان.

1- فضل عباس، البلاغة المفترى عليها، ص:145.
2- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص:39.
3- عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص:199.

بالرغم من تفاخر ابن الأثير وادعاءاته الكثيرة، وتهجمه على من سبقوه، والاضطرابات العديدة في معالجة المسائل البلاغية، إلا أن كتابه «يعد خير ما كتب منذ القرن السادس الهجري بعيداً عن مدرسة عبد القاهر وتلاميذه، لما يتخلله من لفتات جيدة»[1]، حيث خالف ابن الأثير طريقة السكاكي في تناول المادة البلاغية، فكانت تقسيماته وتفريعاته بعيدة عن المنطق، تعتريها جوانب من الذوق الأدبي والجمال الفني.

5.بدر الدين بن مالك:

إن كتاب ابن مالك (ت 686ه) **(المصباح في علوم المعاني والبيان والبديع)** هو «تلخيص لكتاب **(مفتاح العلوم)** للسكاكي، مع تجريده من تعقيداته المنطقية والكلامية والفلسفية»[2]، ومختصر للقسم الثالث من المفتاح، حيث لم يرجع فيه لعبد القاهر أو الزمخشري، كما أضفى عليه بعض التعديلات «من ذلك أنه نقل مبحث البلاغة والفصاحة من ذيل البيان إلى فاتحة المختصر»[3]، فأخرج هذا المبحث من علم البيان وجعله في مقدمة التلخيص.

لقد سار إبن مالك على رأي السكّاكي في اعتبار علمي المعاني والبيان أساس البلاغة، أمّا الفصاحة فهي مرجع المحسنات البديعية «إلاّ أنه مع اعترافه بأنها توابع للبلاغة أو بعبارة أخرى لعلمي المعاني والبيان جعلها علماً مستقلاً بنفسه سمّاه علم البديع»[4]، وبذلك يكون قد جعل البلاغة العربية في ثلاثة علوم **المعاني والبيان والبديع**.

6.تلخيص المفتاح والإيضاح للخطيب القزويني:

يعد الخطيب القزويني (ت 739ه) أبرز الذين لخّصوا **(مفتاح العلوم)** للسكّاكي، وهو أشهر تلخيص للقسم الثالث من الكتاب، حيث «غطَّى به على كل من لخَّصوه قبله وبعده من أمثال بدر الدين بن مالك وعبد الرحمن الشيرازي»[5]، واستبعد تعقيدات السكّاكي من حشو واضطراب، وأضاف إليه من آرائه وآراء من سبقوه.

---

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:334-335.
[2]- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص:38.
[3]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:315.
[4]- المرجع نفسه، ص:315.
[5]- عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص:48.

كما يبدو تأثر القزويني واضحا بكتاب (**المصباح**) لبدر الدين بن مالك، وذلك في فاتحة التلخيص «فقد استهدى به في نقل حديث السكّاكي عن البلاغة والفصاحة عقب علم البيان إلى فاتحة الكلام عن العلوم البلاغية جميعاً»[1]، فتحدث عن الفصاحة وقسّمها إلى ثلاثة أقسام: فصاحة مفرد وفصاحة كلام وفصاحة متكلم، وتحدث عن البلاغة التي يجعلها في الكلام والمتكلم فقط، «وهي في الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته»[2]، إذ يقصر مقتضى الحال على المعاني الإضافية في التعبير، دون مراعاة لأحوال السامعين، ثم يقسم التلخيص إلى ثلاثة فنون، يهتم كل فن بمباحث علوم البلاغة الثلاث المعاني والبيان والبديع.

ولما رأى القزويني بأن ملخصه لا يفي بالغرض، شرع في تأليف كتابه (**الإيضاح**) كشرح له «وهو من أحسن ما صنف المتأخرون في البلاغة»[3]، حيث جمع فيه شتات علوم البلاغة، مستخرجاً زبدة ما خلفه أعلام البلاغة أمثال عبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكّاكي، «وقد يأخذ بما نقل عنهم ويضمنه كلامه، دون تفنيد أو اعتراض، وأحياناً يعترض على أقوالهم ويدحضها بقوله (وفيه نظر)»[4]، وبذلك كانت للقزويني إسهاماته من خلال نظراته وآرائه الخاصة في المسائل البلاغية.

ومثلما أقبل القزويني على تلخيص وتوضيح (**مفتاح العلوم**)، أقبل العديد من البلاغيين على (**تلخيص القزويني**) تلخيصاً وشرحاً ونظماً، فممّن نظمه شعرا نجد جلال الدين السيوطي في نظمه (**الجمان**)، ووضع له شرحاً سمَّاه (**عقود الجمان**)، وخضر بن محمد صاحب (**أنبوب البلاغة**) و(**الجوهر المكنون في الثلاثة الفنون**) لعبد الرحمن الأخضري، وممن اختصر التلخيص نجد عز الدين بن جماعة وأبرويز الرومي، وزكريا الأنصاري، وقد كَثُر شُرَّاح التلخيص منهم محمد بن مظفر الخلخالي في (**مفتاح تلخيص المفتاح**)، وبهاء الدين السبكي في شرحه (**عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**)، وسعد الدين التفتازاني الذي وضع شرحين للتلخيص: (**الشرح الكبير والشرح**

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:336.
[2]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:337.
[3]- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص:113.
[4]- عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، ص:250.

الصغير) وهؤلاء الشراح من علماء القرن الثامن الهجري، واستمر الاهتمام بتلخيص القزويني حتى القرن الثاني عشر مثل كتاب **(مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح)** لابن يعقوب المغربي[1].

وفي ختام هذا الفصل نستطيع القول إن البلاغة العربية قد تعددت مشاربها وأصولها ومنابتها كما يقول محمد العمري، بدءا من العصر الجاهلي وصولا إلى عصر صدر الإسلام، بمختلف مراحله (العباسي- الأموي)، كل مرحلة من هذه المرحلة كان لنا فيها حديث، وصولا إلى البلاغة اليونانية التي اختلف حولها الكثير من الدارسين هل هي ملهمة للعرب في مجال الخطابة والبيان، كما تطرقنا إلى أهم المؤلفات والمصادر الكبرى التي تميزت بها هذه المراحل.

وفي الفصل الموالي نحاول تسليط الضوء على قراءة القدماء لبلاغة أبي عثمان الجاحظ، ونتطرق لطبيعة التلقي كيف كان لهذه المدونة، سنكون أوفياء لهذه المدونة بحيث سنغوص في قراءات نقاد وباحثين كبار حاولوا نفض الغبار عن التراث الجاحظي سلباً أو إيجاباً، لأن هذه القراءات ستكون الممهد للقراء الذين تداولوا على بلاغة الجاحظ فيما بعد.

[1]- ينظر: عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، ص:56-57.

الفصل الثاني

الدراسات البلاغيّة العربية القديمة
لبلاغة الجَاحظ

الدراسات البلاغية العربية القديمة لبلاغة الجاحظ

1.تمهيد:

نبتغي في هذا الفصل التطرق لقراءة القدماء للمدونة الجاحظية، من ابن قتيبة إلى التوحيدي، والجرجاني، والهمذاني، وغيرهم من الذين تداولوا قراءةً على بلاغة أبي عثمان، بدايةً لم يكن هدفنا من هذه الدراسة كشف عدد الذين تداولوا على هذه البلاغة، لأنّ هذا قد طرقته أيادي البحث قبلنا، بل كان اهتمامنا موجهاً إلى استكشاف تفاصيل هذه القراءات التي تناولت هذه المدوّنة وجزئياتها، نحاول النبش في كيفية تلقي القدماء لهذه البلاغة، التي قيل حولها الكثير -بين مرحب بها وبين طاعن فيها-، فقد تحكّمت في هذه القراءات تصوّرات مختلفة مرتبطة بالإيديولوجيا والتاريخ، وفق أفق وسياق ثقافي كان لصيقاً بها دائماً.

نحن نتحاور مع قراء للبلاغة العربية من خلال مشاريع كبرى سجلت حضورها مع (**المدونة الجاحظية**) سلباً وإيجاباً، في هذه الدراسة الممتدة في التاريخ الموغل في القدم، حتّمت علينا أن ننجز بحثاً يتجاوب مع قامة الجاحظ في أدبه وبلاغته وموسوعيته، نحاول تصوير ماهية التلقي لهذه البلاغة المتناثرة في (**البيان والتبيين**)، ولا يعني هذا أننا نسير وفق نظرية التلقي بكل محاورها، لأن بحوثاً كثيرة درست بلاغة الجاحظ من بوابة هذه النظرية، مثل دراسة عبد الواحد التهامي في كتابه: (**أنماط تلقي السرد في التراث النقدي، دراسة في أدب الجاحظ**)، وأطروحة دكتوراه لمحمد عبد البشير مسالتي تحت عنوان: (**الجاحظ في قراءات الدارسين المحدثين**).

هذه البلاغة حكمت على نفسها بالنضج مع كل قراءة جديدة، لتعود في نهاية البحث متوهجة شامخة شموخ صاحبها، الذي كتبت له هذه المقروئية وهذا

التفاعل الكبير من باحثين ودارسين ومحققين، وسنركّز على قراءة القدماء في هذا البحث.

كان عملنا في هذا الفصل فحصاً ومعاينةً لأنماط متعددة من القراءات التي أنجزت حول هذه البلاغة، وتحليلاً حيناً بعد حين، بدءاً من القراءات المبكرة في تراثنا، كقراءة ابن قتيبة التي كان لها النصيب الأكبر من هذا البحث، نظراً لجهوده في البلاغة والأدب والتأليف، ولحجم المقروئية التي تناولتها الدراسات الأكاديمية التي اهتمت بابن قتيبة، استفاد النقاد من قراءته للجاحظ وفق المعيار الأخلاقي، فقراءته تعتبر قراءة فتية ناضجة لبلاغة الجاحظ، وكذلك قراءات أخرى مثل قراءة عبد الله الحموي في **معجم الأدباء**، وأبي حيان التوحيدي في **البصائر والذخائر**، وعبد القاهر الجرجاني، وبديع الزمان الهمذاني، وغيرهم من القراء الذين كان لهم تأثير كبير في العملية النقدية، كما أغفلنا واستغنينا عن بعض القراءات الشاذة التي كانت نُتفاً هنا وهناك، بحيث لا يضر الاستغناء عنها.

2. تقديم لقارئي بلاغة الجاحظ:

لقد تفاعل الكثير من القراء مع الجاحظ، منهم من أخذ بلاغته بالقبول، ومنهم من ردّها وعاداها، وفي كل الأحوال يبقى الجاحظ ملهماً للكثير، بالنظر إلى ما قُدّم لمؤلفاته من الدراسات والأطروحات، ولعل من أبرز من تداولوا على بلاغة الجاحظ نجد ابن قتيبة، والجرجاني والتوحيدي والهمذاني، وابن وهب، ولعلنا نحاول بسط الحديث عن هؤلاء القرّاء محاولين لمّ شتات هذه القراءات، خاصة وأنها كانت ذات رؤى متباينة.

وهنا نحاول تسليط الأضواء على من تداولوا -قراءةً نقداً أو تزكيةً- على بلاغة الجاحظ من القدماء، حيث أن متلقّي بلاغة الجاحظ انقسموا إلى ثلاثة أقسام: قسم أشاد ببلاغة الجاحظ وقوته الأدبية، وقسم وقف موقف الوسط، وقسم أظهر العداء للمدوّنة الجاحظية عموماً، ولكن يبقى غالبية هؤلاء القراء مجمعين على أنّ الجاحظ هو أديب العربية الأكبر، والبلاغي الأوحد، وبلاغته تعتبر من

أرقى البلاغات، ولا زالت مثالاً يحتذى به في الصناعات الأدبية والبلاغية عند المتأخرين.

3. إشكالية البحث ونموذج التحليل:

ننطلق من فرضية عززتها محورية الجاحظ ومركزيته في البحوث البلاغية، كما تمثلت هذه الفرضية في قراءة القدماء للبلاغة الجاحظية كانت أكثر إحكاماً وإنصافاً من القراءات الحديثة، بحكم ثراء الأوائل علمياً وضبطاً للمسائل العلمية والقضايا البلاغية والنحوية، من أبرزهم عبد القاهر الجرجاني وابن وهب والهمذاني وغيرهم ممن سيكون لنا كلام عنهم في المباحث اللاحقة، وعليه جاءت التساؤلات كالتالي: هل تناولت هذه القراءات بلاغة أبي عثمان ؟ وهل كانت تسير على نمط واحد ؟ وما هو المنهج المتبع في هذه القراءات؟ أم نشهد حضور قراءات موازية تشكك وتتجاوز بلاغة الجاحظ؟ أم أن الانتصار للإيديولوجيا كان وارداً فيها ومحركاً لها ؟

ابن قتيبة والمعيار الأخلاقي

1. تمهيد:

لقد كُتب للبلاغة العربية أن تنمو بين بلاغيين كبيرين، بين الجاحظ وابن قتيبة، بين زاويتي: المعتزلة والفقهاء، بين: **الجاحظ الأديب المتكلم، وبين ابن قتيبة الفقيه المفكر**، جرت حرب خفية تولّدت عبر مؤلفاتهم، والإيديولوجيا أجبرتهما على محاولة اكتساح بعضهم البعض حيناً بعد حين، وفي الوقت نفسه تعرضت المدوّنة الجاحظية لنقد شديد، من طرف ابن قتيبة، بحيث حاول التعليق على ما ورد فيها من سقطات أخلاقية، كأدب الفسّاق، واللصوص، والبخلاء، والحمقى، فازدانت البلاغة العربية بالرجلين وازدهرت بهما.

ومن خلال الدراسة والبحث، والنماذج التي تم الحصول عليها، استطعنا أن نطرح مشكلة في بداية هذا البحث متسائلين: هل كانت تعليقات ابن قتيبة على بلاغة الجاحظ متحررة من الهاجس الإيديولوجي؟ وما هي دواعي هجوم ابن قتيبة عليه، وهل كانت قراءته قراءة محايدة ؟

الغرض من هذا البحث هو:

-الكشف عن موقف ابن قتيبة من بلاغة الجاحظ.

-تسليط الضوء على الإيديولوجيا ودورها في إذكاء الروح النقدية لدى ابن قتيبة،

وبروزها كذلك لدى الجاحظ.

-محاولة كشف حجم الصرّاع الحاد بين الجاحظ وابن قتيبة.

2. ابن قتيبة الشخص:

يعتبر ابن قتيبة (تـ 276ه) واحداً من الذين اعتنوا بالأدب وبالبلاغة إبّان القرن الثالث الهجري، وهو بمثابة الجدار المتين الذي انعكست عليه خلافاتٌ وصراعاتٌ فكرية ومذهبية، فقد اهتم بالعلم منذ صغره، حيث درس الفارسية، وقرأ التوراة والإنجيل، وامتزجت لديه شتّى الثقافات والمعارف، حتى أصبح رأسا في العربية، واللغة، والفقه، والتاريخ، وقد أجازه الجاحظ في بعض كتبه، «سخّر ابن قتيبة رحمه الله لسانه وقلمه للدفاع عن السنّة النبوية، ووقف كالطود الأشم أمام عقائد الفرق الضالة يذبّ عن عقيدة السلف أهل الحديث، وينفر من الفلسفة والكلام وأهله ويذمهما»[1]، بل طالت حربه المتكلمين وغيرهم، هذا ما ولّد صراعاً مريراً بينه وبين الجاحظ، فانبرى له ولبلاغته يُقوّمها حيناً، وينتقدها أحياناً أخرى.

قيل فيه الكثير من طرف أهل السيّر والتراجم، وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هو لأهل السنّة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنّه خطيب أهل السنّة، كما أنّ الجاحظ خطيب المعتزلة[2]، وفي مصنفاته نجد ردوداً قوية على كل من يخالف تعاليم الإسلام، ولولا موته المبكر لكان غزير الانتاج أكثر من الجاحظ،

---

[1]- عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مختلف الحديث والرد على من يريب في الأخبار المدعى عليها التناقض، تحقيق: سليم الهلالي، دار ابن القيم السعودية- دار ابن عفان مصر، ط: 02، 1430ه- 2009م، ص: 17.

[2]- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، 1465هـ- 2004م، 17/ 392.

فقد عمّر نحواً من الستين عاماً، أمّا الجاحظ عمّر أكثر من التسعين عاماً، ومع ذلك كل ما يذكر الجاحظ يذكر معه ابن قتيبة.

3. الجاحظ وابن قتيبة، تصادمٌ وتجاذب:

يمثل الجاحظ (تـ 255هـ) الفكر الاعتزالي، صاحب المؤلفات الكثيرة، من أبرزها (**البيان والتبيين**)، (**والحيوان**)، وبعض الرسائل، و(**نظم القرآن**) الذي يخال المرء أنه كان يمكن أن يسد ثغرة في جملة التفكير البلاغي والنقدي عند أبي عثمان[1]، والانشغال ببلاغة وأدب الجاحظ هو أهم نسق فكري وثقافي أرّق ابن قتيبة، بل تفاعل معه بالرفض حيناً، وبالقبول أحياناً أخرى.

والجاحظ **معلم العلم والأدب**، لا يختلف فيه اثنان حول ما وصل إليه الرجل من غزارة أدبية حيّرت الدارسين، وإذا قلّبت الطرف في أدب الجاحظ، فإنك واقعٌ منه على العجب العجاب، تهمُّ بإكباره، منشئاً ملهماً، فيقصرك التردد، إذ يطالعك بناء ضخم لديه، من نقد وعلم ورواية ومنطق وفلسفة وموسوعية[2].

والذي يهمنا في هذا البحث هو حضور بلاغة الجاحظ وفق المقص الأخلاقي، «فابن قتيبة من جهة مفتون بالجاحظ، مأخوذ بأدبه، لا يتحرج من محاكاته ومجاراته عندما يتصل الأمر بالأدب، لكنه لا يلبث من جهة مقابلة، أن ينشق عنه ويناصبه العداء عندما يتعلق الأمر بالعقيدة»[3]، والناظر في ما كُتب عن الرجلين، سيجد اسم ابن قتيبة مقروناً بالجاحظ خاصة في ميدان الأدب والبلاغة، والبلاغة –كما رأينا- هي مجال لانعكاس الثقافات بالرغم من تعددها، وتفريعها[4].

---

[1]- عيسى علي العاكوب، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 09، 1433ه- 2012م، بتصرف: ص: 137.

[2]- فوزي عطوي، الجاحظ دائرة معارف عصره، دار الفكر العربي بيروت، ط:02، 1998، ص:05.

[3]- محمد الغرافي، البلاغة والتلقي نثر الجاحظ بين التشابه والاختلاف، مقال منشور في البلاغة العربية والمقاربات النقدية المعاصرة الآفاق العلاقات والوظائف، ص: 300.

[4]- شوقي علي زهرة، في المفهوم البلاغي عند الجاحظ قراءة إبداعية جديدة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط: 01، 2016، ص:19.

وفي نفس السياق نجد جابر عصفور يشير إلى أن المعتزلة أصبحت الممثل الرسمي للخلافة، وهي في صراع دائم مع كل من يخالفها، ومن ذا الذي يستطيع «أن يفصل التضاد بين ابن قتيبة والجاحظ عن التضاد بين النقل والعقل»[1]، هي حربٌ فكرية لكسب المزيد من الانتصارات، وهو سجالٌ بينهما لأن كليهما له مقومات الريادة والقيادة العلمية والدعوية والخطابية والفقهية، والناظر في كتب التاريخ يرى أنه قد وقع صدامٌ كبير، بين المعتزلة وأحمد بن حنبل في محنة امتحان الناس بخلق القرآن، وما تلاها من أحداث مؤلمة، استغل فيها المعتزلة قربهم من الخليفة للانقضاض على خصومهم.

4. موقف ابن قتيبة من بلاغة الجاحظ:

كان ابن قتيبة من أوائل القرّاء الذين تناولوا بلاغة الجاحظ بجدّية، حيث نجد محمد مشبال يؤكد هذا، ويرى أن ابن قتيبة هو الممهد لمن بعده من القراء الذين تعاقبوا على مؤلفات الجاحظ حيث يقول: «إن قراءة ابن قتيبة لنثر الجاحظ ستتحكم في كثير من القراءات اللاحقة وتوجهها، وإن لم نعدم قراءات مخالفة لها، مثل قراءة أبي حيان التوحيدي»[2]، فابن قتيبة كان من أشد القراء مخالفة لأسلوب الجاحظ، وهذا ما سنراه لاحقاً في هذا البحث.

وفي نفس السياق نستطيع أن نقول إنّ ارتباط المباحث البلاغة عند ابن قتيبة **بالخلفية العقدية** التي ولّدت لديه تصوراً مكتملاً، حيث جرّ البلاغة لما تقتضيه الخلفية **الفكرية السنّية** على وجه الخصوص، بمعنى آخر هو«إسقاط الغرض العقدي الدّيني على الغرض الأدبي الجمالي، أي تحكم الفكر والعقيدة الدينية أو السياسية أو الحزبية... في إنتاج الخطاب وتدبيج الكلام وتحسين وبناء النص[3]»، هذا التصوّر لازم ابن قتيبة في كل مؤلفاته، وشكّل مضمراً حجاجياً،

---

[1]- جابر عصفور، قراءة في التراث النقدي، دار سعاد الصباح، ط:1، 1992، ص: 58.

[2]- البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب، المغرب، 2010، ص: 102.

[3]- مصطفى الغرافي في البلاغة والإيديولوجيا: تحكّم الفكر والعقيدة الدينية أو السياسية في إنتاج الخطاب، مقال منشور في: القدس العربي، الأحد، 2020/12/13، https://www.alquds.co.

وموجهاً إيديولوجياً في الرّد على المخالفين فيما بعد، وبرز هذا المضمر للعلن في المواجهة التي أعلنها على اعتراضات الطاعنين في القرآن والسنة.

5. تعارض عقدي وتواصل أدبي بين الجاحظ وابن قتيبة:

استطاع ابن قتيبة أن يثري الساحة وقتذاك بمؤلفات متنوعة وكثيرة، وأينما ذكر الجاحظ ذكر ابن قتيبة، وأضحى منافسا له، «فإذا كان ابن قتيبة والجاحظ قد اجتمعا على صُعد عديدة من الفكر والأدب، فقد افترقا في أخرى، كلاهما ألّف في العقيدة والأدب، انطلاقا من انتماء عقدي، فكر السنّة عند ابن قتيبة وفكر المعتزلة عند الجاحظ، كلاهما ألّف في القرآن والقراءات والنبوة والأحاديث»[1]، كل هذه المؤلفات لم تشفع لهما بالتقارب، فالجاحظ كان مؤلفا بارعا وهو معلم العلم والأدب، وابن قتيبة ألّف في علوم القرآن ومشكله، والحديث وغريبه، ومع هذا نجده يتتبع الجاحظ في مواضع كثيرة، ويرد عليه.

وبين تعارض الاتجاهين عند «الجاحظ بل وفي المعتزلة جميعا جسارة عقلية، وهذا ما لا يرتاح إليه كثيرا ابن قتيبة السنّي المحافظ، ولا ننسى أنه كان بين أهل السنة والمعتزلة خصومة فكرية، وسياسية أيضاً»[2].

رغم ذيوع صيت الجاحظ الأديب والبلاغي والموسوعي، إلاّ أن هذا لم يشفع له عند ابن قتيبة، بل طاله مقص النقد كثيراً، وردّ عليه في قضايا عقدية كثيرة، مثل قضية القول بخلق القرآن، ومعاداة أهل الحديث، وهي أسباب جعلت ابن قتيبة القاضي والفقيه لا يتسامح مع أبي عثمان، ولكنّه «كان يأخذ عنه بعض المعارف العامة خاصة ما اتصل منها بالأدب»[3]، فانقطاعهما وجفاؤهما عقديا لا يعني القطيعة بينهما كليةً، بل هذا التنافر كان لا يخرج عن الطابع الأخلاقي، ولم يكن يخرج عن حقل الأدب عموماً.

6. ابن قتيبة والجاحظ/ تواصل:

---

[1]- محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل، ص: 79.

[2]- إبراهيم عوض، مع الجاحظ في رسالة (الرد على النصارى)، ص: 10.

[3]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، هامش 3، ص: 15.

وفي نفس السياق نجد البغدادي وابن قتيبة يرفضون الموضوعات التي استحدثها أبو عثمان في النثر العربي، وهي نظرة تلتمس تغليب الجانب العملي للأدب، وهؤلاء الأدباء يمثلون الطبقة التي كانت ضد بلاغة الجاحظ المستحدثة التي حملت بين طياتها الجد والهزل وغيرها مما سيأتي الكلام عليه.

وعن سحر البيان الذي تميّز به الجاحظ، نجد ابن قتيبة يعترف ببيان الجاحظ، وبرونقه البلاغي في بحر مؤلفاته، فكلاهما -الجاحظ وابن قتيبة- ينافح عن الدّين، فسحر البيان عند ابن قتيبة شيء مهم ونبيل، يستطيع استمالة القلوب واستعمال القدرة البلاغية في ما يصبو إليه، والرد على الطاعنين في القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة.

والغرض الرئيس عند ابن قتيبة من البلاغة هو تمكن المتكلم والقدرة على الاحتجاج للرأي وإثباته بالحجج والبراهين، ومناظرة المجادل والقضاء عليه، فالبلاغة هي سلاح الخطباء وسيف أهل المنابر، «وقد اختار المؤلف مقامين فرعيين هما: مقام الإيجاز ومقام الإطناب لتفسير هذا المفهوم، يقول لكل مقام مقال»[1]، فالإيجاز يصلح لجميع أوضاع التخاطب التي يستعملها المتكلم للتهديد والوعيد كما هو حاصل في رسالة يزيد بن الوليد إلى مروان.

7. الجاحظ وابن قتيبة/ تقاطع:

إنّ هجوم ابن قتيبة على الجاحظ كان بسبب اعتزال هذا الأخير، وهجومه كان مقصوراً على الجاحظ، «مقصور على الناحية المذهبية دون سواها»[2]، فابن قتيبة لم يكن ليهادن أحدا في العقيدة مهما بلغ كعبه في الفكر والأدب، ولكن مروياته التي نقلها من مؤلفات الجاحظ لا تحصى ولا تعد في الأدب.

إنّ البلاغة التي أنتجها المعتزلة في تلك الحقبة تدور في فلك **العقل** في تقدير الأشياء وفهم العقيدة، وتفسير الكون، وبنيت أيضا على أصل كبير هو

[1]- مصطفى الغرافي، البلاغة والإيديولوجيا دراسة في الخطاب النثري عند ابن قتيبة، ص: 75.

[2]- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، الاصدار الثالث، 2001، ص: 94.

الشك، «ولذلك فإن الشك أساس هذه الثقافة العربية»[1]، فقد كان الشك منهجا عندهم للمعرفة والتحقيق في الأحكام لتأصيل القضايا التي يبحثون فيها، فمنه ينطلقون وإليه ينتهون.

8. البلاغة بين النظرة الأخلاقية والاستجابة الجمالية:

كان لابن قتيبة الكثير من الكلام حول بلاغة الجاحظ، ومنطلقهُ في هذا تلك القضايا التي خاض فيها، كتعلم السرقة وأدب الكُدية والدعارة واللواط، وهي موضوعات جنت على الجاحظ نفسه، وهي أفعال شنيعة -كما يرى ابن قتيبة- تمثلت في قول الكلام الفاحش والإباحية والمجون، وهي مواضيع خاض فيها الجاحظ دون تحفظ، وكانت سببا في نصب العداء له، والظاهر أن ابن قتيبة قام بمحاكمة البلاغة التي أفرزتها نصوص أبي عثمان استنادا على معيار ديني وأخلاقي، ويشهد لذلك ما قاله في هذا البيت:

فلا تكتُب بخطك غير شيءٍ يسرّك في القيامة أن تراهُ[2]

في هذا البيت نجد ابن قتيبة ممارساً مقص الرقيب منتقدا الجاحظ، محاولا تقويم نصوص الجاحظ بمنظور ديني أخلاقي بحت، ويرى في بلاغة الجاحظ فتنة تقوّض الأخلاق وتهدد مبادئ الدّين، ولهذا لم يحفل بما جاءت عليه نصوص الجاحظ النثرية من جماليات، وبهذا الحكم يكون ابن قتيبة قد حدّد، «ملامح الأفق البلاغي الجديد الذي رسمه الجاحظ وبذلك أسهم في تحديد الأفق البلاغي والجمالي الذي قام بمخالفته»[3] عدة مرات في مؤلفاته المختلفة، وهوّ منها وهذا في ردوده على أبي عثمان.

كانت الصلة وثيقة بين البلاغة والإيديولوجيا، لأنّ البلاغة بمفهومها العام هي الإبلاغ والإبانة، وهي استمالة المتلقين وإقناع المخاطبين، «وهي سياسة

---

[1]- طه حسين، في الشعر الجاهلي، تقديم ودراسة وتحليل: سامح كريم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط:3، 1436ه- 2015م، ص: 20.

[2]- طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص:57.

[3]- محمد مشبال، البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب، المغرب، 2010، ص: 102.

البلاغة التي هي أصعب من البلاغة فيما يروي الجاحظ عن سهل بن هارون، ولذلك الصلة تنعقد وثيقة بين الايديولوجيا والبلاغة، إذ الإيديولوجيا في المطلق ليست سوى مجال من مجالي البلاغة»[1]، وهنا يظهر التداخل بين البلاغة والايديولوجيا أو النزعة الدينية والمحرك الأخلاقي لدى الناقد، والجاحظ وابن قتيبة جمعتهما البلاغة وفرقتهما الإيديولوجيا في النهاية، والإيديولوجيا هي المحرك الرئيس للمتلقي والباث، وهي كما قررها بول ريكور **Paul Ricœur** والذي حصر أهم الخصائص المميزة للإيديولوجيا[2].

وفي اقتران الجد بالهزل أو المزج بين السامي والوضيع في سياق واحد، نجد ابن قتيبة يعيب على الجاحظ ابتداءه «بقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتبعه قال الجماز، وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا، من الفواحش ولا يتنزه عن الاستهزاء بمقام نبينا في كتاباته»[3]، وهي مؤاخذات نتلمس فيها محاولة تقويم ابن قتيبة للجاحظ في طريقة الكتابة، وهي وضع أسماء السامين مع الوضيعين، وهي تدور في فلك المخالفات الشرعية التي حاول ابن قتيبة الرد عليه من خلالها.

اعتمد الجاحظ بلاغة غير تقليدية، استبدلها بالموضوعات الهزلية ومزجها بالجد والهزل، وهي رسالة من الجاحظ إلى متلقين مختلفين، ولم يحصرها في صنف واحد، أو جنس معين، هذه البلاغة التي رفضها ابن قتيبة وعبد القاهر البغدادي حضرت في كتاب **(حيل اللصوص)** وكتابه (**غش الصناعات**) وكتابه في (**النواميس**) [4].

---

[1]- مصطفى الغرافي، البلاغة والإيديولوجيا دراسة في الخطاب النثري عند ابن قتيبة، ص:65-66، نقلا عن البيان والتبيين،ج:01، ص: 134.

[2]- المرجع نفسه، ص: 66، نقلا عن: بول ريكور، من النص الى الفعل، أبحاث التأويل، تر: محمد برادة، حسان بورقية، دار الأمان، الرياض، ط:1، 2004، ص: 211-214.

- ينظر: ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص:103.[3]

[4]- ينظر: مصطفى الغرافي، البلاغة والإيديولوجيا دراسة في الخطاب النثري عند ابن قتيبة، ص:105، نقلا عن الفرق بين الفرق، المطبعة المصرية، بيروت، سنة 1990، ص:177.

وغير بعيد عن القضايا النقدية وبالضبط نجد قضية اللفظ والمعنى فصّل فيها الجاحظ إذ يقول: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات»[1]، فموقف الجاحظ كان وسطيا بين الألفاظ والمعاني، بالرغم من اهتمامه باللفظ وهو القائل **إنما الشأن كل الشأن في الألفاظ،** ورأي ابن قتيبة لا يخرج عن رأي الجاحظ بحيث يكون المعنى جيدا عند توفر شروط؛ إذ يطابق المقام الذي قيلت فيه.

وهو ما يذهب إليه كذلك لسان الدين ابن الخطيب في وسطيته، فالأفضلية لكليهما بحيث يكملان بعضهم البعض في قضية اللفظ والمعنى، ولذا نجد محمد مسعود جبران يقول: «وإنما تتجلى الأدبية عنده كأديب ذواقة في تواشج اللفظ والمعنى، واكتمال الواحد منهما بالآخر»[2]، وهؤلاء الثلاثة يلتقون كلهم في التوفيق بين الألفاظ والمعاني عموما.

9. تبنّي ابن قتيبة لبلاغة الجاحظ :

بالرغم من انتقاداته المستمرة للجاحظ، إلاّ أنه يُهيب به، وقد أنصف ابن قتيبة الجاحظ كثيرا تلميحا أو تصريحا، هذا ما يؤكده حمادي صمود في كتابه (**التفكير البلاغي عند العرب**) فقد تناول فيه قراءة ابن قتيبة للجاحظ وعقد له مبحثا مهما، حيث يقول: «ولم يستطع ابن قتيبة خصيم الجاحظ من وجهة عقائدية، ورغم فورات الغضب التي تنتابه وهو يستعرض بعض آرائه، أن يفلت من تسلط كثير من آرائه اللغوية والبيانية عليه وإن كان لا يبلغ في تفسيرها وتعليلها عمق الجاحظ ودقة نظره، رغم توسعه في استعراض التفاصيل بكيفية

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: 07، 1418ه- 1998م، ج:01، ص: 139.

[2]- محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الثقافية، الجزائر، ط: 01، 2009، ج: 01، ص: 407.

لم نلحظها عند سلفه»[1]، فابن قتيبة يعترف للجاحظ بالتفوق والعمق ودقة النظر.

والناظر في آثار ابن قتيبة يجده يشرح الكثير مما آثار الجاحظ، خاصة في **(البيان والتبيين)**، من ألوان ومسائل بلاغية، «فقد ذكر في قوله تعالى للسماء والأرض﴿ **ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ (فصلت، 11)، إنّ الله سبحانه وتعالى لم يقل وأن السماء والأرض لم تقولا، وكيف يخاطب معدوما ؟ وإنّما هذا عبارة: لكونهما فكانتا، كما قال الشاعر المثقب العبدي حكاية عن ناقته:

تقولُ إذ درأت لها وضيني أهذاَ دينهُ أبداً وديني

أكُلُ الدّهرِ حلٌّ وارتحالٌ أماَ يُبقي عليَّ وما يَقيني؟

وهي لم تقل شيئاً من هذا، ولكنه رآها في حال من الجهد والكلال، فقضى عليها بأنها لو كانت ممن تقول مثل الذي ذكر، وكقول الآخر: ‹شكا إلى جملي طول السرى›، والجمل لم يشكُ، ولكنه خبر عن كثرة أسفاره وإتعابه جمله، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلما لاشتكى ما به، وكقول عنترة في فرسه:

فازورَّ من وقعَ القنا بلبانهِ وشكَا إلى بعيرةٍ وتحمحمِ[2]

لما كان الذي أصابه يشتكي مثله ويستعبر منه، جعله مشتكياً مستعبراً، وليس هناك شكوى ولا عبرة[3].

وفي قراءته المعاكسة لبلاغة الجاحظ، نجد ابن قتيبة في موضع آخر يُعلي من شأن المعاني كرد فعل على الجاحظ، الذي يرى بأفضلية الألفاظ من حيث بلاغة الكلام، وهذا واضح جلي في كتابه **(الشعر والشعراء)** فرفع من شأن المعاني على حساب الألفاظ، «ومن يمعن النظر في عبارته يجد أنه نظر إلى الجاحظ على أنه يقدم اللفظ على المعنى من حيث بلاغة الكلام، فأراد أن

---

[1]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، دار الكتاب الجديدة، المتحدة، ط:03، 2010، ص: 17.

[2]- إزورّ: مال، التحمحم: صوت متقطع، اللبان: الصدر.

[3]- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 79.

يرد على مذهبه، فجعل للمعنى مزيته في البلاغة»[1]، وعلى هذا الأساس يرى أن الكلام لا يخرج عن ما حسن لفظه ومعناه، وما حسن معناه دون معناه، وما حسن معناه دون لفظه، وما ساء لفظا ومعنى.

ثم أورد أبياتاً من الشعر الذي حسن لفظه، ولا تجد فيها معاني كبيرة، حيث يقول:

وشُدَّت على حُدْبِ المَهَارِى رحَالُنَا ولم يَنْظُرُ الغَادِي الذي هُوَ رَائحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيّ الأَبَاطِحُ*

يقول ابن قتيبة في (**الشعر والشعراء**) تعقيبا على هذه الأبيات: «هذه الألفاظ كما ترى، أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت (إلى) ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منىّ واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطيّ في الأبطح»[2]، ثم يضيف أبياتا من قول المعلوط:

إنّ الذين غدوا بلُبّك غادرُوا وشلاّ بعينيكِ ما يزالُ معيناَ

غيّضن من عبراتهنَّ وقُلنَ لي ماذا لقيتَ منَ الهوَى ولقيناَ

ويضيف أيضا قول جرير[3]:

يا أخت ناجيةَ السّلام عليكمُ قبل الرحيلِ وقبل لوم العُذّل

لو كنتُ أعلم أنّ آخر عهدكم يومُ الرحيل فعلتُ ما لم أفعلِ

ثم نرى ابن قتيبة يسير وفق طريقة الجاحظ في التقرب أكثر من القارئ واستعطافه، وها هو يقول: «ولم أخله من نادرة طريفة، وفطنة لطيفة، وكلمة معجبة، وأخرى مضحكة، لأروح بذلك عن القارئ من كد الجد وأتعاب الحق، فإن الأذن مجاجة، وللنفس حمضة، والمزج إذا كان حقا أو مقاربا، ولأحايينه وأوقاته، وأسباب أوجبته مشاكلا ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر

---

[1]- فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص: 273.

أبيات قيل لكثير عزة، من قصيدة من (الطويل)، وقيل: الأبيات لابن الطثرية.*

[2]- المرجع نفسه، ص: 67.

[3]- من قصيدة للفرزدق في ديوانه، 442-448.

ولا من الصغائر إن شاء الله وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة»[1]، وهنا نستطيع القول مهما افترقا عقدياً ومذهبياً، إلاّ أنه سرعان ما يزول هذا الافتراق ويلتقيا في مملكة البلاغة ذات الأرض الخصبة، وكأنهما وجهان لعملة واحدة ألا وهي البلاغة والبيان.

وكإنصاف للجاحظ نورد كلاماً لإبراهيم عوض الذي يقول: «أما دفاع الجاحظ عن الشيء ونقيضه فهو لون من الترف الفكري والحساسية العقلية التي ترى الجوانب المختلفة للأمور، وطبيعة الحياة أنه ما من شيء إلاّ ويمكن النظر إليه من زوايا متعددة، وقلما يوجد شيء كله خير فلا شرّ فيه، أو كله شر فلا خير فيه»[2].

في نهاية هذا البحث الذي كان يروم كشف المضمرات بين الرجلين ويكشف كذلك قراءة ابن قتيبة لبلاغة الجاحظ، وبعد التساؤلات التي طرحناها مبدئياً كانت تنتظر منا إجابات حاولنا الإجابة عليها في هذا البحث وقد استخلصناها في النقاط التالية:

- رفض ابن قتيبة لطريقة الجاحظ في مؤلفاته لدواعٍ ثقافية تتصل بالصراع الفكري، والعقدي الذي كان محتدماً وكبيراً بين المتكلمين وأهل السنة.
- تعصب ابن قتيبة للعروبة والإسلام.
- قراءة ابن قتيبة لبلاغة الجاحظ أثرت في القراءات التي أتت بعده.

أبو حيان التوحيدي وإعجابه بالجاحظ

1. تمهيد:

يقول صاحب معجم الأدباء ياقوت الحموي في ترجمته للتوحيدي: «علي بن محمد ابن العباس التوحيدي، شيرازي الأصل، وقيل نيسابوري، ووجدت

[1]- ابن قتيبة، عيون الأخبار، المكتب الإسلامي بيروت، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، ط:01، 1429- 2008، ص:05.

[2]- ابراهيم عوض، مع الجاحظ في رسالة (الرد على النصارى)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، (ب ت)، ص: 9.

بعض الفضلاء يقول له الواسطي، صوفي السمت والهيئة، قدم بغداد وأقام بها مدة، ومضى إلى الري وصحب الصاحب أبا القاسم إسماعيل بن عباد وقبله أبا الفضل بن عباد وقبله أبا الفضل بن العميد فلم يحمدهما، وعمل في مثالهما كتابا..»[1]، ولد سنة (311ه)، توفي سنة (414ه).

وكان أبو حيان يمارس الوراقة والنسخ ببغداد قبل أن يرحل إلى ابن عباد، وكان جميل الخط، دقيق النقل، خبيراً بالتصحيف والتحريف، وورد أنه كان يسميه حرفة الشؤم[2]، اشتهر بمؤلفات كثيرة من **أبرزها المقابسات، الإمتاع والمؤانسة، البصائر والذخائر، الإشارات الالهية، الصداقة والصديق، الهوامل والشوامل،** عاش في بيئة مضطربة مليئة بالفتن والاضطهاد المذهبي، ولعل هذا الذي انعكس في كتاباته من بعد، وقد طال عذاب التوحيدي في عمره الطويل، حتى قيل إنه اضطره جوعه إلى أن يأكل من أعشاب الطريق.

لقد رأينا شحاً في الدراسات المتأخرة في كشف اللثام عن هذا الأديب اللغز، فهو واحد من الذين «بادلهم العصر العداء بادلوه الإبداع، فتلك هي خاصية المبدعين الخلاّقين الذين يحيلون جفاف اليباب إلى كتابة خضراء المنقار، حتى في لحظات يأسهم التي لا يفارقهم فيها الحلم أو التشبث بالأمل»[3]، ومما يؤثر عنه أنه أحرق كتبه، في خطوة انتقامية منه ضد القراء، وضد كل من لا يُقدّر التوحيدي حق قدره، وهي ردة فعل احتجاجية غريبة تجاوزت عصره.

والسؤال المطروح هنا هل كانت قراءة التوحيدي لبلاغة الجاحظ قراءة محايدة التزمت التماس العذر؟ وهل أنصف التوحيدي شيخه الجاحظ الذي سار على خطاه في كثير من مؤلفاته ؟ولماذا سمي بالوريث الأكبر للجاحظ ؟

نظرة أبي حيان التوحيدي إلى بلاغة الجاحظ نظرة إعجاب، حتى إنّه لا يكاد يخفي حبّه لهذه البلاغة التي ورثها من أبي عثمان، حيث يقول: «أنا

---

[1]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج:5، ط:01، 1993، ص: 1923.

[2]- ينظر: أحمد محمد الحوفي، أبو حيان التوحيدي، مكتبة النهضة، مصر، ط:2، 1964، ص: 22.

[3]- جابر عصفور، دفاعا عن التراث، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط:2013،1، ص:111-112.

ألهج -أيدك الله- بكلام أبي عثمان ولي فيه شركاء من أفاضل الناس فلا تنكر روايتي لكلامه فإن لي فيه شفاء، وبه تأدبا ومعرفة»[1].

لقد سمي بالوريث الأكبر للجاحظ في النثر، وهناك من سمّاه بالجاحظ الثاني، والتوحيدي فيلسوف تخصّص في الرد والمحاجة على الأديان جميعا، كما يعتقده الكثير بأنه هو من كتب رسائل **(إخوان الصفا وخلان الوفا)***، التي اقتبس منها كثيرا في كتابه (**المقابسات**)كما أنّ «اختيار التوحيدي من نصوص الآخرين بعد أن رسم لنفسه رؤية خاصة لقضايا الإنسان والكون، ووظف هذه الاختيارات ليبين هذه الرؤى وعليه يصور الناس بكل ما يحملون من سلبيات وإيجابيات ضمن مواقف حية»[2].

تعتبر مقاربة التوحيدي لبلاغة الجاحظ مختلفةً كليا عن بلاغة ابن قتيبة، فكلاهما قرأ الجاحظ واستفاد منه، ولكنهما افترقا في طبيعة التجاوب معه والحكم عليه، فبينما احتكم ابن قتيبة إلى معيار ديني وخلقي رافضاً تفاعل نثر الجاحظ مع متغيرات الحياة، احتكم التوحيدي –على الرغم من موقفه الرافض للمعتزلة - إلى معيار جمالي حوّل له السمو بهذا النثر والتواصل مع سماته في نثره، كما ستشير إلى ذلك عديد من القراءات اللاحقة[3].

كما أن «التوحيدي يمزج بين السجع والمزاوجة –كما كان يفعل الجاحظ الذي ارتضاه إماما في حياته العقلية والأدبية- ولنذكر مثالا من نثره الذي يعد من أبلغ النماذج في اللغة العربية وليكن ما كتبه في سبب القبض على أبي الفتح بن العميد، فإنه من أروع آيات البيان»[4]، هذا هو التوحيدي الذي كان

---

[1]- أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ج2، ص: 279.

*** ينظر مقدمة طه حسين الماتعة في تقديمه لكتاب رسائل إخوان الصفا وخلاّن الوفاء، الذي راجعه خير الدين الزركلي، مؤسسة هنداوي، 2017.**

[2]- عبد القادر العربي، مقال: بلاغة الخطاب وإبلاغيه التأويل في محاورات أبي حيان التوحيدي، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة- الجزائر، ص: 14.

[3]- ينظر: محمد مشبال، البلاغة والسرد، ص: 10.

[4]- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012، ص:115.

معجبا أيما إعجاب بشيخه الجاحظ الذي مزج بين السجع والمزاوجة كما قال زكي مبارك.

يقول محمد مشبال حول بلاغة أبي حيان هو: «أنجب تلاميذ المدرسة الجاحظية رؤية وأسلوبا، تكمن قوته مثل قوة الجاحظ في رصد البلاغة وتتبع مواطن حضورها وليس في تنظيرها وتحديدي سرها وماهيتها، وإن كان الجاحظ قد حاول التنظير في حدود ما سمح به الرصيد المعرفي لعصره الذي ما زالت تهيمن عليه الشفوية، كما بيّنا في قراءتنا النسقية لكتاب البيان والتبيين، نسق الجاحظ كامن أما أبو حيان فيبدو مفككا مضادا للنسق»[1]، وهي رؤية وجيهة من باحث متخصص كتب الكثير حول البلاغة وبلاغة الجاحظ بصفة خاصة، فكتابات أبي حيان امتزجت بالغضب والقلق وعكست معاناته واضطرابه، لقد حاول مراراً التقرب من السلطان ولكن فشل في ذلك، عكس الجاحظ الذي حقق مراده.

وها هنا نجد الكثير «من المتلقين القدماء أشاروا إلى براعة الجاحظ وبلاغته وبيانه، وعلى رأسهم أبو حيان التوحيدي الذي ألف كتابا في تقريظ عمرو بن بحر»[2]، هذا الكتاب لا يزال مفقودا حتى اليوم، وقد ذكره ياقوت الحموي، وهو كتاب ذكر فيه فضائل شيخه الجاحظ البلاغية منها، خاصة وأنه من أبرز تلاميذه وقد تأثر به كثيرا، وكان قد أكمل طريق الجاحظ وعليه يحسب في الكثير من الجوانب.

كما يرى محمد مشبال وجوب «إعادة الاعتبار لعملية الرصد التي قام بها أبو حيان وهذا لن يكون دالا وناجعا في نسق تاريخ البلاغة العربية، من جهة ودمجها في مشروعنا الحالي لبناء بلاغة عامة من جهة أخرى»[3]، كما

---

[1]- محمد مشبال، البلاغة والخطاب، دار الأمان الرباط، ط:1، 2014، ص:16.

[2]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج: 8، مراجعة وزارة المعارف العمومية، مصر، الطبعة الأخيرة، سنة 1936، ص: 150.

[3]- محمد مشبال، البلاغة والخطاب، ص:17.

أنّ جهود أبي حيان البلاغية ستكون محل الدراسة والتحقيق لدى الباحثين، فهو يعتبر الأقرب لأبي عثمان ويفهم نثره وبلاغته أفضل من أي باحث آخر.

ونجد التوحيدي متواضعا عندما يُقرن بالجاحظ فينتفض ويرفض هذا، «ويلقب ابن العميد التوحيدي بالجاحظ الثاني والجاحظ الأخير، وأبو حيان يرفض تشبيهه بالجاحظ جملة ويتبنى رأي من يقول إنه أول من أفسد النثر العربي (الإمتاع والمؤانسة 66/1)، ولكن الرجلين يمثلان لسوء حظ أبي حيان الصورة المثلى للبلاغي الذي يتحدث عنه ويرسم البلاغة حذو ظله»[1]، ومع هذا هو الذي يمثل قدوته على الإطلاق.

ويضيف أيضا: «كما أنّه لا يخفى أن هذه البلاغة ضرب فريد من الإبداع لا يتأتى محاكاته إلاّ لمن امتلك الشروط التي تهيأت للجاحظ، وليس من السهل أن تجتمع في غيره، يقول عن مذهب الجاحظ إنّه: مدبر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان ولا تجتمع في صدر كل أحد: بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمناقشة والبلوغ وهذه قلما يملكها واحد»[2]، فطريقة أبي عثمان في التأليف لا يستطيعها أي أحد، فهو كالسهل الممتنع عن كل الناس.

وفي نفس السياق نجد «أن التوحيدي روى هذه الأخبار وهو ينظر بشكل خاص إلى خبر (قاضي البصرة)، لقد أعاد هنا صياغة هذا النص بشكل جديد، اختار أن تتصرف الشخصيات في هذه الأخبار على نحو نقيض لتصرف الشخصية في خبر الجاحظ، لا لمناقضتها ولكن لتأكيد دلالتها والرؤية البلاغية التي صدر عنها الجاحظ، فالإفراط في الجمود أو الحركة خارج عن حدود الاعتدال الذي قام عليه تصور الرجلين»[3]، وهنا يشترك الجاحظ والتوحيدي في تجاوز التصور الذي غلب على الرجلين، من قول القول ونقيضه، وهي براعة اشترك فيها الجاحظ والتوحيدي في مؤلفاتهم.

---

[1]- محمد مشبال، البلاغة والخطاب، ص: 24.

[2]- الإمتاع والمؤانسة المؤلف: أبو حيان التوحيدي، المكتبة العنصرية، بيروت ، ط:1، 1424 هـ، ج:1، ص:66.

[3]- مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، ص: 73- 85.

كما أنّ هناك أمراً ركز عليه الجاحظ والتوحيدي هو قضية الاعتدال، «لقد كان الاعتدال مطلباً بلاغياً، كما كان أيضا مطلباً خلقياً واجتماعياً في عصر لم تعد تحكمه البطولات، وفي جنس خطابي نثري لا يصور المثل العليا، ولعل هذا ما قصده مصطفى ناصف عندما أشار إلى أن السرد عند الجاحظ رام تأسيس ثقافة جديدة تنكر **فكرة النموذج، وفكرة البطل،** وأنّ كتابه **(الحيوان)** يوحي بروح (تتعالى على البطولة)، لم تعد بلاغة النثر تقبل مبدأ التعظيم السائد في الشعر، لأجل ذلك كان نثر الجاحظ واقعيا وساخراً وناقدا للمجتمع»[1]، بل رام الجاحظ مخالفة الجميع وصناعة نثر وبلاغة يتميز بها عن معاصريه.

وهنا نجد التوحيدي لا يخفي ولعه وشغفه بأبي عثمان، كيف لا وهو شيخه وصاحب طريقه، وها هو يقول: «أنا ألهج -أيدك الله- بكلام أبي عثمان، ولي فيه شركاء من أفاضل الناس، فلا تنكر روايتي لكلامه فإنّ لي فيه شفاء وبه تأدباً ومعرفة»[2]، وهنا ندرك جليا تفاني التوحيدي في متابعة الجاحظ، فقد رأى في كلام شيخه وبلاغته دافعا للسقم.

يعلق الباحث عزّت السيّد أحمد في كتابه **(فلسفة الأخلاق عند الجاحظ)** على نص أبي حيان التوحيدي بقوله: لا نريد أن نطلق عنان التأويل لاستيلاد خصائص شخصية الجاحظ وسماتها من هذا النص، ولكنّنا ومن غير مبالغة نستطيع القول: إنّ هذا الوصف، الذي كثر ما يماثله في تقريظ الجاحظ يدل على شخصية فذة، واثقة الخطى، جمة الثقافة والمعرفة، غنية الفكر واللغة، ميالة إلى المرح والدعابة متفائلة، وكل ذلك من خصائص شخصية الجاحظ فعلا، ويمكن اكتشافه بيسر من مطالعة بعض كتبه[3]، من هنا ندرك أن التوحيدي في تقريضه للجاحظ يُنمّ عن نظرة إعجاب بفكر ولغة ودعابة أبي عثمان، فكتبه هي صورة له وانعكاس لشخصيته.

---

[1]- مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، ص: 73- 85-86.
[2] - محمد مشبال، البلاغة والسرد، ص: 107، نقلا عن البصائر والذخائر، ج: 2، ص: 279.
[3] - محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة، ص: 59.

نستطيع القول، أن قراءة التوحيدي لأستاذه الجاحظ تُظهر «قيمة الجاحظ الأساسية تتجلى في نزعته الإنسانية التي ينطلق منها لمناقشة القضايا والمشكلات الفكرية التي كانت مصرعة في حضارة الاسلام في أثناء القرن الثالث الهجري ... لأنه حين كان يكتب، فإنّه لم يكن يفعل ذلك بعقلية ضحلة أو من زاوية ضيقة، إذ كان -حسب التوحيدي- ملتقى لعقول ومشارب متعددة، ولكنها تظل خاضعة في نهاية المطاف لروح الجاحظ الناقدة العالمة»[1]، وهنا ندرك أن الجاحظ هو ملهمٌ للتوحيدي، ولا يخرج عن روحه الناقدة الساخرة الناقمة.

بديع الزمان الهمذاني وشعرية الكتابة المرموزة

1. تمهيد:

تعتبر **المقامات** أبرز فن نثري لقى شهرة واسعة النظير بعد نثر الجاحظ، وأصبح الهمذاني مشهوراً بفن **المقامة**، بل سطع نجمه كثيراً في هذه المرحلة، وأصبحت المقامات تمثل تهديداً مباشراً لبيان الجاحظ، فمن هو بديع الزمان الهمذاني ؟ هو أحمد بن الحسين بن السعيد الهمذاني (358ه- 398ه) المعروف بلقب بديع الزمان الهمذاني، ولد بهمذان، لكنه انتقل إلى هراة بخرسان سنة (380ه)، ثم إلى نيسابور سنة 382ه، ألّف **المقامات** ورسائل أخرى.

عاش الهمذاني في ظلال أربعة ملوك من ملوك السامانيين، وفي عهد جماعة من ملوك بني بويه، عضد الدولة (367ه-372م) وفخر الدولة، ومجد الدولة، وشمس الدولة، وكان لهم سلطان على همذان والبلاد التي أقام بها الهمذاني، وكانت هذه الدول تتنافس على تشجيع العلم والأدب تنافساً كبيراً، ولمع في هذا العصر اسم إبن العميد، والصاحب بن العباد، والخوارزمي،

---

[1]- محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة ، ص: 60، نقلا عن: عبد القادر حمدي، قراءة في الكتاب وصناعة التأليف، ص:1.

والمكالي، والثعالبي، والبيروني، والصابي، والعتبي، والقاضي الجرجاني، وأبي هلال العسكري، وشمس المعالي قابوس، وابن نباتة السعدي الخطيب، والحسن بن علي التنوخي، كما لمع اسم المتنبي والمعري، وأبي فراس الحمداني والرضي، ومهيار والبستي، والنامي والناشي، والزاهي والسري والببغا وسواهم[1].

كما أن له ديوان شعر، ولم ينل الهمذاني الشهرة إلاّ بعد المساجلة التي دارت بينه وبين أبي بكر الخوارزمي[2]، وذاع صيته بعد موت الخوارزمي، وعرف عن بديع الزمان بأنّه «قوي الحافظة يضرب به المثل بحفظه، ويذكر أن أكثر مقاماته ارتجال، وأنه كان ربما يكتب الكتاب مبتدئا بآخر سطوره ثم هلم جرا إلى السطر الأول فيخرجه ولا عيب فيه»[3]، وزادت شهرته بالمقامات كثيراً.

وفي السيّاق نفسه، وحول ماهية المقامة إن صحت العبارة، فهي «جنس (مستنبط) لكنه يتمتع بنوع من الاستقلالية وبجملة من المقومات التي تميزه عن غيره من الأجناس»[4]، وقد كان بديع الزمان الهمذاني سبّاقا فيها على الحريري صاحب المقامات الأدبية.

وكما يعتبرها البعض «جنساً مهجّناً أو هجيناً، تم داخله تدجين مجموعة من الأصوات والنزعات والسجلات اللغوية والأجناس الأدبية، وهو ما يجعل من أمر التفاعل ناجماً عن تمازج جملة من المواد المتنافرة غير القابلة للتمازج ... مما يدفعنا إلى التساؤل عن الصيغة التي تنتظم داخلها حشد من الأنواع والأشكال، وتنضده وترتبه وتبرزه على الشاكلة التي تفضي إلى جنس

---

[1]- محمد خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي، ص: 380، بتصرف يسير.

[2]- بسمة عروس، التفاعل في الجناس الأدبية، مشروع قراءة من الأجناس النثرية القديمة من القرنين الثالث إلى السادس هجريا، (ب د)، (ب س)، ص: 270-271.

[3]- بسمة عروس، التفاعل في الجناس الأدبية، مشروع قراءة من الأجناس النثرية القديمة من القرنين الثالث إلى السادس هجريا، ص: 115.

[4]- المرجع نفسه، ص: 248.

المقامة»[1]، فهل استطاعت المقامة مجاراة ومسايرة بلاغة الجاحظ ؟ هل حاولت التنصل من أدب تلك المرحلة، وصناعة أدب جديد يضاهي أدب أبي عثمان ؟ وهل نجح في ذلك ؟

نحاول في هذا البحث تسليط الضوء على قضية مهمة تتمثل في رصد الذين تفاعلوا مع الجاحظ، انطلاقاً من معايير بلاغية، وهنا نجد بديع الزمان الهمذاني، الذي كان «مديناً للجاحظ من الناحية الأدبية بالشيء الكثير، حتى أنّ بعض الدارسين يفترضون أنه استعار منه بعض مكوّنات فن المقامة»[2]، فقد حاول تجاوز الجاحظ والتفوق عليه كما سنراه لاحقاً.

وفي نفس السياق نجد الهمذاني معجباً أشد الإعجاب بأبي عثمان وها هو يقول: «الجاحظ في أحد شقّي البلاغة يقطف، وفي الآخر يقف، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره ... فهلمّوا إلى كلامه، فهو بعيد الإشارات، قليل الاستعارات، قريب العبارات، منقاد لعريان الكلام»[3]، هذا الإعجاب بأمير البيان (الجاحظ)، وتلك الشهرة التي حققتها نسبة المقروئية لكتبه، هذه أسباب جعلت بديع الزمان الهمذاني يحاول الانقلاب على الجاحظ وعلى بلاغته ونثره عموماً، يريد بذلك تعبيد الطريق للمقامات كلون جديد، محاولاً منافسة بلاغة الجاحظ ابتداءً.

2. محاولة زعزعة بلاغة الجاحظ:

كان حلم الهمذاني التفوق على الجاحظ، والوصول إلى ما وصل إليه هذا الأخير، كانت رغبته شديدة في جعل مقاماته تنال الاستقلالية وتنحو منحى آخر، كما حاول بديع الزمان تحقيق نثر الجاحظ والحكم عليه، «حيث عمد إلى محاولة طمس معالم الأثر الجاحظي الذي يسري في نصغ كتابته من أجل تأكيد استقلال شخصيته وأصالة إبداعه، وقد آثر بديع الزمان تصفية حسابه مع الجاحظ

---

[1]- بسمة عروس، التفاعل في الجناس الأدبية، ص: 248.
[2]- شوقي ضيف، المقامة، دار المعارف، القاهرة، ط:4، (د ت)، ص:20.
[3]- بديع الزمان الهمذاني، المقامات، قدم لها وشرح غوامضها الامام محمد عبدو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 2008، ص: 89-90.

بطريقة تخييلية»[1]، وهو يدرك أن الجاحظ قد أثّر في القراء من بعده، لأن شهرته بلغت الآفاق، وليس من السهل تجاوز واحداً كالجاحظ بسهولة.

والناظر في (**المقامة الجاحظية**) لبديع الزمان الهمذاني، يلاحظ أنّها جاءت كمحاكمة وتقييم لنثر الجاحظ وبلاغته، وألّف الهمذاني «**المقامة الجاحظية** لتقييم نثر الجاحظ والحكم على بلاغته، وقد كانت نتيجة هذه المحاكمة الأدبية أن حاول زعزعة بلاغة أبي عثمان، وبلاغة المقامة عند الهمذاني صدرت عن أفق مغاير للأفق الذي صدرت عنه نصوص الجاحظ النثرية، حيث نرى أن الهمذاني في صياغته للمقامات امتثل لسلطان الشعر وقوانينه، حيث كانت «مدرسة القرن الرابع النثرية تعتمد في أسسها على المذاهب الشعرية من حيث الصنعة والخيال»[2]، وكأنّ الهمذاني لم يبتعد كثيراً عن ما تمليه الأصول الشعرية، على عكس الجاحظ الذي لم يخرج عن النثر العربي.

كما أنّ أثر الجاحظ في الكُتّاب اللاحقين واضح بيّن، ولا ريب أن الهمذاني كان واعياً بأنّ أول خطوة في درب المشروع الإبداعي الذي يحاول إقامته من خلال (**المقامات**)، لا بد له من التخلص من شبح الجاحظ، الذي يكاد ببلاغته أن يفرض سلطته على مؤلفاته، ومؤلفات غيره من كتاب النثر العربي، فكان لابد للهمذاني من محاولة منه لصرف القراء عن هذه البلاغة، من خلال **المقامة الجاحظية** «الافتراء التخييلي»[3]، والتأسيس لنمط بلاغي جديد يكون هو على رأسه.

ينتقل بديع الزمان الهمذاني من بلاغة الجاحظ، المبنية على بلاغة الحكي والسرد، والتأسيس لكيان بلاغي بديل يتمثل في «**شعرية الكتابة المرموزة**»[4]،

---

[1]- مصطفى الغرافي، البلاغة العربية والمقاربات النقدية المعاصرة، الآفاق العلاقات والوظائف، ص: 314.

[2]- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، المكتبة المصرية، بيروت، ج:1، ص:270.

[3]- محمد أنقار، تجنيس المقامة، فصول، المجلد: 13، ع:3، خريف، 1991، ص: 15.

[4]- عبد الفتاح كيليطو، المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، البيضاء، ط:1، 1993، ص:75.

وفي المقامات تتحقق هذه الشعرية خاصة في (**المقامة الجاحظية**)، وهي مميزات توفرت للهمذاني، وأصبحت بديلاً جاهزاً للبيان عند الجاحظ.

3. الهمذاني وتطويع النثر للشعر:

لقد كان حضور الشعر بالصورة المكثّفة ضمن النثر في تلكم المرحلة سبباً لمسايرة الهمذاني لهذه المرحلة، وجعله يبتكر نمطاً تعبيرياً يعمل على تطويع **النثر للشعر**، كما يهدف هذا النمط «إلى تقريب الشقّة بين النثر والشعر، وصار الشكلان يعالجان نفس الأغراض ويستجيران لنفس المحسنات»[1]، دون أن يلتفت إلى عناصر الأسلوب الشعري في صياغة نثره السردي.

تميز الجاحظ في نثره بعدم اعتنائه «بالتشبيهات والاستعارات إلاّ ما جاء عفو الخاطر، أو كان الغرض منه تمثيل الواقع، فالكتابة عنده ليست زخرفاً خالصاً يراد به الوشي والحلي وما يندمج في ذلك من صور وتشبيهات واستعارات، بل معاني تؤدى في دقة، تفسر الوقائع والأحداث تفسيراً لا تسطره أسجاف الاستعارات والأخيلة»[2]، من هنا نستنتج أن هذه هي السمات المميّزة لنثر الجاحظ، ومن أجلها استحق أن ينال المكانة الرفيعة التي تبوأها بين أدباء العربية.

من خلال إلقاء نظرة في **المقامات** يبدو أن بديع الزمان الهمذاني قد صاغ موقفه من نثر الجاحظ، في نطاق بلاغة الشعر، وكأنه أراد لنفسه أن يكون المكتشف لهذا الفن (المقامي)، ومن المعلوم أن بديع الزمان لا ينفي تأثره ببلاغة الجاحظ ونثره، ولكن شهرته بالمقامات برؤية مغايرة عمّا عرفه نثر الجاحظ، جعله يتعرض للتهوين لهذه البلاغة، وذلك من خلال **المقامة الجاحظية**.

ويبدو أن الهمذاني والجاحظ لا يلتقيان (بلاغياً) على الأقل، بل نجد المقامات ممتلئة بالشعر وكأنّ الهمذاني لا يريد مفارقة مبادئ الشعر، ولم يستقل بفنه الجديد (**المقامات**)، عكس الجاحظ الذي قام ببناء مملكته البلاغية (بعدُ) والنثرية (قبلُ) بشيءٍ مختلف عن ما كان سائداً آنذاك،-حيث سيطر الشعر على

---

[1]- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دار الطليعة بيروت، 1982، ص: 23.

[2]- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، ط:5، (د ت)، ص:164.

الحياة عامة- فكل **المقامات** جاءت فيها أحكام نقدية حول **الشعر والشعراء،** وحملت قضايا كثيرة **كالانتحال،** و**شياطين الشعر،** وغيرها من القضايا المعروفة في النقد العربي القديم.

ما من شك أنّ ميل بديع الزمان إلى تطويع **النثر للشعر** من خلال الحرص على تحويل غرض **شعري عريق هو المدح إلى موضوع نثري،** يمثل استراتيجية بلاغية مقصودة لدى مبدع **المقامات،** توخى الهمذاني من خلالها ترسيخ بلاغة وحيدة هي **بلاغة الشعر،** فقد قررت إحدى الباحثات في فن المقامة، أن حضور المدح في تضاعيف هذا الجنس الأدبي النثري يمثل دليلا واضحاً على محاولة النيل من النثر، من خلال **المقامة** للتعبير عن المضامين والأغراض التي يجري التعبير عنها في الشعر، ومحاولتها تحقيق الملاءمة بين صيرورة التعبير عن مدح شخص حقيقي وفق ما تقتضيه السنن والمراسيم المعروفة في هذا الغرض، ومحاولة إجراء ذلك في إطار جنس نثري ذي صبغة قصصية[1].

إذا كان الجاحظ يصدر في نثره عن رؤية بلاغية مخالفة، ترى أن نجاعة الخطاب يكمن في ملاءمته للعملية التواصلية، هذا ما يكشفه النص التالي يقول الجاحظ: «ومتى سمعت -حفظك الله- بنادرة من كلام الأعراب، فإيّاك وأن تحكيها إلاّ مع إعرابها ومخارج ألفاظها فإنّك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولّدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطعام، فإيّاك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو أن تتخير لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فإن ذلك يفسد الامتاع بها، ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له ويذهب استطابتهم إيّاها واستملاحهم لها»[2]،

---

[1]- ينظر: بسمة عروس، التفاعل في الاجناس الأدبية، مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة من القرن الثالث الى السادس هجري، كلية الآداب والفنون والانسانيات، تونس، 2008، ص:279.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، 91/1.

ومنه ندرك أن الصياغة البديعية قد مثّلت ثابتاً من ثوابت البلاغة النوعية لجنس المقامة.

4. البلاغة بين الجاحظ والهمذاني:

بإجراء تقييم بسيط بين بلاغة الجاحظ وبين بلاغة الهمذاني، ندرك أنّ «بلاغة بديع الزمان هي بلاغة العوائق والتشويش»[1]، وهي كما يصفها مصطفى ناصف بلاغة غير مستقيمة، أمّا بلاغة أبي عثمان الجاحظ فتنزع إلى تقديم «نقد ثقافي عميق لا يستطيع الشعر أن ينهض به»[2]، والملاحظ هنا أنّ الوظيفة الحجاجية والاقناعية قد غلبت على نثر الجاحظ، بينما هيمنت الوظيفة الجمالية على نثر بديع الزمان.

كان الجاحظ بعيداً عن الشعر في كتاباته، بالرغم من وجود أبيات شعرية هنا وهناك في ثنايا مؤلفاته، لكن لم يكن هدفه الشعر إطلاقاً، إلاّ أنه استطاع أن يثبت الخلود لكتاباته النثرية على مرّ الأزمان، وهكذا نجده «تناول في كتبه أغلب الفنون التي تناولها الشعراء وتفوق عليهم وأتى بما لم يوفق الشعراء في جميع عصورهم إلى أن يؤتوه»[3]، فقد صنع لنفسه هذا المجد، وأصبح رائده بدون منازع، وكتب له التوفيق والتفوق حتى على الكثير من أقرانه.

لقد كان تصور الهمذاني للبلاغة فريدا بحيث جمع بين الشعر والنثر في **المقامة**، وتكتمل شروط البلاغة عنده بالتفوق في جنسي المنظوم والمنثور، يقول: «فجمعت من النوادر والأخبار والأسمار والفوائد والآثار وأشعار المتطرفين وسخف الملهين وأسمار المتيمين، وأحكام المتفلسفين، وجيل المشعوذين، ونواميس المتمخرقين، ونوادر المنادمين، ورزق المنجمين، ولطف المتطببيين وكياد المخنثين، ودخمسة الجرابذة، وشيطنة الأبالسة، ما قصر عنه فتي الشعبي وحفظ الصبي»[4]، فهذه البلاغة التي يتصورها الهمذاني حشدت

---

[1]- مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، ص: 216.

[2]- المرجع نفسه، ص: 214.

[3]- طه حسين، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، بمصر، ط:1، (د ت)، ص: 56.

[4]- بديع الزمان الهمذاني، المقامات، تقديم: الامام محمد عبدو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 2008، ص: 241.

الكثير من الفنون، وهي لا تبتعد عن طريقة الجاحظ في التنظير والتأليف، وقول الشيء ونظيره، «إنّ بلاغة المقامة كما تجسدت عند الهمذاني، وثيقة الصلة بطريقة الجاحظ وبلاغته النثرية»[1]، إلاّ أنهما يختلفان في التأسيس لهذه البلاغة، مقامة الهمذاني اعتمدت التهجين، وبلاغة أبي عثمان اعتمدت على الخطابية الجمالية.

ولعل سبب تهوين الهمذاني من بيان وبلاغة الجاحظ، هو تعمده تسميته في (المقامية الجاحظية) بالكلام، متعمداً إخراجه من دائرة البلاغة، فهو لا يبتعد عنه كثيراً، فقد حاول التنصل من هذه الطريقة ولكن لم يستطع التحرر من بلاغة الجاحظ.

وفي الختام، نستطيع القول «إنّنا نعتبر الهمذاني أخلص تلاميذ الجاحظ، وأشدّهم تعلقاً بأسلوبه، من حيث طمح إلى تجاوز الجاحظ وتغييبه من حيث يشعر أو لا يشعر، ولن تكون ظاهرة الهزل والسخرية، بالتأكيد مناقضة لما ذهبنا إليه، ففي حين يتوالى الجد والهزل بشكل مقصود في كتابة الجاحظ، يمتزج هذان ليصبحا ضربا من الكناية أو التورية باطنها الجد عند الهمذاني»[2]، وهما أيضا شكّلاَ سمفونية جميلة في النثر العربي، وقد خدما البلاغة العربية أيُّما خدمة، وأغنيا المكتبة العربية كثيراً.

قراءة أبي هلال العسكري للجاحظ

1. تمهيد:

هو واحد من رجالات الأدب، وقامة من قاماته، فقد عاش إبّان القرن الرابع الهجري وتوفي في (395ه)، وقامت على كتاب العسكري تفسيرات مختلفة، وذلك ما وضع عليه من الحواشي الشارحة له، وشرح لشواهده الشعرية، وقد أحيا البلاغة العربية الأعرجان العسكري والزمخشري «وامتاز بحبه الفضائل

[1]- مصطفى الغرافي، البلاغة العربية والمقاربات النقدية المعاصرة الآفاق العلاقات والوظائف، ص: 323.

[1]- عبد العزيز شبيل، نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري جدلية الحضور والغياب، دار محمد علي الحامي، تونس، ط:1، 2001، ص: 415.

الخلقية، وإيثاره المثل العليا في الحياة، فعاش مجاهدا يعمل بساعده ليتمكن من الحياة، مؤثرا ذلك على زخرف الجاه والمنصب، متصلا برجال النهضة الفكرية والأدبية والسياسية في عهده اتصال صداقة وأخوة»[1]، وكان حظه كبيرا إذ غرف من ينابيع هذا العصر ثقافةً وفكراً، وتتلمذ على الكثير من رواد الفكر والأدب آنذاك.

ومن أجل إعداد نص شعري أو نثري ألّف العسكري كتابه هذا ليكون مرجعا للكُتّاب والشعراء في تدوين أعمالهم، وفيه اعتمد على التراث النقدي للمتقدّمين، أدرج وصايا ثمينة يتكئ عليها الباحث، كما جاء كتابه في عشرة أبواب، الأول للبلاغة وحدودها، والثاني لتمييز جيد الكلام من رديئه، والثالث في معرفة صفة الكلام وترتيب الألفاظ، والرابع في حسن النظم وجودة الرصف، والباب الخامس للإيجاز والإطناب، والباب السادس للسرقات الشعرية، والسابع للتشبيه، والثامن للسجع، والتاسع عرض لفنون البديع، والعاشر حسن المبادئ والمقاطع وجودة القوافي وحسن التخلص من غرض إلى غرض.

والناظر في كتابه الصناعتين وغيره مما خطت يداه يدرك جلياً أنه جمع الكثير من ألوان الثقافة في عصره، وتميز أدبه بأنه «عميق الفكرة دقيق المعنى والخيال، ساحر في أسلوبه العذب الرقيق الساحر الموشى بألوان البيان وفنون الأداء، سواء في ذلك نثره وشعره، وكثيرا ما ينقل أبو هلال منه في كتابه، ونثره الأدبي تستطيع أن تعرف خصائصه من القطع التي ذكرها في كتابه»[2]، هذا الترف الذي عرفته كتاباته يعود إلى المعين الذي كان يغرف منه وهو ما تجلى في مؤلفات الجاحظ.

[1]- محمد خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، ط:1، 2004، ص: 374.

[2]- محمد خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي، ص: 375.

ويبدو أن «أبا هلال متأثر بالجاحظ كثير الإفادة منه ومن كتابه البيان والتبيين وكتابه يسير في السبيل الذي عبّده الجاحظ»[1]، وهذا ملاحظٌ من طريقة العسكري في كتابته، ودفاعه المستميت عن اللغة العربية وعن الجنس العربي، وهنا يلتقي مع الجاحظ في قضية الشعوبية.

وفي نفس السياق الذي يجعل العسكري في سلة واحدة مع الجاحظ، حيث نجد سيد نوفل يقول: «ليس أبو هلال إلا شارحا للجاحظ في كتاب الصناعتين، جامعا للمتفرق منه، وقد تحدث عن كتاب البيان والتبيين بعد أن أورد طرفا من تخليط بعض المتحدثين في البلاغة، فقال ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة اليه ماسة والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع، إلاّ أنّ الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتثرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير، نثره ونظمه، ويستعمل في محلوله ومعقوده، من غير تقصير وإخلال، وهذا لون من ألوان التأثير الإيجابي للجاحظ»[2]، هذا الكلام يحيلنا إلى تساؤل آخر كيف للعسكري أن يكون تابعاً للجاحظ، وما هو التشابه بين الرجلين ؟

والجواب الأولي عن هذا التساؤل هو ما تؤكده الآراء البلاغية والبيانية في كتاب الصناعتين مأخوذة من مؤلفات الجاحظ، كما أنّ أبا هلال له شروحات وتعليقات ونقولات كثيرة من **البيان والتبيين** وغيره، وقد يستدل بها، فهذا العلم – البيان- الذي حاول أبو هلال العسكري التنظير له في الصناعتين تعود جذوره للجاحظ من قبل.

ويضيف أيضاً محمد خفاجي: «فأبو هلال كان يتتبع حياة القاضي وإنتاجه، وينظر إليه بعين المنافسة، وقرأ الوساطة، ولكنه لم يعول عليها، ولذلك لا تجد ظلا لتأثر أبي هلال بها في الصناعتين مع أنه تأثر بالجاحظ وبيانه، وقدامة

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 376.

[2]- محمد خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ص:376.

وكتابه نقد الشعر وبالآمدي وموازنته»[1]، كل هذا الاحتكاك بالعلماء الكبار جعله يختار لمؤلفاته نسقاً تعليمياً حاول من خلاله تأطير العملية النثرية والشعرية بصفة عامة.

وكما سبق القول فإنّ تأثر أبي هلال العسكري بمن سبقه جعله يعيش تخمة أدبية فاق فيها الكثير بحيث تمثل في كتابه، و«يعتبر مؤلف الصناعتين لأبي هلال العسكري أول محاولة لقراءة أعمال البلاغيين العرب الرواة قراءة شاملة تستهدف الخروج بصيغة عامة تجمع المتفرق فكتاب الصناعتين ألفه أبو هلال العسكري وانتهى من تأليفه عام (394ه) فإذا يكون من المحقق أن أبا هلال قد ألّف كتابه بعد ظهور كتاب الوساطة بزمن يسمح له بالتأثر بها واتخاذها مصدرا من مصادر كتابه»[2]، ففي الصناعتين نجده قدّم أبحاثاً جليلة وهي زبدة ما وصل إليه العسكري في تقديم نصائحه لمن له إقبال على التأليف والكتابة.

يرى أبو هلال أن ينصح القارئ، بحيث يقوم على الاختيار وحسن التفريق بين الجيد والرديء، بحيث يتجه بنصائحه إلى من يحاول التصدر للكتابة، وهذا ما تنمية ملكة خاصة في التدوين، هذه القدرة يمنحها علم البلاغة، يقول في هذا السياق: «وصاحب العربية إذا أخلَّ بطلب علم البلاغة، وفرَّط في التماسه، ففاتته فضيلته، وعَلِقت به رذيلةُ فَوْتِه، عفَّى على جميع محاسنه، وعمَّى سائر فضائله؛ لأنه إذا لم يُفرِّق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظٍ حسن وآخرَ قبيح، وشِعر نادر وآخر بارد، بان جهلُه، وظهر نقصه»[3]، وهي خطوط يلتقي فيها مع الجاحظ، من حيث اختيار الألفاظ والكلمات، والعسكري فيما يبدو كان متأثرا بأبي عثمان في قضية اللفظ والاعتناء به أكثر من المعنى.

ومن منطلق اهتمامه بالبلاغة نجده قد اعتنى بها وقد «عرّف البلاغة أبو هلال العسكري (تـ395ه) بقوله: البلاغة كل ما تبلغ قلب السامع فتمكنه في نفسه، مع صورة مقبولة ومعرض حسن على أن من شروط البلاغة أن يكون المعنى

---

[1]- المرجع نفسه ، ص: 378.

[2]- المرجع نفسه، ص: 376.

[3]- أحمد درويش، كتاب الصناعتين أبو هلال العسكري، موقع الألوكة، 2020/06/28، https://www.alukah.net/culture/0/123467/#_ftn3

مفهوما واللفظ مقبولا»[1]، وهي نظرة شاملة حاول من خلالها التعاطي مع المتلقي الذي يجب أن يعمل بالشروط التي أوردها في كتابه الذي يعتبر خدمة عظيمة من العسكري لأهل الشعر والنثر والبلاغة.

يقول أبو الهلال العسكري في مقدمة كتابه (**الصناعتين**): «فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب (**البيان والتبيين**) لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من الفنون المختارة، ونعوته المستحسنة»، فقد أثنى كثيراً على الجاحظ وعلى بلاغته وهذا يدلك أيما دلالة على تأثره به، وتتبع طريقه، والاستفادة من بيانه.

كما أنّ «تنوع الأفكار التي اعتنى بها الجاحظ في كتابه المذكور سالفاً جعلت منه مركزاً لاستلهام البلاغة وفروعها، فالناظر في هذا الكتاب يلحظ أنه قد عني بالبلاغة أيما اعتناء، إلاّ أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلاّ بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير»[2]، وفعلاً بلاغة الجاحظ تحتاج لنحت متواصل وتتبع لكتاباته بالفحص والتشخيص دوماً، وهذا الذي أشار إليه العسكري في أكثر من مرة في **الصناعتين**.

عبد القاهر الجرجاني وبلاغة الجاحظ

[1]- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ضبط وتحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 01، 2008، ص: 155.

[2]- أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص:6.

1. تمهيد:

يعتبر شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني (471-441ه)، العالم والأديب البارع أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني الإمام النحوي، المتكلم، الفقيه الشافعي، «ولعبد القاهر مكانة كبيرة في تاريخ البلاغة، إذ استطاع أن يضع نظريتي علم المعاني والبيان وضعاً دقيقاً»[1]، فهو يعتبر مرجعاً أصيلاً في هذا الفن.

وهو واحد من العلماء الأفذاذ الذين نبغوا في النحو والصرف والأدب والنقد، وله الفضل في تأسيس علم البلاغة، ومؤلفاته أكبر شاهد على هذا مثل (**أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز**)، «كان عبد القاهر الجرجاني شافعي المذهب متكلما على طريقة أبي الحسن الأشعري وفيه دين، كما كان ورعا قانعا، دخل عليه لص وهو في الصلاة فأخذ جميع ما في البيت ولم يقطع صلاته، وكان إماما في الأدب وله فضيلة تامة بالنحو، صنف كتبا في النحو والأدب كثيرة ومفيدة»[2]، وأكثرها شهرة تلك التي عنيت بالإعجاز القرآني وعلم المعاني (**دلائل الإعجاز** و**أسرار البلاغة**)، فقد كانت هذه المؤلفات زاداً للباحثين في هذا الفن.

تتلمذ عبد القاهر على آثار سيبويه، والجاحظ وأبي علي الفارسي وابن قتيبة، وقدامة بن جعفر، والآمدي والقاضي الجرجاني وأبي هلال العسكري، «ويقولون إنه ظل ببلدته لا يبرحها حتى توفي سنة (471) للهجرة»[3]، كما أسهم في التأسيس لعلمي المعاني والبيان، وكذلك نظرية النظم التي أرسى قواعدها واكتمل بنيانها على يديه، وسجلت باسمه على مر التاريخ.

كما تصدّر عبد القاهر لعلوم البلاغة تدريساً وتدويناً و«كان يرى أن علوم البلاغة علم واحد، تتشعب مباحثه، وسمى في الدلائل علم المعاني باسم النظم وهو اصطلاح كان يشيع في بيئة الأشاعرة، إذ كانوا يعللون إعجاز القرآن

---

[1]- شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ، ص: 160.
[2]- تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط:1، 2003، 332/10.
[3]- شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ، ص: 160.

بنظمه»[1]، كل هذه الأسباب جعلته ينبغ في هذا الفن ويرد على المعتزلة وخاصة القائلين بالصرفة كما سيأتي لاحقاً.

2. عبد القاهر الجرجاني قارئا للجاحظ:

لقد كثر قراء الجاحظ - البلاغي- وانقسموا بين معجب به ومنتقص، وبين ذا وذاك يظهر عبد القاهر الجرجاني كقارئ وكناقد متميز، حاول تحليل نصوص أبي عثمان، محاولاً الكشف عن حقيقة المعاني التي ألهمته كثيراً، يقول الجاحظ: «وأنا رأيت أبا عمرو [الشيباني] وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين، ونحن في المسجد يوم الجمعة، أن كلّف رجلا حتى أحضر دواة وقرطاسا حتّى كتبهما له، وأنا أزعم أنّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا، ولولا أن أدخل في [الحكم] بعض الفتك لزعمت أنّ ابنه لا يقول شعرا أبدا، وهما قوله:

لا تحسبنَ الموتَ موتُ البلَى إنما الموتُ سؤالُ الرِّجالِ

كلاهُما موتٌ ولكنَّ ذَا أفظَع من ذاكَ لذُلِّ السُّؤال

«والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والكردي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج وجنس من التصوير»[2]، والجاحظ يتابع هذه الكلمات وكله إنصات وتتبع ولعلها ستكون البداية الحاسمة لنظريته في الألفاظ التي سيكون لها الشأن في مؤلفاته.

هذا النص الذي أورده عبد القاهر الجرجاني يدلنا دلالة واضحة على مذهب الجاحظ في الألفاظ، وفي نفس القضية يرى عبد القاهر في كتابه **الدلائل** حيث يقول: «واعلم أنك لست تنظر في كتاب صنّف في شأن البلاغة، وكلام جاء عن القدماء، إلاّ وجدته يدل على فساد هذا المذهب»[3]، ويشير هنا إلى الإهمال الذي لقيته المعاني، وهذا الذي جعله يعلن عن التنظير لهذا المبحث العظيم الذي طوره ورفعه إلى السماء.

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 161.

[2]- الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب بيروت، 1969، ج: 3، ص:131.

[3]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، مصر- دار المدني، جدة السعودية، ط:3، 1992، ص: 255.

وغير بعيد عن فهم المقولات النقدية الجاحظية بالموافقة أو بالرفض، نحن أمام قراءة تعتبر من أخصب القراءات التي تناولت النصوص الجاحظية في كتابه **(دلائل الإعجاز)** وسنحاول التنقيب عن ما جرى بين الرجلين من صراع خفي مضمر، نحاول كشف سبب هذا الصراع، صراعٌ بين مؤيد للفظ وآخر مؤيد للمعنى أو موائم بينهما، كما نحاول تلمس قراءة الجرجاني وتحليل قطعها التي كانت ردودا على الجاحظ المتشدد -كما يراه عبد القاهر- ومقاربتها لتنظيرات عبد القاهر الجرجاني.

وبعد إيراده للبيتين الشعريين الذين نالا إعجاب أبي عمرو الشيباني وأمر بكتابتهما، وهنا يتعجب الجاحظ من هذا الصنيع، بل المفهوم منهما كيف استحسن هذا الشيخ المعاني، ثم قال: «وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، [والمدني]»[1]، فالمعاني في نظر أبي عثمان متاحة للجميع يعرفها كل الأصناف الذين أوردهم في هذا المقطع.

ولكن الذي ينبغي أن يحتفى به ويقدم ويستأنس به هو اللفظ ومصوغاته من «إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، [وكثرة الماء]، وفي صحة الطبع، وجودة السّبك، وكثرة الماء، وجودة السبك، وإنّما الشعر صياغة وضرب من التصوير»[2]، فقد أعلى من شأن الألفاظ كثيراً على حساب المعاني ورونقها وجمالياتها.

وفي السياق نفسه نجد عبد القاهر الجرجاني يقول: «فقد تراه كيف أسقط أمر المعاني، وأبى أن يجب لها فضل فقال: وهي مطروحة في الطريق، ثم قال: وأنا أزعم أن[**ابن**]صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبدا، فأعلمك أن فضل الشعر بلفظه لا بمعناه، وأنه إذا عدم الحسن في لفظه ونظمه، لم يستحق هذا

[1]- الجاحظ، الحيوان، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط:2، ج 3، ص: 131.
[2]- المرجع نفسه، ص: 131.

الاسم بالحقيقة، وأعاد طرفا من هذا الحديث في البيان[1]، وهذه كلها إشارات من عبد القاهر تدلنا دلالة واضحة على تهكم الجاحظ على أبيات ابن الشيباني.

يقول الجاحظ: «ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذكر، وربما خيل إلى أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبدا أن يقولوا شعرا جيدا، لمكان أعراقهم من أولئك الآباء»[2]، فهو هنا يعلمك أن فضل الشعر بلفظه لا بمعناه، وعدم الحسن في لفظه ونظمه لا يستحق الإشادة منه.

ثم قال: «ولولا أن أكون عيّابا، ثم للعلماء خاصة، لصورت لك بعض ما سمعت من أبي عبيدة، ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة»[3]، ولعل هذا من شدته التي وصفه بها عبد القاهر، ولعل من نافلة القول أن تلك المرحلة التي واكبت الجاحظ اشتهر فيها الشعر المرصع بمعاني جياشة، وكذلك الاعتماد على الألفاظ أو قلة الصناعة اللفظية.

وهنا نجد عبد القاهر يلوم الجاحظ على ترك المعاني والغلو في الألفاظ، كما أنّه ينكر على من يرفضون الإعجاز، الذي بلغ ذروته مع المعتزلة، وقد تصدى لهم بكل قوة، وردّ عليهم في كثير من معتقداتهم كالصرفة وهدم أصولها، وهذه من حسناته الجارية التي تحسب له، ولم يتكلم عليها الدارسون والمحققون، ولذا نجده في **الدلائل** ينكر هذا المذهب ويقول: «ونعوذ بالله من العمى بعد الإبصار»[4]، وهي دعوة صريحة تعكس تذمره من الجاحظ وأنصاره من المعتزلة.

3.نظرية المعاني لعبد القاهر الجرجاني:

من المعلوم أن علوم البلاغة تعتبر علماً واحداً عند عبد القاهر وتتفرع مباحثه، «كما سمّى في الدلائل علم المعاني باسم (النظم) وهو اصطلاح كان

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 256.
[2]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:256-257.
[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، عالم النشر، بيروت: 1423 هـ، 260/3.
[4]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 257.

يشيع في بيئة الأشاعرة، إذ كانوا يعللون إعجاز القرآن بنظمه»[1]، فتعليله عندهم يكمن في النظم، وهذا ما جرى عليه كثير منهم.

وقبل عرض مجمل إلى ما يذهب إليه عبد القاهر في هذا الباب، نورد نبذة يسيرة حول تطور هذا المصطلح وكيف وصل إلى مرحلة الازدهار مع عبد القاهر، فقد استعمل ابن المقفع (ت143ه) وعمرو بن عبيد كذلك كلمة بلاغة في موضوعات متعددة، صارت فيما بعد من موضوعات الفصاحة، كما استعمل العتابي البلاغة لما سؤل عنها فأجاب بأنها هي الفهم والبعد عن الحبسة والاستعانة، ونجد الجاحظ يفرق بين كلمتي بلاغة وفصاحة، بالرغم من أنه يعتبر أول من استعمل مصطلح الفصاحة، أما الباقلاني فيرد الفصاحة والبلاغة إلى البراعة[2].

أمّا البلاغة والفصاحة عند عبد القاهر الجرجاني فهي مختلفة تماما عن سابقيه، بحيث يقول إنّ «الفصاحة علم، وهو علم يصعب تعليمه.. والبلاغة عنده هي حسن دلالة الكلام على معناه في صورة بارعة من التعبير»[3]، إذن يرى أن لا معنى للألفاظ إلاّ إذا كانت تدل على معنى جيد ولها تأثير على النفوس، كما أنّه يرى أنّ البلاغة والفصاحة شيء واحد، وهو تأدية المعنى مع اختيار اللفظ الحسن في أسلوب حسن يجذب القارئ.

وفي خضم هذه الخلافات حول قضية مصطلح (النظم)، نجد عبد القاهر يقرر أن الفصاحة ليست هي النظم، وبهذا الرأي يتوافق مع عبد الجبار، الذي يربط النظم بحسن اللفظ والمعنى وبالصور البيانية، وللجاحظ مجادلات قوية في هذا الموضوع، والظاهر أن الجاحظ هو أول من وضع اصطلاح (النظم)، ومنهم من يضع الفصاحة في مكان (النظم) كما كان عند الجبائي.

وخلاصة هذا المبحث المتعلق بالفصاحة نجد عبد القاهر «هو أول من تنبه إلى تعليل الإعجاز القرآني بتراكيب الكلام وصياغاته وخصائصها

---

[1]- المرجع نفسه، ص:161.

[2]- ينظر: عبد العاطي غريب علي علام، البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي، دار الجيل، بيروت، ط:01، 1413ه- 1993م، ص:45.

[3]- المرجع نفسه، ص:46-48.

التعبيرية »[1]، عكس ما كان يراه الأدباء كالجاحظ أنّ الاعجاز يكمن في الفصاحة، بخلاف عبد القاهر الذي يرى أن الاعجاز يكمن في النظم.

ومن الأمور المهمة التي لا نستطيع المرور عليها مرور الكرام، هي وجود ذلك التقاطع الواضح بين رؤية الجاحظ ورؤية عبد القاهر، فجهود عبد القاهر في التنظير لقضية الفصاحة والبلاغة واضحة في الرد على أهل الكلام، ورد خاص على الجاحظ وانتقام عامٌ من المعتزلة، فالخلاف كبير بين الرؤيتين المتضادتين، فالفصاحة التي يعنيها الجاحظ ليست هي التي يعتقدها عبد القاهر، وهذا المبحث نرى فيه أن عبد القاهر كان موفقا في كيفية إفحام المنافس لكن بدون ضجيج أو كثرة طحين.

كما نجد عبد القاهر يرد على البلاغيين القدماء الذين يصنفون الكتب، ويتشددون «غاية التشدد، وقد انتهى في ذلك إلى أن جعل العلم بالمعاني مشتركاً وسوّى فيه بين الخاصة والعامة»[2]، ونفهم من هذا القول أنّ عبد القاهر يقول بأفضلية المعاني في البلاغة، وفي هذا رد على قول الجاحظ المعاني مطروحة في الطريق ...، كما أنكر ذلك بالقياس إلى الألفاظ من حيث هي ألفاظ في بداية كتابه، ثم يحاول إثبات الإعجاز القرآني للعرب هو راجع لأوصاف نزل بها، وهي أوصاف لم تكن في ألفاظه من حيث المعاني المتصلة بتراكيبها وأساليبها، وها هو يقول في دلائل الإعجاز: «إنّ الصور البيانية تدخل في التراكيب والأساليب، فهي جزء في النظم، وليست سر جماله وإعجازه، وعاد إلى بيان طائفة من أسرار النظم، ثم رجع يرد في عنف على أصحاب اللفظ»[3]، فكان رده قوياً على القائلين باللفظ في **الدلائل**، وعلى رأسهم الجاحظ في (**البيان والتبيين**) الذي نجده كثيراً ما دافع على مزية الألفاظ.

كما يرى عبد القاهر أنّ فصاحة الألفاظ وبلاغتها تعود إلى تموضعها في المعرض الذي وضعت فيه، والنظم الذي سيقت فيه، إذن نظرية النظم عند عبد

1- شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ، ص:161.
2- شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ، ص: 163.
3- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 255 وما بعدها.

القاهر هي **تتبع معاني النحو ما بين الكلم، على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام،** يعني إذا كان المخاطب منكراً تؤكد أنت **إنّ زيداً لقائمُ،** ولكن إذا لم يكن كذلك فلا حاجة إلى التأكيد، وإنّما أنت تطابق بين الكلام ومقتضى الحال.

وقبل الحديث عن النظم لدى عبد القاهر، نريد أن نتطرق إلى النظم عند قدامة، «فالنظم عند قدامة يمثل الائتلاف بين اللفظ والمعنى، يجعل المعاني مقابلة للغرض المقصود باعتبارها معاني موجودة في الطبيعة لها صورها الذهنية، فإذا ما طلبها كاتب أو شاعر أو خطيب، فما عليه إلا أن يختار لها اللفظ المناسب للغرض المطلوب كي تصوره صورة بعد صورة»[1].

وأما الخطّابي في نفس القضية نجده يقول: «وأما رسوم النظم، فالحاجة إلى الثقافة والحكمة فيها أكثر لأنها لحام الألفاظ وزمام المعاني، وبه ينتظم أخذ الكلام، ويلتئم بعضه ببعض، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان»[2]، ومن هنا ندرك أسبقية الخطابي لنظرية النظم، وبذلك يكون قد تجاوز وسبق عبد الجبار في معرفة سر الإعجاز وعزوه إلى النظم.

أما أبو هلال العسكري صاحب كتاب **(الصناعتين)** الذي كان متأثرا بآراء الجاحظ وابن قتيبة والخطابي، نجده في غير موضع قد قسّم «نظم الكلام في بداية كتابه إلى بلاغة وفصاحة، فتكلم عن البلاغة وخصّها بالمعاني، ثم تكلم عن الفصاحة وخصّها باللفظ، ورأى أن الكلام عبارة عن ألفاظ ومعان، فأولى عنايته لكليهما، لإيمانه بوجود علاقة بينهما، وهي علاقة ثابتة كعلاقة الروح بالأبدان الحية»[3]، وبرأيه هذا في المعاني والألفاظ نجده لا يبتعد كثيرا عن عبد القاهر الجرجاني.

---

[1]- وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، دمشق، ط:1403ه-1983م، ص: 21-23.

[2]- محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع هجري، مكتبة الشباب، مصر، ط: 01، ص: 259.

[3]- وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، ص: 29-30

والقرن الرابع الهجري زخر بمؤلفات كثيرة، فقد ألّف الآمدي **(الموازنة)** في المقارنة بين أعمال أبي تمام وأعمال البحتري، وألّف القاضي الجرجاني (**الوساطة**)، وكلا الناقدين تعرضا لقضية النظم «ورفضوا الصلة بين النظم والعلم، فقد أدرك الآمدي والجرجاني دور اللفظ في التعبير لاعتماد اللفظ على ما يثيره من المعاني في النفس، ثم لما له من صلة بين المعاني المثارة وغيرها من معاني الألفاظ المنظومة في العبارة، واهتما بتآلف الألفاظ وتقاربها حتى لا تنبو لفظة على أخرى مقارنين بين ذلك بالعبارات القرآنية وخاصة أثناء بحثهما عن الاستعارة في القرآن الكريم ودورها في الشعر وكلام العرب»[1].

كما نستطيع القول أن نهاية القرن الرابع شهدت بحوثاً ثرية لعبد الجبار، وكان سبّاقا في التمهيد لإرساء قواعد نظرية النظم، والتي اهتم بها فيما بعد عبد القاهر وجعل منها حصناً منيعاً للبلاغة العربية، كما أنّ عبد الجبار مهتم بمزية الألفاظ وها هو يقول: «إنّ المعاني لا تتزايد وإنّما تتزايد الألفاظ»[2]، كما وقف عبد الجبار كثيراً عند الفصاحة ذاكراً شروطها ومجالاتها، وكأنه يضعها مقابلاً للنظم، وبهذا الصنيع يقترب عبد الجبار من عبد القاهر كثيرا.

4.وضع عبد القاهر لنظرية المعاني:

وبعد هذا التمهيد لبلاغة الجرجاني وكيف كان تأثيرها على الساحة الأدبية، ها نحن الآن نتطرق إلى قضية النظم، فما هو مفهومه؟ وكيف تطور ؟

يقول الأستاذ محمود شاكر «أول قائل في القرآن، من جهة النظم والتأليف، هو أبو عثمان وقد ذكره ابن الخياط أيضا في أول كتاب الانتصار»[3].

فالنظم عنده مسايرة النحو وعدم الخروج عنه ولعل هذا الذي خالف فيه مخالفيه، سواء الذين سبقوه من القدماء أو من معاصريه، بل وحتى من أمم أخرى كاليونان (**الخطابة لأرسطو**)، والهنود (**الصحيفة الهندية**).

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 33.

[2]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، طبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، السعودية، ط:3، 1413هـ - 1992م، ص: 395.

[3]- محمود محمد شاكر، مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني، مصر، دار المدني، السعودية، ص: 71 .

لقد أفاد عبد القاهر كثيرا من عبد الجبار قاضي الدولة البويهية، وكان تأثيره بادياً عليه، وهنا نجد شوقي ضيف يقول: «وأنّ عبد القاهر قد تلقى أفكار عبد الجبار فكانت له خير ملهم في القول بنظريته اللغوية في النظم»[1]، ويبدو أنه قد تأثر بالنحويين قبله، وجهودهم استثمرها في صياغة نظمه.

ولهذا نجد محمد مندور يرى أن عبد القاهر «أفاد مما كتبوه فائدة كبرى في دراسته التي انتهت به إلى وضع نظريته في المعاني الإضافية وصور الآراء النحوية للكلام، أو بعبارة أخرى في النظم والخواص التركيبية للعبارة»[2]، فاتصاله بالعلوم التي سادت في زمنه أو التي سبقته، كانت عاملا مهما في تكوين الملكة العلمية لدى عبد القاهر، وقد انعكس هذا على الأسرار والدلائل، فقد قدّم خدمة جليلة للبلاغة العربية، لم يقدمها أحد لها من قبل ولا من بعد، وكذلك مدّ لطائف جمّة للقرآن الكريم ولتفسيره ولكشف دقائق إعجازه، وحلِّ مشكله.

5.نظرية البيان وعبد القاهر الجرجاني:

بعد أن وضع عبد القاهر نظرية المعاني وضع كذلك نظرية البيان، فهي تعتبر سابقة في تاريخ البلاغة العربية، خاصة في كتابه **(أسرار البلاغة)**، فهو عندما قدّم هذه المباحث «لم يكن يفكر في وضع هذا الاسم علما عليها، حينا يسميها علم المعاني، وأحيانا علم البيان، وتارة علم الفصاحة»[3]، فكان عبد القاهر يرى أن كل ما عرضه من بديع واستعارة ومعان وبيان، هو داخل في علم البلاغة، فالظاهر عنده أن البيان لم يستقل استقلالا تاما كما استقل عند الكثير من بعده.

وقد بدأ كتابه بالآية القرآنية «﴿*الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ* **(1)** *خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ* ﴾، (الرحمن، الآية 2)، ومضى بعدها يقول إنّ فضيلة البيان لا تعود إلى اللفظ من حيث اللفظ، وإنّما تعود إلى النظم وترتيب الكلام وفق ترتيب معانيه في

1- شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ، ص: 116-120.
2- محمد مندور، الميزان الجديد، ص: 147
3- شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ، ص: 190.

النفس، وهو استهلال لمباحثه في الكتاب»[1]، فإشارته في المقدمة للبيان هي دليل لانتهاجه مباحث البيان، وسيعمل على تقصي دقائقه كما سنقوم بعرضه لاحقا من تراكيب بلاغية تتأثر بها النفوس.

تحدث في كتابه **(أسرار البلاغة)** عن الجناس والسجع وأراد أن يثبت أنّ الجمال فيهما يتعلق بمسائل ترضي العقل وليس للألفاظ والحروف، ثم يورد بيتاً لشاعر فيه جناس تام وقد أعجبه البيت:

ناظراه فيما جنى ناظراهُ أو دعاني أَمُت بمَا أودعانيِ

وقال إنّ المزية والحسن والجمال يعود إلى معنى البيت وما يثيره في المتلقي، كما يعود إلى المعنى النفسي لدى المستقبل، لا إلى الحسن اللفظي فقط.

ثم ينتقل عبد القاهر إلى التشبيه والاستعارة والتمثيل، ثم يتعرض للاستعارة بشيء من التفصيل، فهي عنده: «أن يكون اللفظ أصلا في الوضع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية»[2]، وهو شرح يحيلنا إلى أنّ الاستعارة عنده هي المجاز، كما نجده يقسّم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة، فالمفيدة عنده تتمثل في: المبالغة في الوصف، أما غير المفيدة تتمثل في: عدم المبالغة في الوصف.

ثم يتحدث عن التشبيه والتمثيل، والتشبيه ينقسم إلى قسمين: قسم عادي لا يحتاج إلى تأوّل، وقسم غير عادي: وهو الذي ينقصه التأوّل، والتشبيه عام والتمثيل أقل منه، وقد أطال كثيراً عبد القاهر في هذا المبحث، لأن عنايته بالتشبيه والتمثيل والاستعارة فاق فيها كل من له معرفة بهذا العلم، كان آية زمانه في هذا الفن لا يبارى ولا يجارى، بل شهد له الأعداء قبل الأصدقاء، وانظر كتابيه: **الأسرار والدلائل** يأتيك اليقين، فاستحضاره للشواهد للتمثيل لقواعده لم يسبقه فيها أحد، ربما نجد -من سار على دربه ولكن من الناحية التطبيقية- الزمخشري من خلال تفسيره الكشاف.

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 190.

[2]- شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ، ص: 193.

كما كانت له بحوث حول السرقات الشعرية، وما يدور حولها من سرقة الألفاظ والمعاني، وكل باحث له إسهاب فيها، وعبد القاهر مذهبه في السرقة أنه إذا اتفق شاعرين في تشابه المعاني لا يُعد هذا سرقة، «وكل ما يندرج في هذا النوع لا يصح أن يدخل في باب السرقات الشعرية لأنّ التفاوت لا يدخله، إلاّ أن توصل به لطيفة أو يركب عليه معنى بحيث ينقلانه من الاشتراك العام إلى هذا النوع لا يصح أن يدخل في باب السرقات الشعرية»[1]، وهذه القضية تعرض لها الكثير من النقاد القدماء، والدارسين المحدثين كلٌ أدلى بدلوه فيها.

ثم كان لعبد القاهر الجرجاني بحوث رائعة فاق فيها الكثير في قضية الحقيقة والمجاز، وكان له فيهما طول نفس، فقد كانت بحوثه في «الإثبات والنفي، وكيف أن المثبت والمنفي يسمى مسنداً، والمثبت له والمنفي عنه يسمى مسنداً إليه، ومحدثاً عنه، وأيضا كيف أن الإثبات والنفي يكونان أفعالاً وأوصافاً وأنهما قد يتعلقان بالفاعل وقد يتعلقان بالمفعول»[2]، وهي مباحث قد فاق فيها الكثير من أقرانه في زمنه ومن أتى من بعده، فقد كان بالفعل أيقونة أدبية وبيانية، خاصة في الدلائل والأسرار فقد أفاض فيهما كثيراً، وأتى بقضايا مهمّة كانت محل دراسات من كل الجوانب.

ويقول أيضاً: «وإذا أردت أن تقضي في الجملة بمجاز أو حقيقة أن تنظر إليها من وجهين: أحدهما أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات أهو في حقه وموضعه، أم قد زال عن الموضع الذي ينبغي أن يكون فيه، والثانية أن تنظر إلى المعنى المثبت أي ما وقع عليه الإثبات»[3]، وهذه مسألة مهمة من عبد القاهر تحتاج إلى تحرير في بحث مستقل، لأن قراءة الجرجاني للجاحظ أنستنا الكثير وتجاوزنا عدة مسائل مهمة تناغما مع موضوع البحث والحدود التي لا ينبغي لنا تجاوزها.

---

[1]- شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ، ص: 211.
[2]- المرجع نفسه، ص: 213.
[3]- المرجع نفسه، ص: 213.

وفي نهاية هذا البحث نستطيع القول أنّ عبد القاهر استطاع أن يضع نظرية في البيان مكتملة، وأشرف هو بنفسه على هذا المشروع البياني الذي لا يغوص فيه أحد سوى شيخ البلاغة، فقد كان بحق علامة زمانه، وقدّم خدمة جليلة للبلاغة العربية وللقرآن الكريم، ولن يستطيع أحد اليوم تجاوزه، لما لمؤلفاته من أهمية بالغة في تيسير فهم آيات العزيز الحكيم، وفي المبحث الموالي نمر إلى عالم آخر كان لمعجمه الأثر البالغ في الترجمة للعلماء والأدباء الذين تواتروا على المدونة العربية إنّه ياقوت الحموي صاحب معجم الأدباء.

ياقوت الحموي وتقريظ الجاحظ

1.تمهيد:

هو ياقوت الحموي بن عبد الله الرومي الحموي، البغدادي، (574-626ه)، وبدأ ياقوت بطلب العلم، منتهجاً في ذلك سبيل الرحلات[1]، وكتابه **(معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)** حيث جمع فيه شخصيات متفاوتة من الأدباء وتخليد ذكراهم وهي قيمة إضافية جيدة في مؤلفه، كما أن قراءته تعتبر من أبرز القراءات خاصة وأن الحموي له باع تاريخي أدبي، وأنه ترجم لغالبية الأدباء والكتاب.

أعاد إحياء **(معجم الأدباء)** المستشرق مارجليوث **Marglioth** وهو أول من اهتم به سنة (1907)، طبعته مطبعة هندية في القاهرة، والذي حظي به **(معجم الأدباء)** لم يحظ به كتاب آخر، اهتم بالكتاب الكثير من الباحثين، وهذا الكتاب كان نتيجة أنتجتها ظاهرة الرحلات.

يقول الحموي: وقرأت بخط أبي حيان التوحيدي من كتابه الذي ألفه في **(تقريظ الجاحظ)**: وحدثنا أبو سعيد السيرافي، وهمّك من رجل، وناهيك من عالم، وشرعك من صدوق قال: حدثنا جماعة من الصابئين الكتاب أن ثابت بن قرة قال: ما أحسد هذه الملّة العربية إلاّ على ثلاثة أنفس فإنّه:

---

[1]- ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ط:01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1410هـ، ج: 01، ص: 520.

عقم النّساء فلا يلدْن شبيههُ إنّ النساءَ بمثلهِ عُقْمُ[1]

في الأخير نستطيع القول أن الحموي استطاع أن يترجم للجاحظ منوه به، ومعجب به أيّما إعجاب، وهذا ظاهر في كلامه السابق الذي لم نورده لطوله وتفادياً للحشو والتكرار، فيرجع إليه في موضعه المشار إليه، والآن نمر لقراءة المبرد في المبحث التالي.

المبرّد ورسالة البلاغة

1.تمهيد:

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، (ت 285ه)، عاش في العصر العباسي، اشتغل على التدريس وأخذ العلم عن كبار أهل العلم كالجاحظ والزيادي والرياشي، وكتبه تعتبر من أخصب الكتب، وما يدلك على هذا قول ابن خلدون بأن كتب المبرد تعتبر من أصول الأدب، ومن أبرز تلاميذه الأخفش وابن درستويه وابن السراج، وابن الزجاج، كما عاصر ابن قتيبة وتتلمذ على أبي عثمان وروى له الكثير في مؤلفه (**الكامل**).

من الواضح أنّ المبرد «سار على درب الجاحظ، ونهج نهجه في مسائل البلاغة والبيان ابن يزيد المبرد، فمن يتصفح كتابه (**الكامل**) يدرك -بأدنى تأمل- تأثره الواضح ببيان الجاحظ وآرائه البلاغية»[2]، وقد يلتقيان في الكثير من الصور البلاغية، ولذا قد نتصور أن حوار المبرد في كتابه حول الجاحظ وبلاغته قد نجده يسير باتجاه أبي عثمان وقد يكون موافقاً له في الكثير من المحطات، وهذا ما نلاحظه وسنتطرق إليه لاحقاً.

والحديث عن البلاغة وبأقسامها عند المبرد في كتابه هو غال ونفيس، وذلك بالنظر إلى ما أورده فيه، «فكتاب الكامل زاخر بفنون الأدب مع الاهتمام بالشرح والبسط والتحليل والنقد والموازنة، كما نجد في هذا الكتاب كثيرا من الملاحظات البيانية التي تلقانا من حين إلى حين شافعاً لها بعرض الكثير من

[1]- ياقوت الحموي الرومي، معجم الادباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ص:2113-2114
[2]- فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص:275.

النماذج الأدبية شعراً ونثرا، متبعا إياها بالشرح اللغوي على غرار ما يفعل الجاحظ في كتابه»[1]، وهي نفس الطريقة المتبعة من طرف الجاحظ وعلى هذا الأساس نستطيع القول أنّ المبرد يتواءم مع الجاحظ، وبلاغته تتوافق مع بلاغة هذا الأخير.

ومن الصور البلاغية التي يلتقي فيها مع أبي عثمان بحيث تمثلت في: «ذم التكلف والنهي عن التشادق والتقعر في الكلام، داعيا إلى السهولة واليسر والميل مع الطبع، مستدلا بحديث الرسول ﷺ، {**إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَسَاوِيكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرْثَارُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ**}[2]، ويقف مع هذا الحديث الشريف شارحاً إياه موضحا كيف كان الرسول الكريم ﷺ يبغض التكلف والتصنع، مبيناً أن الطبع والسهولة لهما مدخلهما في جودة الكلام وروعته وحسنه»[3]، كل هذه الصور وتنوعها نجدها مبثوثة في البيان والتبيين، خاصة ما تعلق بذم التكلف، وفي نفس السياق نجد القاضي الجرجاني يذمه «ومع التكلف المقت، وللنفس عن التصنع نفرة، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة»[4]، وهو ما يذهب إليه الجاحظ من كراهيته للتصنع وبعد عن الطبع الصادق.

وعن مدى تأثره بالجاحظ وموافقته له في الكثير من القضايا البلاغية «نراه وهو يتحدث عن الكناية -مثلاً- يتأثر بالجاحظ، فيجعلها على ثلاثة أوجه، فهي إما للتعمية والتغطية، وإما للرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على ما معناه من غيره، وإمّا للتفخيم والتعظيم»[5]، وهو ما يذهب إليه الجاحظ كذلك.

---

[1]- فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص: 275.

[2]- هذا الحديث رواه الطبراني في "الأوسط" (7697) والخطيب في "تاريخ بغداد (5 /263) وابن عدي في "الكامل" (63/4) وابن بشران في "الأمالي" (44/2) وابن أبي الدنيا في "الصمت" (ص154) والثعلبي في "تفسيره" (ص2343) كلهم من طريق صالح المري عن سعيد الجريري عن أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[3]- المبرد، الكامل، 3/1.

[4]- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص: 24.

[5]- المبرد، الكامل، ص: 605/2.

كما نجد الجاحظ يلتقي مع المبرد في كثير من المواضع حيث يقول: «ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء: فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال»[1]، إذن في باب الكناية نجد المبرد يتفق مع الجاحظ فيها إلى حد بعيد.

و«التشبيه نوع من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها، قال المبرد في الكامل لو قال قائل هو أكثر كلام العرب لم يبعد، وعرّفه جماعة منهم السكاكي: بأنه الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى وقال ابن أبي الإصبع هو إخراج الأغمض إلى الأظهر، وقال غيره هو إلحاق شيء بذي وصف في وصفه، وقال بعضهم: هو أن تثبت للمشبه حكما من أحكام المشبه به والغرض منه تأنيس النفس بإخراجها من خفي إلى جلي وإدنائه البعيد من القريب ليفيد بيانا، وقيل الكشف عن المعنى المقصود مع الاختصار»[2]، وسنرى كيف استفاد المبرد من الجاحظ في هذا الباب.

وفي **البيان والتبيين** نجد الجاحظ قد عقد باباً للتشبيه أسماه (**باب من الشعر فيه تشبيه الشيء بالشيء**)، ويذكر أن الفيلسوف الكندي قال للمبرد يوماً: «إني أجد في كلام العرب حشواً، يقولون: عبد الله قائمٌ، وإنّ عبد الله قائمُ، وإنّ عبد الله لقائمٌ والمعنى واحد، فأجابه قائلاً: بل المعاني مختلفة، فعبد الله قائمٌ إخبار عن قيامه، وإنّ عبد الله قائمُ جواب عن سؤال سائل، وأن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر»[3]، وهذا تفسير منه ينبئ عن نباهة كبيرة من المبرد وعلو كعبه في علم البلاغة، وهو بهذا يسير في نفس اتجاه الجاحظ.

وبردّه على الكندي أصبح كلامه قواعد بلاغية لدى البلاغيين، «وقد فتح المبرد بهذه الملاحظة للبلاغيين فصلا من فصول علم المعاني، أطلقوا عليه،

---

[1]- كتاب الحيوان ج: 3 ص: 39.
[2]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 128/3.
[3]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ج:1، ص:315.

‹أضرب الخبر› وسموا الخبر الأول في سؤال الكندي وإجابة المبرد ابتدائيا، والثاني طلبيا والثالث إنكاريا»[1]، وهي تقسيمات استفاد منها البلاغيون من بعده، خاصة في البلاغة التعليمية.

ومن جهود التأليف البلاغي لأبي العباس المبرد نجد تلك الرسالة التي كان يرجع إليها الجاحظ في شروحاته، وهي «رسالة صغيرة في البلاغة، بل إنها تحمل هذا الاسم، وكانت هذه الرسالة جواباً لكتاب ورد إليه من أحمد بن الواثق، قال فيه: أحببت -أعزك الله- أن أعلم أي البلاغيين أبلغ: أبلاغة الشعر أم بلاغة الخطب والكلام المنثور والسجع ؟ وأيهما -أعزك الله- أبلغ؟ عرفني ذلك إن شاء الله»[2]، وقد كانت إجابات صائبة محكمة استفاد منها الجاحظ في التنظير والتطبيق البلاغي.

وفي هذه الرسالة نجده قد أفاد كثيراً حول المنظوم والمنثور، والسرقات الشعرية، وأهم ما نلمسه في هذه الرسالة مذهبه في صناعة الأدب، على نحو ما رأينا عند الجاحظ، فقد جاء فيها: «أنّ حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقارنة أختها ومعاضدة شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول، فإنّ استوى هذا الكلام المنثور والكلام المرصوف المسمى شعراً، فلم يفضل أحد القسمين صاحبه، فصاحب الكلام الموصوف أحمد، لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه، وزاد وزنا وقافية، والوزن يحمل على الضرورة، والقافية تضطر إلى الحيلة»[3]، وهذه لفتة جميلة تحتاج لمزيد شرح وبحث.

نستطيع القول أن (**البيان والتبيين**) أثّر كثيراً في المبرد، بل نزيده تأكيدا بأن المبرد كان كتابه زبدة للآراء البلاغية للجاحظ، وفي نهاية هذا البحث نستطيع القول إن المبرد استفاد من بلاغة الجاحظ كثيراً، وهذا ما يظهر جلياً في

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:61.
[2]- زهري السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية، ص:276.
[3]- سيد فوزي عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص:276.

رسالته التي جاءت رداً على تساؤل، ومن أبرز ما ميز بلاغة المبرد أنها تناغمت مع الجاحظ كثيراً.

قراءة ثعلب للجاحظ

1.تمهيد:

من الذين اعتنوا ببلاغة الجاحظ نجد أبا العباس أحمد بن يحي المعروف بثعلب، كان فارسي الأصل، ولد ببغداد سنة (200ه)، ونشأ بالكوفة، تلقى علومه فيها حتى طار صيته في النحو والعربية، وصار إمام المدرسة الكوفية في النحو، وتتلمذ عليه كثير من الأعلام، كالأخفش، ونفطويه، والزجاج، وابن الأنباري، وابن المعتز، وغيرهم من العلماء والأدباء، توفي في خلافة المكتفي سنة (297ه)، له مصنفات كثيرة في النحو واللغة والقراءات والأمثال أشهرها: **المجالس**، و**الفصيح**، **وقواعد الشعر**[1].

كان الجاحظ ملهما للكثير، ومن أبرزهم ثعلب، «فقد أثاره البيان والتبيين، وحفزه أن يصنف كتابا صغيرا سماه **قواعد الشعر**»[2]، أصبح فيما بعد مرجعاً في التقعيد للشعر، وفيه نجده متجانساً مع الجاحظ، فهو لا يبتعد كثيراً عن الذين كتبوا عن الجاحظ ونحوا نحوه، واهتدوا بطريقته.

والفارق بين الجاحظ وثعلب كبير وذو متسع واضح، الأول أديب بياني موسوعي، والثاني لغوي نحوي، فثعلب «وعلى الرغم من أن عقليته محافظة تجيد اللغة والنحو والأدب أكثر من إجادتها فنون البيان والبلاغة، إلاّ أن كتابه يعد من الآثار التي ينبغي ألا تغفل في دراسة البيان العربي ذات التأثر الواضح ببيان الجاحظ ومنهجه في تناول المسائل البلاغية»[3]، فقد لامست بلاغته بلاغة أبي عثمان ويبدو أنه غرف من نهره، ويرجع إليه في كل حين.

كما كانت لثعلب مباحث حول النثر، فنجده يهتم بتحسين المنظوم، «فقد عدّ ثعلب الشعر أربعة: أمر ونهي واستخبار وخبر، ومثل لكل قاعدة منها، ثم

1- ينظر: المرجع نفسه، ص:277.
2- المرجع نفسه، ص:277.
3- سيد فوزي عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص:277.

تحدث عما يجري فيه من المديح والهجاء والرثاء والاعتذار والتشبيب وللتشبيه واقتصاص الأخبار»[1]، ومؤلفه هذا في قضية الشعر سلك فيه مسلك عبد القاهر والعسكري من حيث التأصيل والترتيب والتحقيق.

كما أنّه «عرض الكثير من فنون البلاغة ومسائلها، كالتشبيه والاستعارة والكناية التي سماها: ‹لطافة المعنى›[2]، والمبالغة التي سماها: ‹الإفراط في الإغراق› والمطابقة التي سماها ‹مجاورة الأضداد›، كما عرض لجزالة الألفاظ، وتحدث عن جمال النظم وغير ذلك من المباحث التي تطالعنا في كتابه»[3]، فالمصطلحات التي جاء بها كالإفراط والإغراق واللطافة، مصطلحات تنم عن فكره الغزير واطلاعه الواسع، وإلمامه بكل فنون الأدب العربي، وخاصة ما تعلق بالبلاغة العربية.

وعلى كل حال فإنّ «كتاب ثعلب فضلاً عن صغر حجمه لم يضف للبلاغة شيئاً ذا بال، ولكن -على أي حال- فإن أثر الجاحظ واضح كل الوضوح لمن يطالع هذا الكتاب، وعلى سبيل المثال نجد ثعلب يعرض لفن الاستعارة»[4]، وهو مبحث استثمر فيه من البيان والتبيين، وواضح أنه معجب ببلاغة أبي عثمان كثيراً، وقليلاً ما نجد لغويا تمتزج كتاباته بفنيات البيان الجاحظي.

والناظر في مؤلفات الرجلين «يجد تشابهاً واضحاً بين ما كتبه ثعلب وما أثاره الجاحظ ونثره في بيانه عن الاستعارة وما يتصل بها»[5]، ومنه نستطيع القول: إنّ تأثير الجاحظ على ثعلب كبير وظاهر في هذه الكتاب المتواضع الذي يشهد على مكانة ثعلب البلاغية.

وكما هو معروف فإنّ باب الاستعارة هو فن تلقفه الكثير من العلماء، حتى وصل إلى القمة مع عبد القاهر الجرجاني في **(أسرار البلاغة)**، وكذلك الجاحظ كان له تأثير فيمن بعده في باب الاستعارة، «وهذا الأثر الذي نجده في

---

[1]- المرجع نفسه، ص:277.
[2]- ثعلب، قواعد الشعر، ص: 28.
[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 277.
[4]- سيد فوزي عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص: 278.
[5]- المرجع نفسه، ص: 278.

فن الاستعارة، نجده أيضا في كل أبواب الكتاب ومسائله البلاغية، مما يدلنا على أن (**البيان والتبيين**) رغم اختصاصه بمسائل الأدب والبيان والبلاغة إلاّ أنه استطاع أن يؤثر في عقلية عالم محافظ كثعلب، وأن يديم النظر فيه حتى أثاره إلى تأليف كتابه في مسائل الأدب والبيان»[1].

قراءة عبد الله بن المعتز للجاحظ

1.تمهيد:

ابن المعتز أحد خلفاء بني العباس، ولد سنة (247ه)، عاش في القصور بين مكائد المندسين من أتراك وفرس، لقد تربى في الترف والغنى، «... شاعراً مطبوعاً، وتأدب على شيوخ الأدب والعلم في عصره، كالمبرد وثعلب، فكان من الأدباء والعلماء، تحزب له جماعة من الأتراك وخلعوا المقتدر سنة (296ه)، وبايعوه خليفة للمسلمين وسموه المرتضى بالله فأقام في الخلافة يوماً وليلة، ثم تحزب أبناء المقتدر وقاتلوا ابن المعتز وأعوانه حتى قتلوه سنة 296ه»[2]، وهو سليل الخلفاء أباً عن جد، ذهب عمره سدى جراء تطاحن بني العباس والخيانة من الداخل من الموالي وسيطرة العنصر التركي آنذاك.

ألّف كتاب البديع الذي يعتبر «نقطة تحول هامة في مسار الدراسات البلاغية وعلامة بارزة في مجال النظرية الأدبية عند العرب، ومكانته في تاريخ البلاغة تشبه مكانة كتاب سيبويه في تاريخ البحوث اللغوية والنحوية، فهو بإجماع الباحثين عربا ومستشرقين أول كتاب جعل من البلاغة غاية تأليفه، ومحاولة فريدة لإرساء أصول البلاغة على أسس عربية صريحة»[3]، وبهذا المؤلف يبدأ التأريخ الحقيقي للبلاغة العربية على أسس متينة.

1- المرجع نفسه ، ص: 278.
2- سيد فوزي عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص: 279.
3- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس الهجري، ص: 372.

من المعلوم أن الجاحظ أثّر في من أتى بعده، بالقليل أو بالكثير، فكيف كان تأثيره في ابن المعتز؟ وكيف أثر فيه؟ وكيف كانت قراءة ابن المعتز لبلاغة الجاحظ؟ هل كان موافقاً لها أم مخالفاً لها ؟

وقد بلغ هذا الكتاب شهرةً منقطعة النظير، إذ تناقلته الأيدي من زمن إلى آخر، وشملته الدراسات الكثيرة بمختلف توجهاتها، كما أن قيمة الكتاب لا تكمن في مضمونه، ولا الوجوه التي اشتمل عليها، ولا الصياغة النظرية التي حاك بها كتابه، بل ترجع إلى تلك التقسيمات التي لم يسبقه فيها أحد، فقد كانت له بحوث مهمة في البديع أيضا.

كما أننا نشير إلى شيء مهم وهو قضية التأثير، فقوة ابن معتز « كان بوحي من الجاحظ بعد أن نظر في بيانه وتأثر به، وبعد أن قرأ ما كتبه مما يتصل بهذه الألوان البديعية»[1]، فالواضح أن ابن المعتز تأثر كثيراً بأبي عثمان، وهذا ما يتجلى في تلك الأبواب التي أوردها بأسماء معدلة أحياناً وتغيير في الأسماء حينا أخرى وهي مستوحاة من مؤلفات الجاحظ.

وفي نفس السياق «يصرح هذا الكاتب -في موضع آخر من كتابه- بأن كتاب البديع هو أثر من آثار **البيان والتبيين** للجاحظ، فقد كان ابن المعتز واحداً من علماء اللغة والأدب الذين أثارهم أثّر فيهم بيان الجاحظ -بعد أن وعوه وفهموه- فقدم لنا كتابه (**البديع**) وأودعه ثقافته البيانية وما تأثر به من المسائل البيانية والبلاغية التي أثارها الجاحظ في كتابه»[2]، وهي شهادة تفيد بتأثره ببيان الجاحظ وببلاغته.

وكمقارنة بينه وبين الجاحظ نجد أن ابن معتز نحا منحى الجاحظ في العملية النثرية، «والواقع أنّ من يطالع كتاب البديع، ويتعرف الغاية التي هدف إليها ابن المعتز من كتابه، ويقارن بين ما كتبه فيه من فنون البديع وموضوعاته وبين ما نثره الجاحظ في البيان والتبيين من هذه الموضوعات يدرك بأدنى تأمل أن ابن المعتز اهتم بجانب من جوانب البيان والتبيين وهو ما نثره الجاحظ في

---

[1]- فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص: 279.
[2]- المرجع السابق، ص: 280.

كتابه من وسائل تصنيع الأدب، وما به يحسن الكلام ويزداد رونقا وبهاء، فتأثر ابن المعتز بهذا الجانب ودرسه وشرحه وقدمه في كتابه»[1]، وهنا نصل إلى أنها هي شهادة من ابن المعتز يشهد فيها للجاحظ بنبوغه في المجال البلاغي.

وهنا ندرك تأثير الجاحظ في ابن المعتز ويظهر ذلك في «فكرة الكتاب وغايته-ولاشك- مستمدة من بيان الجاحظ ومذهبه في تصنيع الأدب، وأحاديثه المنثورة في بيانه عن وسائل هذا التصنيع من ألوان البديع وفنونه المختلفة، وفضلا عن هذا فقد كان للجاحظ أثر لا يجحد على كثير من الموضوعات التي ضمّنها ابن المعتز كتابه»[2]، فالبيان والتبيين هو ملهمه حاول من خلاله رسم طريقه نحو البديع، واستعان به حتى خرج كتابه البديع كأول مؤلف يحمل بين طياته إشارات بلاغية ساعدت ابن المعتز على تأليف كتابه.

كذلك في باب (**حسن التضمين**) نجد ابن المعتز قد استوحى فكرة هذا الباب من بيان الجاحظ، ومن أحاديثه المتفرقة عنه، وإن كان الجاحظ لم يعده محسناً وإنّما عدّه عيباً ينبغي تجنبه، كما روى ذلك في صحيفة الهند في البلاغة، وعدّه ابن المعتز محسناً وهو يريد به: أن يضمن الشاعر شعره أبياتاً أو أنصاف الأبيات من شعر غيره، ومثل له بقول الأخطل:

ولَقَد سَما للخرمى فَلَم يقُل بَعد الوغىَ لكن تضايقَ مقدمِي

فقوله: لكن تضايق مقدمي، هو من قول عنترة:

إذ يتقونَ بي الأسنّة لم أخم عنها ولكن تضايقَ مقدميِ

فمثل هذه الومضات التي تدل على تأثر ابن المعتز في بديعه ببيان الجاحظ كثيراً، ولكن يكفينا أنّ الكتاب في أفكاره وترتيبه أثرٌ من آثار بيان الجاحظ، وثمرة من ثماره البلاغية والبيانية[3].

ابن وهب الكاتب ونقد النثر

---

1 - فوزي سيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاح في البيان والتبيين، ص:280.
2 - المرجع نفسه، ص:281.
3 - ينظر: فوزي سيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاح في البيان والتبيين، ص:282.

1.تمهيد:

هذا المبحث يتناول قراءة ابن وهب الذي جعل منه العمري أساساً للبلاغة العربية ومركزاً لها، ورأى أن بيان ابن وهب أفضل من بيان الجاحظ، وأنّ ما قدمه الجاحظ عن البيان لا يستجيب للمتوقع من عنوان الكتاب، وهنا نحاول بسط الكلام عن ابن وهب وكتابه (**البرهان في وجوه البيان**)، «ولم يُعرف عنه سوى النزر اليسير، فهو إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، كانت أسرته تعمل في الدواوين منذ عصر المأمون، وكان جده سليمان من الكتّاب، وتولى الوزارة للخليفتين المهتدي والمعتمد، وتوفي سنة 272ه»، وكان من الكُتّاب المجيدين عالما فاضلا، لقي صغار التابعين، وهو من الذين يؤخذ عنهم العلم، وله ترجمة كبيرة في سير أعلام النبلاء أشاد به وبعلمه الغزير.

2.إعادة الاعتبار لابن وهب من خلال كتابه (البرهان في وجوه البيان):

أول ظهور **للبرهان في وجوه البيان** لابن وهب بعنوان (**نقد النثر**)، ونسب إلى قدامة بن جعفر، قام بنشره عبد الحميد العبادي ويرى بأن كتاب (**نقد النثر**) يعود لقدامة بن جعفر، بينما نجد طه حسين يجزم بأنّ الكتاب لكاتب شيعي، وقد ثبت فيما بعد أن الكتاب ليس لقدامة مطلقا، وإنّما في الغالب لشيعي ظاهر التشيع[1]، من هنا ندرك أن هذا الكتاب سيكون له شأن في مقارعة بلاغة الجاحظ عموماً.

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح كيف كان تصور ابن وهب للبيان عموماً ؟ وللبيان الجاحظي خصوصا ؟ وكيف كانت قراءته للجاحظ ؟

والناظر في عتبة الكتاب لابن وهب يتضح له بوضوح أنه مخصص للبيان وليس لنقد النثر كما كان يصور له سابقا، يقول ابن وهب في مقدمته: «أما بعد فإنك كنت ذكرت لي وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سماه كتاب (**البيان والتبيين**) وإنك وجدت إنما ذكر فيه أخباراً منتحلة، وخطباً منتخبة، ولم يأت فيه

[1]- ينظر: طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، مقدمة: البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر.

بوظائف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان، فكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب إليه، وسألتني أن أذكر أقسام البيان»[1].

وللإجابة عن هذه التساؤلات نحاول طرق البيان عند ابن وهب مستعيناً بقراءة محمد العمري الذي له الفضل في استرجاع مكانة ابن وهب، في مقابلة للجاحظ والنيل منه، كيف لا وهو الذي جعله مركزاً للبلاغة العربية في كتابه (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)، كما أنّ حيثيات البحث التي تحيلنا للخلفيات التي بنا على إثرها ابن وهب الكاتب تصوره للبيان، وما هي المرجعيات التي اتكأ عليها في بحثه، «مع العلم أن مؤلف كتاب البرهان تناول الدرس البياني بعدما عرف مصطلح البيان الدقّة في الطرح العلمي بداية القرن الثالث الهجري، بدءاً بالشافعي الذي نزع فيه البيان نزعة أصولية، وانتهاء بالجاحظ الذي نزع في النزعة البلاغية، ويتبعهما ابن وهب الكاتب بأثره الكبير في مراجعة مشروع البيان والانتقال به من حالة في (**البيان والتبيين**) إلى حالة أخرى»[2].

من الواضح أنّ ابن وهب يرى في كتاب (**البيان والتبيين**)، نقصاً ندب نفسه لتداركه بتصنيفه هذا الكتاب، الذي كانت تسميته الأصلية، فيما يرجح محققه، (**كتاب البيان**) بما يؤكد أن المؤلف قصد به إلى معارضة كتاب الجاحظ مضموناً وتسميةً.

يرى الباحث حمادي صمود قراءة بن وهب -لمنجز الجاحظ (**البيان والتبيين**)- قراءة شاذة، يقول صمود: «فالمؤلف المتأخر يحاول أن يجد مطعناً على المتقدم حتى يقنع بضرورة كتابه وإلاّ فإنّه على اختلاف المقاصد من التأليف، قد انساق وراء الجاحظ وقسّم وجوه البيان قسمته، وأكثرَ من النقل

---

[1]- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص:49-51.

[2]- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط:8، بيروت، 2007، ج:2، ص:31.

عنه»[1]، ولا نعرف لماذا يطعن ابن وهب صراحة في الجاحظ، بالرغم من رجوعه إليه في كثير من القضايا البلاغية المختلفة.

ويضيف أيضاً في قضية جناية ابن وهب على الجاحظ: «ثم حتى هذا التحامل فإنّه يدل دلالة تاريخية ذات قيمة مفادها أن كتاب الجاحظ هو الكتاب الوحيد المختص بهذا الموضوع، أن له من الخصائص ما حجب كل المحاولات الأخرى -إن وجدت - مما يؤكد دور الجاحظ ومكانته في تاريخ التأليف البلاغي»[2].

وهنا نجد حمادي صمود يتوافق مع العسكري في **(الصناعتين)**، يقول العسكري: «وكان أكبرها وأشهرها كتاب **(البيان والتبيين)** لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كبير الفوائد، جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة والخطب الرائعة، والأخبار البارعة وما حواه من أسماء الخطباء، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه الممتازة ونعوته المستحسنة»[3]، وهذا الذي عليه أكثر الباحثين في رؤيتهم لبلاغة الجاحظ، كما سنرى لاحقاً في قراءة المعاصرين.

3. البيان بين ابن وهب والجاحظ:

الناظر في **(البيان والتبيين)** يلاحظ أن الجاحظ ابتدأ كتابه بعيوب الكلام وآفات اللسان، وأسباب العي، بينما خصّص ابن وهب مقدمة كتابه للعقل منوهاً بهذه الملكة، مشيداً بأسرار العقل، محاولاً إعطاء المتلقي المكتسب منه من الغريزي، وهنا نجد ابن وهب يضطر لتعديل خطاطة البيان التي رسمها الجاحظ لتتلاءم مع المحتوى الذي رصده له.

يقول محمد العمري: «الجاحظ كان ينظر لموهبة العربي للفصاحة التي هي صفة مميزة للإنسان العربي الأعرابي، وهذا سر حديثه عن أنواع العيوب

---

[1]- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص:16-17.

[2]- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص:17.

[3]- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، ط:2، القاهرة، 1971، ص:10-11.

النطقية التي تفسد نطق غير العربي ومن هنا احتفاله بالبيان العربي المتجلي في الخطابة، فهي نموذج الكمال في الحديث الشفوي»[1].

3. ابن وهب والبيان:

استفاد ابن وهب من تعريف الإمام الشافعي للبيان (والبيان اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول متشعبة الفروع)، الذي قفز به في الفكر العربي الإسلامي -آنذاك- قفزة نقلته من مستوى المواضعة اللغوية الجارية إلى مستوى المصطلح العلمي، استغل ابن وهب هذا المفهوم المجرد للبيان، موظفاً إياه في منهجه العلمي المنطقي، وهو يعيد صياغة البيان العربي للانتقال به في بيداغوجية التأليف عند العرب، من الطرح الموسوعي إلى الطرح العلمي الدقيق الذي تتطلبه المرحلة.

نتج عن هذه الصياغة إشراك جميع وجوه البيان التي تفطن لها علماء الأصول وتبنى بعضها الجاحظ في كتابه (**البيان والتبيين**)، لكنه سرعان ما تخلى عنها، واقتصر على وجه واحد تمثل في دلالة اللفظ، وهذا ما سعى ابن وهب في استدراكه بعد دراسته للبيان والتبيين.

هكذا تصور ابن وهب مشروعه البياني، مستغلا المنزعين المذكورين في مسألتي (الفهم والإفهام) أو (الظهور والإظهار) أو (البيان والتبيين) فاستدرك ما ضُيَق بعد اتساع، وأعاد للبيان تنوعه الوظيفي الذي انعكس بوضوح في مفهوم البلاغة ومجالاتها.

3. إعادة صياغة التراث البياني العربي عند ابن وهب الكاتب:

يعود فضل ازدهار درس البيان إلى الأطروحات التي مزجت بين الحقول المعرفية التي برزت آنذاك: الأصولية والمنطقية، وشكّلت -كما يرى الجابري- في جملتها مرجعيات ابن وهب العلمية والثقافية، جمعها ذهنه وصاغ على إثرها بياناً نتلمس فيه شرح الشافعي، زيادة على أن ابن وهب كغيره ابن بيئته، فقد عاش في زمن اشتد عود الاسلام وظهر فيه علماء كبار، كالسيرافي ويونس بن

[1]- محمد العمري، الموازنات الصوتية، في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، أفريقيا الشرق، 2001، (د ط)، ص:71.

متى، والوزير ابن الفرات، هذا الجو السائد آنذاك انعكس على ابن وهب وعلى مشروعه.

لقد استغل ابن وهب هذه المرجعيات استغلالاً متكاملاً، فتح له الباب لإعادة طرح موضوع البيان بصياغة أخرى وفق متطلبات المرحلة، فصاغ البيان العربي صياغة علمية جمعت بين الفهم (الأصولي) المستنبط، والإفهام (البلاغي) المنتج للخطاب وفق شروط التبليغ، فكان من نتاج هذه (النزعة العلمية) الاهتمام بمفهوم البيان اهتماماً يحرص على شروط المعرفة، والأسباب الموصلة إليها، ووسائل التبليغ والتواصل، التي تعنى بكيفية استنباط المعرفة واستثمارها في الواقع الملموس، وهذا ما تحدث عنه كل من الباحثيْن المعاصريْن: محمد عابد الجابري، ومحمد العمري، عندما طرحا أبعاد مشروع البيان عند ابن وهب ولخصها محمد العمري.

ينطلق محمد العمري من هذا التساؤل حيث يقول: «إذا نظرنا من زاوية الخطابة والبيان الخطابي فإن مشروع الجاحظ في البيان والتبيين لا يمكن أن يفهم إلاّ من خلال قراءة ابن وهب له، واستئنافه لمشروعه، فابن وهب يرى أن الجاحظ لم يقدم شيئاً يستحق الاعتبار في باب البيان»[1].

فالعمري يرى أن الجاحظ في (**البيان والتبيين**) يمثل نقلة من السؤال المعرفي إلى السؤال البلاغي، فقد تحول الجاحظ من خلال البحث في المعرفة بصفة عامة إلى بلاغة الخطاب الاقناعي، كيف نَفهم وكيف نُفهم بلاغة ممزوجة بالاعتدال، في استعمال الصور البلاغية مراعية الأحوال والمقامات، وهي تدخل كلها في (**ثقافة الخطيب**).

وهنا نستطيع القول بأن محمد العمري كان له وقفة أمام مفهومين للبيان:

1. البيان الذي ظهر عند الجاحظ في كتابه (**البيان والتبيين**)، أخفق كمشروع، وكأن العمري أراد أن يقنعنا بأن الجاحظ لم يطرح السؤال: ما الذي يجعل نصاً أحسن من نص، وهو السؤال الذي طرحه الجرجاني لاحقاً،

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:13.

والذي طرحه حمادي صمود كذلك، عندما تحدث عن البيان والتبيين، «إلاّ أن الإنجاز الفعلي بقي دون الوعي المنهجي النظري، فجاء تخطيط الكتاب صورة لهذا الذي حملناه على التقاء مفهومين للكتابة لديه: التدوين والتنظيم»[1].

2. مفهوم جزئي يتعلق بمفهوم من مفاهيم المحاكاة عند الفلاسفة العرب، أي جانب إنتاج الصورة اللغوية ذات البعد الحسي كالتشبيه والاستعارة، والتمثيل، وهو ما يعبر عنه اليوم في كثير من المؤلفات بما يقابل **image** عند الغرب.

عدّ ابن وهب (التعبير) و(النقل) من وسائل كسب المعرفة في الجزء الثاني من وجوه البيان، إذ علومهما تعد مرجعيات أساسية يأتي ترتيبها بعد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ويشكلان المصدر الهام في فهم نصوص القرآن واستنباط أحكامهما، تمثلها علوم اللسان العربي التي تحفظ المنطوق والمكتوب من الكلام، فحفظ اللسان هو حفظ العقل والقلب معا، سعي ابن وهب وراء المعرفة جعله يجتهد في تفصيل وسائل هذين البيانين (العبارة) و(الكتاب) فوقف على خصوصيات القول والكتابة في اللسان العربي[2].

عملا بالنزعة العلمية استطاع ابن وهب ولوج درس البيان بتقديم المعارف اللازمة في بعض وجوه البيان بالاستدلال والإقناع بالوسائل المنطقية والخطابية، كما ارتبط عنده وجه من الوجوه البيانية بتجويد قناة التواصل مثل الكتابة، وبهذا الشكل لم تخرج المرجعيات الأساسية التي اعتمدها ابن وهب عن دائرة المورث العربي الإسلامي الأصيل استغلها كاتب البرهان منطلقا من كتاب ثمين، عرف الصدارة في البيان العربي إنّه (**البيان والتبيين**) للجاحظ[3].

---

[1]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص:140.

[2]- https://www.marefa.org ابن وهب الكاتب، موقع معرفة، نظر يوم: 14.06.2021، الساعة: 12:38.

[3]- ينظر: هند بوسكين، مرجعيات البيان عند ابن وهب الكاتب (ت335ه) وأثرها في التفكير البياني العربي، جامعة الجزائر 02، الجزائر، العدد: 03، ديسمبر 2012، ص: 244.

وإجمالاً نستنتج أن قراءة القدماء لبلاغة الجاحظ كانت أمتن وأجود مقارنة بقراءة المعاصرين، التي كانت قراءتهم مزجت بين النظريات الغربية وبين البحوث والدراسات العربية، كما أن قراءة القدماء قد اعتنت بالجانب الفني وتبنت المعيار الأخلاقي عموما للبلاغة.

الفصل الثالث

الدِرَاسَات البَلاَغِيَة العَرَبيَة الْحَدِيثة للجَاحِظ

الدراسات العربية الحديثة لبلاغة الجاحظ

1.تمهيد:

نستطيع القول أنّ تلك المحاولات المعاصرة التي تناولت «تراثنا الأدبي بمنهجية علمية وذوقية جمالية جديدة تتجاوز الطرائق المحدودة التي عرفت في رأد نهضتنا الحديثة، وقد أسهمت هذه المحاولات الجديدة في تقدير التراث حق قدره، ومكنت لتذوقه بذائقة من يستشعر رعشة التجربة

العربية الإنسانية، ويؤمن باستمرار منطلقاتها الجوهرية»[1]، هذه الحركية المتواصلة مع هذه المناهج من طرف الدارسين العرب جعلت منها استثماراً مميزاً في بلورة هذه المناهج لدراسة الأدب العربي القديم بخاصة.

تنوعت القراءات بين (نسقيّة وسياقية) للمدوّنة الجاحظية عموماً، حيث جاءت القراءات النسقية في مشروع محمد العمري ضمن كتابه الموسوم بـ: **(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)**، وكذلك في مشروع حمادي صمود في مؤلفه المعنون بـ: (**التفكير البلاغي عند العرب**) ومحمد مشبال في كتابه: **(بلاغة النادرة)**، وإدريس بلمليح في مؤلفه: **(الرؤية البيانية)**، وغيرهم من الذين سنتطرق إليهم بالتفصيل، وسنحاول تشريح هذه القراءات التي حاولت استنطاق نصوص الجاحظ من زاوية البلاغة كما سبق.

أما القراءات السياقية هي التي اعتنت بالتأريخ التحقيبي للبلاغة العربية، ومن أبرزها قراءة شوقي ضيف في كتابه الموسوم بـ: (**البلاغة تطور وتاريخ**)، وشارل بلاّ في كتابه: (**الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء**)، وكذلك (**الوسط البصري ودوره في تكوين الجاحظ**)، هذه المؤلفات اهتمت بتدوين البيئات المتصلة بالجاحظ وبكتاباته، وهناك قراءات اتخذت المنهج الغربي سبيلا لذلك، فنجد مقاربة عبد العزيز حمودة في: **(المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية)**، وحمادي صمود في: (**التفكير البلاغي عند العرب**) الذي دخل معترك التراث الجاحظي بمنظور حداثي لساني، وكذلك مقاربات أخرى غلب عليها

---

[1]- إحسان كرسيس، مدخل إلى الأدب الجاهلي، ص: 16.

طابع الاستدراج وتوظيف لمقولات الجاحظ، مثل قراءة محمد كرد علي المسماة بـ: **(أمراء البيان).**

وقد اعتمدنا ترتيب الدارسين حسب القيمة الإنتاجية وتاريخها، حيث كانت قراءة شارل بلاّ سابقة لكل الدراسات الموازية التي وصلت إليها أيدينا.

شارل بلاّ والقراءة التصويرية

1.تمهيد:

لتسليط الضوء على مقاربة المستشرق شارل بلاّ **chl. Pellat** للتراث البلاغي للجاحظ، لابد من التركيز على قراءته، لأن فضله عظيم في تقديم رؤية تصويرية شاملة في ربط البيئة بالإبداع، سنحاول الوصول إلى هذه المقاربة وفق التساؤلات التالية: ما هي خصوصيات هذه القراءة ؟ وكيف كانت قراءة شارل بلاّ لبلاغة الجاحظ خاصة ؟

للوصول إلى إجابات محتملة ومقاربات تلامس موضوع الدراسة، انطلقنا من هذه التساؤلات، بالإضافة إلى فرضية مفادها أن شارل بلاّ قرأ المدوّنة التراثية للجاحظ متخذاً منهجاً نقدياً شاملاً، وهذا العموم يجعلنا نغوص أكثر في تفاصيل هذه الرؤية.

يمثل شارل بلاّ **chl. Pellat**، وطه الحاجري، وجميل جبر، وفاروق سعد، وشفيق جبري، بالاتجاه البيئي في قراءة أدب الجاحظ، بحيث كانت قراءتهم تتوجه وتسعى «إلى ربط إنتاجه الأدبي بمختلف البيئات التي عايشها الجاحظ، البيئة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والعقدية، والدينية، وكأنهم كانوا يتصورون الأدب مرآة عاكسة لكل ما كان يجري في هذه البيئات»[1]، واهتمام بلاّ **chl. Pellat** بالجاحظ جعله سبّاقا في كشف كل ما أحاط بأدب أبي عثمان، كما يعتبر المستشرق الأول الذي كانت له دراسات مهمّة في مجال البحوث الأدبيّة.

ومشروع كتابه يعد مشروعاً متكامل البنيان خاصة ما جاء في مؤلفه الموسوم بـ: (**الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء**)، وكذلك (**الوسط البصري**

[1]- عبد الواحد التهامي، أنماط تلقي السرد في التراث النقدي دراسة في أدب الجاحظ، ص:35.

ودوره في تكوين الجاحظ)، فكان الجاحظ ملهماً لبلاّ، هذا الأخير عرض في كتاباته لحياة الجاحظ وأدبه بتفصيل رائع ، «فشارل بلاّ من هذه الجهة أستاذ مختص بكل ما له صلة بالجاحظ وتراثه»[1]، وقد ترجمه الدكتور إبراهيم الكيلاني إلى اللغة العربية، وقدم خدمة جليلة للتراث العربي وقد نقل بلاّ **chl. Pellat** بيئة البصرة وبغداد وسامراء في هذا الكتاب.

في البداية يعترف بلاّ **chl. Pellat** بقدرات الجاحظ النثرية وكذلك ما تميز به عن سابقيه ولاحقيه في هذا الفن، وها هو يقول بكل وضوح: «ليس هناك كاتب معاصر أو لاحق يشبه الجاحظ»[2]، وهذا الذي عُرف به الجاحظ من خلال مسيرته التأليفية التي خاضها طوال حياته.

قد كانت أولوية الجاحظ في مؤلفاته التركيز على القارئ، من خلال محاصرة المتلقي ووضعه في أحسن رواق ليشاركه فنيات نثره المتداخلة، «وقد استطاع مع ذلك في كثير من مؤلفاته أن يحتفظ باهتمام القارئ إلى حد يجعل جميع آثاره تقرأ بلذة، على الرغم من الإعادات -التي حاول تجنبها- وعلى الرغم من فقدان النهج المنطقي وتسلسل الأفكار والاستطرادات التي لا تحصى والتي تعطي أسلوبه طابعه وطعمه الخاصين»[3]، ومع كل هذا الاهتمام بالقارئ أو المتلقي نجد الجاحظ يُكثر من الاستطرادات، وهذا ما عبّر عنه بلاّ **chl. Pellat** بفقدان النهج المنطقي.

هذا الاستطراد في مؤلفات الجاحظ هو بكل تأكيد يدل على أسلوب خاص تميز به كما يقول بلاّ **chl. Pellat**، حتى أنّنا نجد محمد العمري في كتابه (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**) قد تحدث عن الاستطرادات الموجودة في مؤلفات الجاحظ، وها هو يقول: «لهذا فقد بدا كتاب **البيان والتبيين** لكثير من الدارسين مجموعة من المعارف المحصّلة نتيجة الاستطرادات، أي أنه ليس ذا استراتيجية محددة ومضبوطة، ومن هنا وجد فيه كل متحدث مجالا للقول»[4]،

---

[1]- محمد محمود أحمد الدروبي، آثار الجاحظ دراسة توثيقية، مذكرة ماجستير، كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية، 1994، ص:25.

[2]- شارل بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، المؤسسة الثقافية للنشر والتوزيع سوريا، 1961، ص:2.

[3]- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص:4.

[4]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:189.

فعدم ضبطه وقصر استراتيجيته كان نتيجة الاستطراد الذي عُرف به الجاحظ، ولهذا استطاع النقاد إيجاد الفجوات للدخول إلى تلك المعارف «من الزاوية التي تشغل باله وتخدم اختصاصه، أو يختزله في مجموعة من المصطلحات النقدية والبلاغية التي لا يربط بينها تصور نظري أو استراتيجية»[1]، هذه المؤاخذات التي طالت مؤلفاته خاصة (**البيان والتبيين**) تحيلنا إلى أكثر من تساؤل، مثل الإجحاف الذي صدر من كثير من النقّاد، خاصة المعاصرين تجاه مؤلفات الجاحظ، وهو دليل على أن الجاحظ تعرض للإهمال والتقصير كثيراً وهي منقصة في حق (**البيان والتبيين**) الذي قيل فيه أنه مجرد مختارات لا غير، فقول محمد العمري يعطينا إشارات واضحة تدل على اختلاف النقاد حول الكتاب.

والسؤال المطروح لماذا صحبت مؤلفات الجاحظ هذه الضجّة من التساؤلات؟ وهل النظر من زاوية واحدة من زوايا كتاباته يُعد حكماً صائبا؟ يقول بلاّ **chl. Pellat**: «ويجب علينا كي نحكم على الجاحظ بصورة مجردة ومعقولة ألاّ نمر عليه بصورة سطحية وألاّ ننظر إليه من خلال الكتب المسلية، التي برز من خلالها الجاحظ، وصورة الجاحظ العادية أبعد من أن تكون صورة الكاتب الإنسي»[2]، فصورة الجاحظ الإنسي تتقاطع مع صورته الساخرة، وتتعدد الصوّر في كتاباته، وفي هذا المقام يوصي وهو من العارفين بأبي عثمان من خلال تتبعه له في كل المراحل التي مر بها من البصرة وبغداد إلى سامراء.

وفي هذا المقام يرى بلاّ **chl. Pellat** أن من العوائق التي جعلت آثار الجاحظ تتعسر على القارئ، لأنها تتطلب شروحات متعددة، وتمحيصاً خاصاً، كما يرى أنّ من أهم الأسباب التي أعاقت فهمه عند الدارسين «هو أنه يستعمل اصطلاحات تجهلها المعاجم، ويرمز إلى أمور يغيب عنّا معناها العميق، ويمكننا ولا ريب تعميم هذا القول على كثيرين من كتّاب العرب، ويبدو أنّ في آثار الجاحظ التي تتطلب أحيانا شروحا من المعاصرين، غموضا استثنائيا بالنسبة لنا»[3]، أما بعض المصطلحات الموجودة في مؤلفات الجاحظ فهي

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 190.
[2]- بيلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص:5.
[3]- بيلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص: 8.

مفقودة في المعاجم، وهذا يتطلب من الباحثين جهودا كبيرة حتى تغيب تلك النظرة السطحية لكتبه، هذا ما جعل الكثير من النقاد :«يتصورون الجاحظ تصورا غير ملائم»[1]، و هو السبب نفسه الذي جعل كثيراً من المتأخرين يطعنون في أبي عثمان ويغمزونه ويلمزونه، كما حيك حوله الكثير من القصص والخرافات حول جنسه ونسبه.

تحدث كذلك عن تأثير البيئة في شخصية المؤلف، هذا التأثر لا يكون من فراغ بل هو شكل من الأشكال التي «لا تعدو أن تكون إشارات عامة متفرقة، إلى تأثر الإنسان بالبيئة الجغرافية التي يعيش وسطها، لكنها في نفس الوقت إشارات تتميز بطابع العمق والتركيز ووضوح الفكرة أو الأفكار في ذهن صاحبها»[2]، فالبيئة الجغرافية لها تأثير كبير في من هو ساكن بين أحضانها

فالتفاوت في الأقاليم التي سكنها الجاحظ مكّنته من فهم ما يدور حوله، وهذا الذي يذهب إليه إدريس بلمليح كذلك فيما يسمى **الجغرافيا البشرية** حيث يقول: «نعتقد مع شارل بلاّ بأن الجاحظ كشف عن قوانين في الجغرافية البشرية، أو أنه عالم من علمائها المتقدمين، بكل ما تعنيه كلمة عالم من دقة في البحث وإلمام تام بالموضوع»[3]، فهو يعترف بأن بلاّ **chl. Pellat** أقرّ للجاحظ سبقه في استكشاف الجغرافيا البشرية وأنه عالم من علمائها، ولابد أن نوضح بعض ما هو غامض وخفي في مؤلفات الجاحظ مثل كتابه: (**مناقب الترك وكتاب التاج في أخلاق الملوك)** وغيرها من العناوين التي تحمل عدة تأويلات في عناوينها، وهي تعكس الوضع السياسي السائد آنذاك.

كما يرى بلاّ **chl. Pellat** أن «هناك عوامل خفية وأسبابا عميقة لا تخلو من علاقة بالوضع السياسي القائم في الزمن الذي ألف فيه هذا الكتاب»[4]، ومن المعروف أن الجاحظ عاصر اثني عشراً من خلفاء بني العباس، كما عرفت هذه الفترة تطوراً وازدهاراً في كل المجالات وامتدت الخلافة إلى أطراف الدنيا وبسطت جناحيها على بلاد فارس والهند والصين، ومن الحجاز إلى شمال

---

[1]- مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، عالم المعرفة، سلسلة كتب شهرية ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1990، عدد:218، ص:14.

[2]- إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص: 39.

[3]- المرجع نفسه، ص: 40.

[4]- بلاّت، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص:8- 9.

إفريقيا، كل هذه المحطات شكّلت نسيجاً جديداً في الثقافة الإسلامية، هذه الثقافة الجديدة أسهمت في بلورة ميلاد أدب جديد مختلف عما ألفه العرب من قبل، أثرى قلم الجاحظ ونمّاه.

هذا النسيج الثقافي كان له أثر في أدب الجاحظ، «ونجد في أحوال أخرى الهدف السياسي أكثر وضوحاً وبخاصة في رسالة (**مناقب الترك**) ويجب علينا في هذه الأحوال عدم التعميم والمبالغة في القياس، ومن الجائز أن نتبين في أغلب مؤلفات الجاحظ سببا آخر يتعدى الميل البسيط إلى إظهار أفكاره، وتظهر هذه الخاصية حتى في كتبه التافهة»[1]، وفي خضّم هذه الخصومات السياسية والثقافية نجد الجاحظ يُبعد الشبهة عن كتبه وعن شخصه، وذلك باصطناع شخصيات وهمية يتكلم باسمها.

كما أنه ذكر مناقب الترك في كتاباته، وهذه لها أكثر من دلالة على وجود «التنازع الذي شغل الجاحظ في أماكن كثيرة، لقد جعل الجاحظ الخصومة أو الوفاق الخصم الأكبر من أن يكون ظاهرة موضعية»[2]، فما كان يدور في بيئة الجاحظ هي حاضنة للخصومات والمتناقضات، بيئة تعكس تلك التحالفات بين أصحاب السياسة، وشيوخ الفرق المختلفة من جهمية ومعتزلة وخوارج وشعوبية.

وقد صدق بلاّ **chl. Pellat** حين قال: إن هذا الجو المختلط، يحمل الكثير من القسوة والغموض، وهو ما يتفق مع ما قاله مصطفى ناصف: «قرأنا نماذج الجاحظ وتعليقاته الواضحة حينا والغامضة حينا»[3]، فهو يحب تجريب الحرية -وحريته على وجه الخصوص- في كتاباته، فالحرية ملازمة له وبطواعية يجرها خلفه.

الحرية بالنسبة للجاحظ هي كالماء للسمك، هي بالنسبة له كاستنشاقٍ لنسيمِ الصباح، هي تعبير عن عقيدة اعتزالية ترى في الحرية مصدراً من مصادرها وأصولها، وإعطاء الحرية للعقل ليسبح بعيداً، «كان الجاحظ يجرب فكرة

---

[1]- المرجع نفسه، ص:9.
[2]- المرجع نفسه، ص:28.
[3]- مصطفى ناصف، محاورات في النثر العربي، ص: 20.

الحرية دائما، وفي ظل هذه الفكرة يمكن أن نقبل مفارقات الجاحظ الملهمة»[1]، هذا الجانب الخفي في كتابات الجاحظ يحمل من المفارقات الكثير، جعلت منه ملهماً من عالم آخر، أو معلم عقل وأدب، حاول مصطفى ناصف سلوك مملكة الجاحظ عن طريق استنطاق نثره وبلاغته، وهو ما تميزت به كتابات مصطفى ناصف.

كان لابد من إجراء دراسة دقيقة لعناوين كتب الجاحظ وقراءة دلالاتها وتفكيكها «وعلينا أن نسيء الظن بالعناوين، لأن بعضها نقل إلينا بواسطة كتب التراجم للمتأخرين المشكوك فيهم، كما أن بعض العناوين لا يتناسب ومضمون الكتاب الحقيقي، وأن استعداد المحامي البارع للدفاع عن قضيتين متناقضتين، ونزعة الكاتب البديعي لمعالجة مذاهب رائجة في البصرة كما كانت الحال في اليونان، كل هذا يكفي لتعليل هذا التحول عند الجاحظ»[2]، فعناوين أبي عثمان تحمل نوعا من التضليل والتخفي، فكتاب **(الحيوان)** هو عنوان كتاب ألفه الجاحظ وتأليفه ربما كان لأسباب تعكس ما في العنوان، وهذه الجزئية -التخفي- التي نجح ناصف في كشفها.

فالجاحظ كان بين تيارين كبيرين يجذبانه كل واحد يريد استقطابه، تيار ديني جارف حاول الاستفادة من الجاحظ، الذي ينتمي كما هو معروف للمعتزلة، التي عمّرت كثيراً وقويت شوكتها بوقوف الخلافة إلى جانبها وقضت على كل مناوئيها، والتيار الآخر الذي أرهقه كذلك هو الشعوبية، الذي كان يقف لهم بالمرصاد «ويظهر أن الجاحظ كان مسوقا في حياته الطويلة - مع احتفاظه باستقلاله الفكري- إلى إرضاء فئات من الأسياد»[3]، فبالرغم من عدم تأثره بما يجري حوله إلاّ أنه كان تابعاً لأشرافها، وكان صاحب فرقة تسمى الجاحظية نسبة إليه، وهو بدوره جاراها ولم يخسر مكانته على الأقل في تلك المرحلة.

وهنا يتساءل بلاّ **chl. Pellat** عن الآثار الأدبية للجاحظ وإجراء تحليل عميق لعقيدته ولملاحظاته ولأسلوبه فيسأل: « هل من الملائم في الوضع الحالي للدراسات الجاحظية أن نفكر بدراسات شاملة لآثار الجاحظ الأدبية، وتحليل

1- المرجع نفسه، ص:33.
2- المرجع نفسه، ص:9.
3- مصطفى ناصف، محاورات في النثر العربي، ص:9.

أفكاره وعقيدته الاعتزالية، ونظراته وملاحظاته والحكم على طريقته في التأليف وأسلوبه وفنه وتهكمه»[1]، ومن خلال الإجابة عن هذه الأسئلة يمكن وضع مؤلفات الجاحظ في سياقها الذي أُريد لها أن تكون فيه.

كما يتعين علينا دراسة الحالة الدينية والاجتماعية والسياسية زمن الجاحظ، فلا نكتفي بالدراسة النسقّية لأدبه بل: «إننا لا نستطيع دراسة الجاحظ من (الداخل)، بل من الجائز دراسته من (الخارج) على اعتبار أن أغلب آثاره هي أبعد من أن تكون نتيجة هواية كاتب واع لمواهبه، بل هي مشروطة بحوادث ذات طبائع متنوعة، فيجب إذن التفتيش عن الفرصة والدوافع في الحالة الفكرية والاجتماعية والدينية والسياسية السائدة حينئذ، كما يجب التنقيب في ظروف حياته الخاصة التي دفعته إلى كتابة رسالة في الجد والهزل، والفارق بين العداوة والحسد، وعندها يصبح التوقيت الزمني لآثاره أمراً لا غنى عنه»[2]، فالتنقيب في حياته الخاصة يحيلنا إلى تراكمات كثيرة نحصل بها على ما نريد.

وبالرجوع إلى ما كتبه بلاّ **chl. Pellat** حول حضور النقد التاريخي الذي يمثله **لانسون** حين بحث في تأثير البيئة في الجاحظ، «والحاصل أن شارل بلاّ لم يخرج عن هذا النسق التأليفي، ففي كتابه: **(الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء)** نلمس بوضوح النقد التاريخي اللانسوني، حيث تنطلق قراءة شارل بلاّ للجاحظ - بوصفها مقاربة سياقية- من نقطة الاهتمام بما حول النص الجاحظي كالحقبة التاريخية التي عاش فيها ومالها من أثر فيه»[3]، إذن قراءة بلاّ **chl. Pellat** للجاحظ هي مقاربة سياقية بحتة وكان التركيز فيها على الحقبة التاريخية التي عاصرها الجاحظ، إذ كان تأثيرها كبيراً عليه، وهو بدوره أثر فيها بمؤلفاته الغزيرة.

كما نلحظ في قراءته «... أنها تغيب كلياً القارئ من حيث هو أداة وطرف أساسٌ في إنتاج المعنى الذي يحمله النص فهي تراهن على المعنى الواحد بدل المعنى المتعدد والمتنوع مع الاحتكام إلى السياق والظروف المحيطة بمقولات

---

[1]- المرجع نفسه، ص:10.

[2]- المرجع نفسه، ص:11.

[3]- محمد عبد البشير، الأدب العربي وإشكالات التأويل عند المستشرقين، دراسات استشراقية، العدد التاسع، خريف 2016، ص:116.

الجاحظ والتي تعد – الأصل- حسبه في إدراك القصد الجاحظي»[1]، وفي هذا السياق ندرك أن قراءة بلاّ لأدب أبي عثمان غيّبت القارئ وهو الأساس في العملية الإنتاجية للمعنى، فهذه القراءة تستند على السياق والظروف المحيطة التي نشأت فيها مقولات الجاحظ فإدراكنا لهذا يجعلنا نفهم مقاصد أبي عثمان، فبلاّ ركز على عامل البيئة والظروف التي لامست حياة الجاحظ واشتغل عليها، في حين لا نجده يهتم بالقارئ كثيرا.

من جانب آخر يرصد بلاّ **chl. Pellat** قضية الاستطراد التي خاض فيها الكثير من الدارسين، وهنا يرى محمد عبد البشير أن بلاّ ينصف الجاحظ فيبرئه من اتهامه بالتكرار والحشو فيقول : «كما يؤسّس الباحث بيلا فهماً مغايراً لمقولات الاستطراد عند الجاحظ، حيث يتصور أن التفكك والتكرار هما مصدر روعة كتب الجاحظ»[2]، فالاستطراد جمالية من جماليات أسلوب الجاحظ، وروعة مقالات الجاحظ هي في تفكك نصوصه وتكرارها كما يرى بلاّ **chl. Pellat**، كما هو الشأن في الأسلوبيات الحديثة.

لكن ليس كل استطراد جمالية فنية حيث لا بد من ألا يخرج مخرجا عشوائيا وهذا ما بينه ابن أبي الحديد: «الاستطراد، هو أن تخرج بعد تمهيد ما تريد أن تمهده إلى الأمر الذي تريد ذكره، فتذكره وكأنك غير قاصده بالذات، بل قد حصل ووقع ذكره بالعرض من غير قصد، ثم تدعه وتتركه وتعود إلى الأمر الذي كنت في تمهيده كالمقبل عليه وكالملغي لما استطردت بذكره»[3]، هذا الخروج والدخول عبر منعطفات ضيقة ووعرة وصعبة، هي التي تعجب الجاحظ بحيث تجعله يكتب ولا يمل واشتهر بها، وبيلا **chl. Pellat** بدوره يحتضن هذا الاستطراد من الجاحظ، ويعطي نصيحة للدارسين بصفة عامة والمتلقي بصفة خاصة العودة لهذا الفن البلاغي.

ولعل من بحث في مسألة استطرادات الجاحظ وحررها تحريراً ماتعاً عباس أرحيلة في كتابه: **(الكتاب وصنعة التأليف عند الجاحظ)** فقد خصّص مبحثا أسماه بـ: **(هل هناك فوضى في آثار الجاحظ)؟** يقول: «بالرغم مما قدّمه

---

[1]- المرجع نفسه، ص:118 .

[2]- المرجع نفسه، ص:118

[3]- سيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، طهران ج:1، ط:1، 1968م، ص:228.

الجاحظ من نظرات منهجية في قضايا التأليف، إلاّ أن الباحثين افتقدوا تلك الروح المنهجية في آثاره، واتهموه بالاستطراد في آثار الجاحظ، فهذا أبو هلال العسكري (395ه) ‹يلاحظ أن أقسام البيان، في كتاب البيان والتبيين مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه فهي ضلّةٌ بين الأمثلة، لا توجد إلاّ بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير›»[1].

ثم يورد قولاً آخر لأحمد أمين الذي راهن على سوء التنظيم وكثرة الفوضى فنجده يحمّل الجاحظ مسؤولية ما حدث من فوضى في كتب الأدب العربي فيقول: «والحق أن الجاحظ مسؤول عن الفوضى التي تسود كتب الأدب العربي، فقد جرت على منواله، وحذت حذوه، فالمبرد تلميذه تأثر به في تأليفه، والكتب التي تألفت بعده كعيون الأخبار، والعقد الفريد، فيها شيء من الترتيب والتبويب»»[2].

وفي نفس السياق نجد أحمد الشايب يصف كتابات الجاحظ بالتفكك والتشتت وغياب وحدة فكرية أو نسق موضوعي، ويوافقه شوقي ضيف في تلك الاستطرادات خلل في كتاباته، بينما رأى آخرون في هذا الاستطراد مزية خضعت لتفسيرات نفسية وأدبية وثقافية»[3]، ومنه نستطيع القول أنّ الدارسين اختلفوا حول استطرادات الجاحظ، منهم من يراها مزية ومنهم من يراها غير ذلك، وهي اختلافات تعبر عن مقروئية مختلفة لأدب وبلاغة أبي عثمان، وهو شيء يدل على استيعاب التراث الأدبي العربي للقراءات والتحليلات المختلفة التي تحملها ثنائية (الحداثة والتراث).

وهناك اختلاف بين رؤية الجاحظ البيانية والبلاغية ورؤية المشتغلين بهذا الفن، فهم يرون ما يتعمده الجاحظ في مسلكه للكتابة استطراداً، بينما الجاحظ يعتبره سلوكاً منهجياً، يقول «وما اعتبره الناس استطراداً، كان عند الجاحظ منهجا في التأليف، جاء نتيجة تنوع معارفه، وسعة ثقافته، ونتيجة ما يجده من لذة في تنويع المادة واستقصاء جوانبها والبحث عن غرائبها ودقائقها، فهو يبدو

---

[1]- عباس أرحيلة، الكتاب وصنعة التأليف عند الجاحظ، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية قطاع الشؤون الثقافية، إدارة الثقافة الإسلامية، الكويت، الإصدار 70، أكتوبر، 2013، ط:01، ص: 155، نقلا عن الصناعتين، ص:11.

[2]- ضحى الإسلام، أحمد أمين، ط:6، القاهرة، مكتبة النهضة، المصرية، (د.ت)، 1/292.

[3]- عبد الواحد التهامي العلمي، أنماط تلقي السرد في التراث النقدي دراسة في أدب الجاحظ، ص: 24.

في بعض الأحيان كأنّما يعبث بكل تخطيط وتنظيم وتسلسل في الأفكار، وتراه يتحرك بين الأفكار بكل حرية ووعي وتحدٍ، وغايته أن يلم بالموضوع من جميع أطرافه ويرده إلى مختلف عناصره»[1]، وهو الرأي الذي أشرنا إليه سابقاً.

من الواضح أنّ بلاّ ركّز على (**البيان والتبيين**) و(**الحيوان**) ونظر في الغايات التي تحكم بنيتها، وها هو يقول: «كما أنّ النظر في كتب الجاحظ وخاصة منها (**البيان والتبيين**) و(**البخلاء**) باعتبار الغايات تتحكم في بنيتها»[2]، فالنظرة السطحية لا تكفي لقراءة تراث الجاحظ إذ لابد من فهم الغايات التي تتوقف عليها المقالات الجاحظية.

كما يرى أيضاً أنّ هناك أسباباً كثيرة أسهمت في بلورة وصياغة أدب الجاحظ، من أهمها الموروث العقلي الذي أعطاه «الذكاء الحاد الفريد من نوعه عند الجاحظ وميله الوراثي للتفكير العقلي مع أنه سعى إلى تحليل وتأكيد تأثير البصرة في فكر الجاحظ وأن عقل الجاحظ صيغ لا شعوريا انطلاقا من هذا التأثير»[3]، فقد أقرّ بلاّ بقوة الجاحظ واعترافه بقدراته العقلية، وهذا ما يؤكد لنا تأثير البيئة الحاضنة في شخصيته.

2. الاستعمال المعجمي في نصوص الجاحظ:

أمّا فيما يخص الاستعمال المعجمي في نصوص الجاحظ، نجد بلاّ **Pellat chl.** يطرح عدّة تساؤلات ولم ينس الإجابة عنها، وهي بين طيات كتابه حيث يطرح هذه الإشكالية التي تم تداولها بين الكثير من الدارسين وها هو يصرح ويقول: «ونحن اليوم إزاء مقاطع مغلقة بسدّ محكم، سواء بأضرار يصعب تعويضها، أم لأن المؤلف يستعمل اصطلاحات تجهلها المعاجم ويرمز إلى أمور يغيب عنا معناها العميق»[4]، ففي كتابات الجاحظ نجد مقاطع عميقة منغلقة يصعب فهمها ويزيد تعسر إيجاد مفرداتها في المعاجم، وهو سؤال وجيه من بلاّ **chl. Pellat** عن هذه الجزئية.

هذه المفردات المنتقاة من طرف الجاحظ تدلنا دلالة واضحة على اعتناء «الجاحظ لفصاحة الكلم والتعبير الفني قد دفعاه إلى تكديس الاستشهادات سواء

---

[1]- عباس أرحيلة، الكتاب وصنعة التأليف عند الجاحظ، ص: 163.
[2]- محمد عبد البشير، الأدب العربي وإشكالات التأويل عند المستشرقين، ص: 118.
[3]- محمد عبد البشير، الأدب العربي وإشكالات التأويل عند المستشرقين، ص: 122، وما بعدها.
[4]- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص:08.

منها المستعارة من التراث العربي، المكتوب منه والشفهي، أم من مذكراته الخاصة، ولكن ولعه بالخطباء المصاقع يظهر بوضوح في كتاب البيان والتبيين الذي أراد أن يجعل منه مجموعة للبيان العربي منذ عصور الجاهلية، وقد استمد عند تأليف هذا الكتاب جزءا من معلوماته من خارج البصرة، واستعان عدة مرات بمصادر مكتوبة كآثار أبي الحسن المداييني »[1]، وبالتالي **فالبيان والتبيين** هو مجموعة من مختارات البيان العربي أشعاراً وخطباً بداية من العصر الجاهلي.

كما أنّ كتاب (**البيان والتبيين**) بدأه الجاحظ بالاستعاذة بالله من الحصر والعي، وبيان محاسن الكلام والبيان، كما عدّد محاسن الخطيب والبليغ «ويذكر الجاحظ دون تمييز كلمات الخطيب والبليغ والبيّن، وصاحب البيان للدلالة على الشخص الذي ألف جملاً بليغة، أو روى قصصاً بصورة فنية، أو خطبة بليغة، وقد استعمل كلمة خطيب للدلالة على خطيب المساجد»[2]، وهذه الشروط التي أوردها يجب أن تتوفر في الخطيب.

ولأهمية الخطابة أوردها الجاحظ، لما فيها من فصاحة وبلاغة عالية، وقد عرف العرب عدة خطب واشتهرت تلك المرحلة بعدد من الخطباء الأفذاذ الذين كانت لهم بصمة حتى زمننا هذا، وخطبهم مبثوثة في كتب الأدب ولعل خطبة ‹البتراء› أصح هذه الخطب، وقد رواها الجاحظ عن أبي الحسن المداييني، ولما توفي يزيد بن معاوية صعد عبيد الله بن زياد المنبر ليبلغ الناس خبر موت يزيد وتثبيت تأميره عليهم وهي خطبة ذات قيمة في الدلالة على أخلاق الناس في ذلك الزمن وهي: ‹يا أهل البصرة، أنسبوني فو الله ما مهاجر أبي إلا إليكم، ولا مولدي إلا فيكم، وما أنا إلاّ رجل إليكم...»[3]، ولقيمتها أوردها أبي عثمان في (**البيان والتبيين**) لأنها من أوائل عيون الأدب العربي.

ولكن لما كثر الشعراء وأصبح الشعر للمكاسب والمثالب، أصبح ينظر للخطابة كنموذج راقٍ يقول بلاّ **chl. Pellat**: «فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب

1- المرجع نفسه، ص:167- 168.
2- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص: 168.
3- المرجع نفسه، ص:171.

عندهم فوق الشاعر ولذلك قال الأول: ‹الشعر أدنى مروءة السري، وأسرى مروءة الدّني»[1]، وهنا قد تخطت الخطابة الشعر، حيث أصبح الشاعر يقول شعره بمقابل فذهب بهاؤه وبريق كلماته، بينما الخطابة أصبحت في مستوى راق، واستمالت القلوب واستلهمت الهمم.

وهنا نجد بلاّ **chl. Pellat** يكرر التساؤلات حتى يتسنى له الوصول للمصادر وعلى اختلافها، «ومن المفيد جدا الوصول إلى معرفة عن طريق المصادر الموثوقة، أمّا إذا كان الجاحظ قد وقف في مجال الدراسات الألسنيّة والبلاغة الدينية أو الدنيوية عند حد الراوي الأمين، أو على العكس قد أرخى لخياله العنان؟ إنّ حل هذه المشكلة سيكون من النفاسة إلى حد يمكننا –بعد الاعتماد على أقوال الجاحظ نفسه- من تكوين فكرة عن تطور النسك ومهنة القاص والقيام بأبحاث حول البلاغة العربية»[2]، كما أنّنا نستطيع القول أن قراءة شارل بلاّ قدمت لنا مخططا شاملا مفصلا عن المعجم الدلالي الذي صاحب النثر الجاحظي خاصة ما تعلق بالخطابة، رابطا ذلك بتكوينه البيئي.

هذه الرحلة عبر البيئات العراقية المختلفة والمتباينة جعلت بلاّ **chl. Pellat** محققا محترفا في حياة وأدب الجاحظ، خاصة في البصرة التي نشأ فيها، ثم ينتقل إلى بغداد ويكتسب ثقافة وعلوما جديدة، كما أنه أشاد بدور البصرة في التأثير على حياة الجاحظ، وتأثير الوسط السياسي والفكري والديني والاجتماعي في تكوين شخصيته، وما اكتسبه من قاموس دلالي أثرى به حقل الأدب منطلقاً من رؤياه المذهبية الاعتزالية، فتحقيق غاياته الدينية وإيديولوجياته المختلفة حقق من خلالها الرصيد اللغوي المناسب، وغير مجرى سيرورة الفن والإبداع.

وبلا هنا كغيره من النقاد لم يخلو منهجه في دراسة الجاحظ من النقص، حيث نلاحظ أن:

- اعتماد كتابين من كتب الجاحظ بالدراسة والتفكيك لتحقيق أحكام نقدية شاملة أمر لا يخلو من المخاطرة فهو مدعاة لسلب الرجل حقه فالجزء لا يغني عن الكل، وقد تجاوزت مؤلفات أبي عثمان المئة.

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، 253/1.

[2]- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص: 173.

- كما تظهر الثغرة المنهجية في كونه ألغى القراءة النسقية ولو جزئيا، حيث اعتمد بيان شيء من معجم الجاحظ داخل سياق الكتابين فقط، وهو عين الغلط حيث نجد المناهج الحديثة توصي بالمقاربة الكاملة الشاملة لتحقيق المراد من النقد والفحص للإنتاج الإبداعي الأدبي العربي الخاضع للحديث من الإجراءات.

ذلك أن الكثير من رواد النسقية لا يهملون بوجه من الوجوه السياقية، والعكس تحاول السياقية الوقوف دائما على النسق مضمرا كان أم معلناً.

حسن السندوبي وأدب الجاحظ

1. **تمهيد:**

يعتبر حسن السندوبي* صاحب كتاب (**أدب الجاحظ**)، من أكبر المدافعين على أدب أبي عثمان الجاحظ، وقد استطاع تبرأته من الكثير من تلك المطاعن التي شنها عليه الكثير من الدارسين والمحققين، فقد صدر هذا الكتاب في ثلاثينيات القرن العشرين، حيث اعتنى في هذا المؤلف على «تصحيح الأحكام النقدية التي صدرت قديما حول الجاحظ»[1]، وعلى هذا الأساس بنا السندوبي قواعد كتابه على هذا الأصل، ألا وهو الدفاع عن الجاحظ وعن أدبه وبلاغته، ورد تلك المزاعم التي ما فتئت تضرب الجاحظ بشهب كثيرة ومن أماكن كثيرة.

ولتسليط الضوء على مقاربة حسن السندوبي للتراث البلاغي للجاحظ، كيف لا وهو من أوائل من دافعوا عن بلاغة أبي عثمان، وعليه سنعالج الموضوع وفق التساؤلات التالية: كيف رد على ابن قتيبة في قضية نقص ورع وضعف دين الجاحظ؟ وكيف كان رد المزاعم التي ترى بتناقض الجاحظ وازدواجه ؟ وكيف كانت ردوده حول الخلط والفوضى والاستطراد الذي اشتهر به الجاحظ؟

انطلق السندوبي من أربعة محاور كبرى في كتابه الموسوم بـ: (**أدب الجاحظ**) في محاولة منه للذود عن الجاحظ وأدب وبلاغته وقد جاءت كالتالي:

---

[1]- حسن السندوبي هو كاتب وأديب ومُحقّق مصري، صاحب كتاب أدب الجاحظ.

[2]- محمد مشبال، البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ص: 110.

- بحث تحليلي في حياة الجاحظ وسيرته.
- درس مستفيض في أدبه وعلمه وفلسفته.
- بيان خصائصه ومميزاته، ووصف مصنفاته.
- عرض نوادره وفكاهاته.

كان هذا المصنّف مرجعاً لكثير من الدارسين من بعده، حيث كان معيناً صافياً في معرفة أدب أبي عثمان، ولم تكن قراءته قراءة سطحية، بل «انطلقت من موقع اكتشاف نثر الجاحظ والدفاع عنه، قادرة في سياق أهدافها وأسئلتها المحدودة، على تقديم تفسير عميق لنصوص الجاحظ وسماتها البلاغية، لأجل ذلك وجدناه يكتفي بتعريفها أو تقريضها أو استخلاص فائدتها»[1]، فهو بحق حقق شهرة كبيرة بهذا الكتاب في تلك الحقبة التي كانت الساحة لواحد يقرب إليها أدب الجاحظ في ثوب جديد محقق ومدروس فكان بالفعل مقاربة للتراث الجاحظي.

وفي هذا الاطار نجد السندوبي يقوي كلامه ويستدل له بهذا الشاهد الذي يدلك على تضعيفه للمعاني عند الجاحظ وحملها على محمل البساطة، وها هو يقول: «**مفاخرة المسك والرماد**: ماذا عسى أن يكون في الرماد من معاني الافتخار، حتى يدل بها على المسك، وينافره ببياناتها وشواهدها؟»[2]، واستنتاجا من هذا القول يتطلب منا مزيداً من التمحيص والتحقيق، وذلك بالعودة إلى ما قاله شارل بلاّ **chl. Pellat** حول جماليات كتابات الجاحظ في هذه الزوايا الصعبة، واختياره للجمل السهلة، وبكلمات بسيطة لمسرحية ضخمة، كيف لا وهو قد صنع من الذبابة أيقونة حاكى بها معاناة قاضي البصرة المهيب من هذا الذباب الجسور.

إلاّ أنّ السندوبي في مسلك آخر نجده معجباً بأدب وبلاغة الجاحظ مدافعاً عن تنوع موضوعات وعناوين كتب الجاحظ، مدافعاً كذلك عن الذين يغمزوه في دينه من خلال أدبه، وها هو يقول: «وقد عزب الرأي عن بعضهم حينما اطلع للجاحظ على بعض هذه الكتب فغمزه في دينه، ورماه في اعتقاده ويقينه، وظنّه رجلاً متساهلاً في حقوق الله قبله، متساهلاً في أوامر ربه ونواهيه، وربما أجراه

---

[1]- محمد مشبال، البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الحجاج، ص: 117.
[2]- السندوبي، أدب الجاحظ، المطبعة الرحمانية، مصر، ط:1، 1350ه- 1931م، ص: 200.

بعض خصومه مجرى الزنادقة وأهل الإلحاد، حتى تقولوا عليه أقاويل فيما لم يخطر له ببال ولا ورد منه في خاطر»[1]، وهو بهذا القول يرد على ابن قتيبة الذي كان شديداً على الجاحظ.

وفي معرض ردوده على ابن قتيبة وعلى من نقدوا الجاحظ نجده يورد أقوالاً تبرأ الجاحظ ممن اتهمه في دينه وعقيدته مثل تأليفاته في نصرة العقيدة وإعجاز القرآن، حيث يقول: «وهو أول من وضع كتاباً أقام فيه الحجة التي لا تدفع، والبرهان الذي لا يرد، على أن نظم القرآن معجز؟ »[2]، وهنا نجد السندوبي يدافع دفاعاً مستميتاً عن الجاحظ ويورد الحجة بعد الحجة في سبيل دحر افتراءات الذين طعنوا أبي عثمان وطعنوا أدبه، وشككوا في بلاغته.

وها هو يمجد الجاحظ ويعلي من شأنه، وشأن مؤلفاته، «فاذا تناولت له أي كتاب أو أية رسالة، وأخذت في القراءة والمذاكرة والتصفح، لا تلبث أن ترى هذه الشخصية القوية مطلة عليك من خلال السطور، ومن بين حروف الكلمات، فلا تزال معها في سمر مطرب، وحديث معجب، حتى تضع الكتاب من يدك»[3]، وهنا تظهر شخصية الكاتب الساحر الذي يسحرك بأسلوبه الراقي، وكما قيل كتب الجاحظ تعلم العلم والأدب، وقد أحسن الاختيار السندوبي هنا.

ثم يضيف محمد مشبال وهو بصدد قراءته لمقاربة السندوبي لأدب الجاحظ، وفي هذا المقام نجده غير راض على السندوبي في دفاعه عن الجاحظ «حيث اكتفى بالإشادة بهذا النوع النثري دون أن يلجأ إلى تفسير الدواعي والغايات التي جعلت الجاحظ يقيم هذه المناظرات بين الأشياء والحيوانات، إن ما لفت نظر السندوبي في مناظرات الجاحظ هو قدرته على ابتداع المعاني في ما لا يحتمل إلاّ المعنى الواحد»[4]، وهو في نظر محمد مشبال منقصة بالنظر إلى ما كان يتمناه من الكتاب، بحيث نراه يورد قوله (ما لا يحتمل إلا المعنى الواحد)، في حين نحن نعلم أن أسلوب الجاحظ في الكتابة أرقى وأعلى من أنه يحتمل معنى واحد خاصة في كتبه التي تحتمل كثيراً من المتناقضات والمتشابهات، وإيراد القول وضده، كما هو معروف من طريقته في الكتابة.

---

[1] - السندوبي، أدب الجاحظ، ص: 201.
[2] - المرجع نفسه، ص: 201.
[3] - المرجع نفسه، ص: 202.
[4] - المرجع نفسه، ص: 118.

وفي ختام هذا البحث نحب أن نقدم كلمات لمحمد مشبال تعتبر قراءة وتحقيقا لمقاربة السندوبي ولكتابه، وعبر قراءتنا لما قاله نجده غير راض على السندوبي في دفاعه على الجاحظ «حيث اكتفى بالإشادة بهذا النوع النثري دون أن يلجأ إلى تفسير الدواعي والغايات التي جعلت الجاحظ يقيم هذه المناظرات بين الأشياء والحيوانات، إن ما لفت نظر السندوبي في مناظرات الجاحظ هو قدرته على ابتداع المعاني في ما لا يحتمل إلاّ المعنى الواحد»[1]، وهو في نظر محمد مشبال منقصة بالنظر إلى ما كان يتمناه من الكتاب، بحيث نراه يورد قوله (ما لا يحتمل إلا المعنى الواحد)، في حين نحن نعلم أن أسلوب الجاحظ في الكتابة أرقى وأعلى من أنه يحتمل معنى

شوقي ضيف والتأريخ للبلاغة العربية

1.تمهيد:

لقد زخرت المكتبة العربية بمؤلفات شوقي ضيف* إبّان السبعينات تأريخاً ونقداً، ويعتبر من كبار الدارسين الذين أولو عناية فائقة للتراث العربي جمعاً وتحقيقاً، ويعتبر كتابه الموسوم بـ: (**البلاغة تطور وتاريخ**) من أبرز ما كتب شوقي ضيف، والذي رصد فيه -وبمنهج تاريخي- أهم المحطات الأدبية العربية، وقد كان للجاحظ فيه النصيب الكبير من الاهتمام.

ومرحلة السرد والتحقيب التاريخي «أحسن من يمثلها في حدود اطلاعنا إن لم يكن ممثلها الوحيد: البلاغة تطور وتاريخ، للعالم الكبير شوقي ضيف الذي اعتبره مدرسة قائمة الذات، مدرسة التمهيد»[2]، وهو كتاب كغيره من الكتب التي ألفت في هذه المرحلة التي تسعى للمحافظة على التراث وإحياءه.

ولتسليط الضوء على مقاربة شوقي ضيف للتراث البلاغي، ولبلاغة الجاحظ خصوصاً، وعليه سنناقش الموضوع وفق التساؤلات التالية: هل كانت قراءة شوقي ضيف محايدة أم متعاطفة؟ وهل بالغ في تقييم منجز الجاحظ البلاغي والأدبي؟ وهل استغل آليات المنهج التاريخي للكشف عن خبايا بلاغة

[1]- السندوبي، أدب الجاحظ، ص: 118.

***- شوقي ضيف، عالم لغوي، موسوعي ومؤرخ للأدب، مصري، رئيس المجمع اللغوي بالقاهرة، صاحب عدة مؤلفات أبرزها سلسلة تاريخ الأدب العربي في عدة مجلدات، وكتب نقدية أخرى.**

[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 8.

أبي عثمان؟ وقبل الدخول في الموضوع تصورنا فرضيات قد تحيلنا إلى تصور ولو بسيط حول قراءة شوقي ضيف لبلاغة الجاحظ، منها أن المنهج التاريخي ساعد شوقي في التعريف ببلاغة الجاحظ.

يبدأ شوقي بتمهيد يعرف فيه بالجاحظ الشخص إذ قال: «لا نكاد نتقدم بعد الرُّبع الأول من القرن الثالث الهجري حتى يتجرّد معتزلي كبير – هو الجاحظ[1] المتوفى سنة 255 للهجرة – لدرس شؤون البيان والبلاغة، فيؤلف كتاب (**البيان والتبيين**) في أربع مجلدات كبار جامعا فيه ملاحظات العرب البيانية وبعض ملاحظات الأجانب، وسجّل كثيراً من ملاحظات معاصريه وخاصة المعتزلة، ونراه يطيل الوقوف عند ما أثاره بشر بن المعتمر من صفات الألفاظ والمعاني ووجوب مطابقة الكلام لسامعيه، من ذلك قوله في المطابقة وتفاوت الكلام بتفاوت من يلقى اليهم»[2]، فشوقي ضيف يرى أن الجاحظ كان متأثراً بكبار المتكلمين أمثال بشر بن المعتمر، ويفتخر في كتابه **الحيوان** بمكانة المعتزلة في المجتمع الإسلامي في العصور التي ساد فيها الاعتزال[3]، ففي نظر الجاحظ أن مكانة المتكلمين لا غبار عليها وهلكت العوام من جميع الأمم، وقد كان دفاعه عليهم كبيراً.

كان الجاحظ يحمل أصول الاعتزال، ينافح عن مشروعهم، بل ويؤسس فرقته التي اصطلح المؤرخون على تسميتها بالجاحظية، التي تتخذ من العقل رمزاً لها، وآلية من آليات التفكير لديها، وتحقيق المسائل العقدية وبيان رجاحتها وفق منظر عقلي بحت، كما سيطرت المعتزلة على شؤون الدولة ردحاً من الزمن «كما يقول زهدي جار الله في كتابه المعتزلة إنهم كفرقة منظمة بدأوا حوالي سنة 100هجرية»[4]، والجاحظ كثيراً ما مدحهم وافتخر بهم، فنجده كثيرا ما يذكر في كتابه (**الحيوان**) مكانة المعتزلة ودورهم الرائد في العالم الاسلامي،

---

[1]- بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، نقلا عن ترجمة الجاحظ معجم الأدباء 16/ 74 .
[2]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط:09، ص: 46.
[3]- يقول أحمد أمين: "كان أهم عصر في تاريخ المعتزلة من سنة 100 إلى سنة 255هـ". انظر: أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج:3، ص:90.
[4]- زهدي جار الله، المعتزلة، مطبعة مصر، القاهرة، 1947، ص:36.

وها هو يقول: «لولا مكان المتكلمين، لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة، لهلكت العوام من جميع النحل»[1].

وكان الجاحظ يسمي أصحابه المعتزلة بـ: «أشراف أهل الحكمة»[2]، وهو اعتراف منه بحكمة أصحابه، ولأهمية علم الكلام عند أبي عثمان «يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلة، والكهول العلية .. حتى يختاروا النظر فيه على التسبيح والتهليل وقراءة القرآن وطول الانتصاب في الصلاة، وحتى يزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد، وفوق كل برّ واجتهاد»[3]، هذا يدلك دلالة واضحة على اعتزاز الجاحظ بالمتكلمين في تلك المرحلة، بحيث أصبحت المعتزلة أول فرقة إسلامية تمارس الإرهاب الفكري على مخالفيها، وذلك من خلال تلك المحاكمات التي عقدتها للقائلين بغير خلق القرآن، فتم امتحان العامة بقول (القرآن مخلوق) ومن لا يقول بهذا فحكمه الإعدام، أو العقوبات الجسدية المدمية، كما وقع مع الإمام أحمد بن حنبل الذي جُلد، بل من أصحابه من مات تحت سياط العذاب.

والجاحظ لم يزغ ولم يحد عن طريق المعتزلة، والذي أحب فيه شيوخه من المعتزلة، وبقي وفياً لهم بكل اعتزاز، وها هو يقول في (**البيان والتبيين**): «إنّ كبار المتكلمين ... كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع»[4]، من هنا ندرك جلياً أن الجاحظ يقول بأن البلاغة، وعلم الكلام، كانت لهم الأسبقية في النشوء مع المعتزلة دون غيرهم، ويحكي آدم متز **Ādam mitez** أيضا في كتابه الموسوم بـ: (**الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**) عن الجاحظ قوله: «إن المتكلمين كانوا ينظرون في

---

[1]- الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، القاهرة 1966، ج4، ص:206.

[2]- محمد عمارة، الإسلام وفلسفة الحكم، ص: 245.

[3]- الجاحظ، الحيوان، ج:1، ص:216-217.

[4]- الجاحظ، البيان والتبيين، 139/1.

كل شيء، وأرادوا معرفة كل شيء»[1]، ومن هذا المبدأ وضعوا أنفسهم في المقدمة بعقلهم وإعمال الفكر.

وهنا لا يفوتنا مسألة مطابقة الكلام، وتفاوت الكلام بين المتلقين، والجاحظ بذلك يؤكد فكرة بشر بن المعتمر في المطابقة، و«لم يعن بالإيجاز مجرد قصر الألفاظ وقلة كميتها»[2]، بل لم يكتف بالإيجاز بل وصل حتى إلى أساليب الخطباء، والكتّاب والمترجمين، وقد كتب رسالة حولهم وبيّن حقده عليهم، بل صوّر لنا كيف يتاجر المترجمون في الكتابة وهم بعيدون عن الأدب.

تحدث شوقي ضيف عن بيان الجاحظ، والذي أخذ حصة الأسد من الكتاب، فقد أسهب فيه كثيراً، وأكثر من حياكة البيان في مؤلفه، ولذا نجده يكثر «في بيانه من الحديث عن جزالة الألفاظ وفخامتها ورقتها وعذوبتها وخفتها وسهولتها، ونشر ذلك في كل جوانب الكتاب، وكأنّما رأى من تتمة الكلام عن صفاتها أن يعرض لحروفها التي هي جوهرها، ملاحظا أنّ منها ما لا يقترن بعضه إلى بعض في الكلام»[3]، كما نجده تعرض لتلاقي الكلمة أيضا مع الكلمة، وذلك من خلال المنافرة التي تقع بين الحروف.

كما نجده في قضية البيان قد أفرد فصولاً له في الاحتفال بأصوات الكلام وتقطيعه من أسجاع، وفي هذا السياق تحدث شوقي ضيف عن حديث البلاغيين عن اللغز وعن الأسلوب الحكيم، وتنبه لما سمّاه البلاغيون بعده باسم الاحتراس وقد سماه إصابة المقدار يقول: وقال طرفة في المقدار وإصابته:

فسقى ديارك ـ غير مُفسدها ـ صوبُ الربيع وديمةٌ تَهمِي[4]

ثم يعرّج ضيف إلى الصور البيانية وتأويل بعض آي القرآن الكريم في (**البيان والتبيين**)، لأن فيه ردّا على مطاعن الملاحدة، وما كانوا يثيرونه من شبهات حول كلام الله تعالى، بسبب جهلهم بوجوه التعبير الأدبي في العربية، ودلالات صوره البلاغية.

---

[1]- آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده، مجلد:1، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط: 5، (د ت)، ج:1، ص:375

[2]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 48.

[3]- المرجع نفسه، ص: 50.

[4]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:55، بتصرف.

ثم يضيف شوقي ضيف في مقام إعجابه بردود الجاحظ على المخالفين، فقد عرىّ ما هم فيه من جهل ونقص، يقول شوقي ضيف في دحض شبه الملاحدة من طرف الجاحظ، «وأخذ في غير موضع يزيف مزاعم الملاحدة إزاء بعض الآيات الكريمة مبيناً نقص معرفتهم بتصاريف اللغة وضروب استعمالها... للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخر، ولها حينئذ دلالات أخر، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل»[1]، وقد انبرى لهم زمنا طويلا يرمي الملاحدة بسهام مصنفاته من الأدلة العقلية التي كانت تهدم قلاعهم يوما بعد يوم، حتى إنّه اهتم بالمجاز بحيث أدلى فيه بدلوه وأصّل له في (**الحيوان والبيان والتبيين**)، وخالف فيه ابن تيمية الذي كان يرى بأن المجاز هو حادث بعد القرون الثلاثة لم يكن معروفا قبل هذه القرون.

يرى شوقي ضيف أن الجاحظ أورد في كتبه صوراً بيانية مختلفة في فن البديع، بحيث يرى أن: «كل ما قدمناه أن الجاحظ قد ألمّ في كتاباته بالصور البيانية المختلفة وبكثير من فنون البديع»[2]، غير أنه لم يسق ذلك في تعريفات وتحديدات، فقد كان مشغولا بإيراد النماذج البلاغية، وقلما عني بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التي يقررها.

وتحدث عن البديع الذي شاع بين شعراء عصره فقال: «**والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان والراعي كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع والعتابي يذهب شعره في البديع**»[3]، فالبديع اختصت به العرب من عصور، من مرحلة الجاهلية وقد كثر في شعرهم وعرف به شعراء لهم باع في هذا الفن.

ثم يضيف شوقي ضيف أنّ «كتابات الجاحظ وملاحظاته في البيان والبلاغة معيناً لا ينفد لمدّ الأجيال التالية بكثير من قواعدها، كلٌ يستمد منها حسب قدرته ومهارته الذهنية »[4]، وقد أصاب إلى حد بعيد حينما وصف كتابات الجاحظ بالمعين الذي لا ينفذ، لأن بلاغة هذا الأخير لم تمت يوماً بل

---

[1]- المرجع نفسه، ص:55.
[2]- المرجع نفسه، ص:56.
[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، 55/4.
[4]- المصدر نفسه، ص:57.

ازدادت مقروئيته يوماً بعد يوم، وقد تناقلت كتبه الطبعة تلوى الأخرى، كالبيان والتبيين أو الحيوان أو غيرها من المؤلفات الأخرى، التي لا يستغني عليها أي قارئ، وقد استعان بكتبه باحثون كثيرون في شتى المجالات، كلٌ يأخذ منها ما يريد بحسب قدراته وامكانياته.

ويقول أيضا: «وكأنّما تحول كل ما نثره في كتاباته من شؤون البلاغة والبيان إلى ما يشبه نجوماً قطبية ثابتة، لا تزال ترسل أضواءها في أبحاث البلاغيين، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا بعد ذلك كله إنّ الجاحظ يعدّ غير منازع - مؤسس البلاغة العربية- فقد أفرد لها لأول مرة كتابه «**البيان والتبيين** ونثر فيه كثيرا من ملاحظات معاصريه، وتعمق وراء عصره، فحكى آراء العرب السابقين والتمس آراء بعض الأجانب»[1]، وبنثره أصبح نجما يهتدى به، لا تزال كتبه يقطف منها البلاغيون كل حين، أصبحت كتابات الجاحظ مصدرا ثابتا لهم كيف لا وهو كما يقول شوقي مؤسس البلاغة العربية بلا منازع.

محمد العمري والأفق البيداغوجي التأويلي لبلاغة الجاحظ

1.تمهيد:

يعتبر العمري واحداً من المحققين والنقاد الذين كانت لهم دراسات متميزة من كتب ومجلّات ورسائل جامعية اشتغلت على التراث العربي، من أبرز مؤلفاته: **تحليل الخطاب الشعري: البنية الصوتية، اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية**، تحقيقه لكتاب: **(المسلك السهل في شرح ابن سهل للإفراني)**، وبالموازاة مع هذا كانت له تحقيقات في التراث والترجمة والإشراف على دوريات مختصة في تحليل الخطاب، وبرز محمد العمري*[2] من خلال كتابه: (**البلاغة العربية أصولها**

[1]- المصدر نفسه، ص: 58.

***- هو بروفيسور مغربي، من مواليد 1945، حصل على شهادة الدراسات المعمّقة، ودبلوم الدراسات العليا ودكتوراه الدولة في الأدب العربي من جامعة محمد الخامس في الرباط، عمل كأستاذ للبلاغة وتحليل الخطاب والنقد الأدبي في كليتي الآداب بفاس والرباط، وعمل كذلك في جامعة الملك سعود بمدينة الرياض، حصل على جائزة الملك فيصل العالمية اللغة العربية**

وامتداداتها)، فقد كانت محاولة منه للكشف عن أنساقها و(**أصولها**) الأولى وصولا إلى (**امتداداتها**)، فقام بحمل ثقيل على عاتقه وذلك بمشروعه الضخم المتمثل في إعادة قراءة البلاغة العربية بآليات المناهج الجديدة.

ولتسليط الضوء على مشروع محمد العمري القرائي ولبلاغة الجاحظ، لابد من طرح أسئلة تحرك هذا البحث: ما هي الخلفيات النظرية والآليات التطبيقية التي سخّرها العمري؟، وما هي نسبة تواجد الجاحظ في مشروعه هذا ؟ وهل نجح العمري في تقديم ابن وهب على الجاحظ وما غايته في ذلك؟ وللوصول إلى إجابات محتملة حول مشروع محمد العمري انطلقنا من فرضية مفادها أن محمد العمري نجح في توظيف المناهج الغربية النسقية في كشف الغبار عن مملكة البلاغة العربية.

2. مفهوم البلاغة عند العمري:

كان همّ محمد العمري أن يؤسّس لبلاغة عامة تشمل جميع أنواع الخطابات المؤثرة، فكان التأسيس لهذه البلاغة هو حصيلة سنوات من التأليف والكدّ والتعب، وللدخول لمشروع العمري البلاغي، لابد لكي نضبط مفهوم البلاغة عند العمري ولمقاربته لبلاغة أبي عثمان، ومنه ننطلق في بحثنا هذا، فما مفهوم البلاغة عند العمري ؟

قبل الغوص في صلب الموضوع نحب أن نشير إلى قضية اختلاف تعريفات الدارسين للبلاغة، فكل واحد منهم كان له تعريف للبلاغة من زاوية معينة، وهنا نجد كيليطو عبد الفتاح يقول: «إنّنا عادة نتكلم عن البلاغة وكأنها شيء واضح المعالم معروض أمامنا ببساطة وما علينا إلاّ أن نقطف ثماره، هذا تصور ينبغي تصحيحه، ذلك أن ما يسمى بالبلاغة مغروس في غابة من المعارف والعلوم وليس من الصواب المنهجي دراسة أحد هذه العلوم بمعزل عن العلوم الأخرى»[1]، وهنا نجد محمد العمري يهتم بتحديد مفهوم البلاغة بطرح تساؤل: ما البلاغة ؟ عدة مرات في مؤلفاته.

والأدب سنة1428 هـ، الموافقة لسنة2007 م بالاشتراك مع مصطفى ناصف.

[1]- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، ط:3، 2006، ص:64.

وعن التساؤل [ما البلاغة] الذي طرحه محمد العمري، نجد الإجابة عنده كما سيأتي أيضا، ونستطيع القول أن مفهوم البلاغة يتغير بتغير البيئة والثقافة، وهذا ما جعل العمري يجتهد بالبحث في النظريات الغربية والتراث العربي ليصل لمفهوم البلاغة عموماً، وها هو يقول: «إنّ البلاغة مفهوم تاريخي، أي أنه يتغير ويتطور ساعياً لاستيعاب كل الصور والتجليات **المرصودة** عصراً بعد عصر، تلك الصور التي كرّس التاريخ استعمال البلاغة (ورافدها وفروعها، وبدائلها: فصاحة، بديع، بيان، براعة...)»[1]، وهكذا تتغير البلاغة بتغير الأزمان والأحوال، ومع تلاقي الحضارات وتداخلها يحصل هذا التغيير والتطور كما قال محمد العمري.

كان كتابه الموسوم بـ: **(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)** يرتكز على الروافد الكبرى للبلاغة العربية، وأهم المنجزات التي عرفتها مملكة البلاغة، وحاول السير وفق هذه الامتدادات والمسارات، وقد أضاف للمكتبة العربية وللقارئ العربي -بكتابه هذا- لبنة أخرى للبحث البلاغي، والذي يهمنا في مشروع محمد العمري هذا هو بلاغة الجاحظ وكيفية حضورها فيه، فقد كان تركيزه كبيراً على التنظير للعلاقة بين البلاغة والبيان عند الجاحظ خاصة في **(البيان والتبيين)**.

يبدأ العمري مشروعه بإيراد كلام لأستاذه أمجد الطرابلسي الذي يقول: «وخصّ الجاحظ في آخر حياته الأدب العربي بكتابه الثاني في الأدب: البيان والتبيين، وهو اختيارات أدبية صرف تحاول ان تتخذ صفة كتاب في البلاغة، وهو فعلا كتاب في البلاغة إلاّ انها جد فتية وغير منضبطة»[2]، كما يرى العمري أن كتاب البيان والتبيين هو مجموعة من المعارف المحصلة نتيجة الاستطرادات أي أنه ليس ذا استراتيجية محددة ومضبوطة.

ومن هنا وجد كل متحدث فيه مجالاً للقول، يتناول تلك المعارف من الزاوية التي تشغل باله وتخدم اختصاصه، أو يختزله في مجموعة من

---

[1]- محمد مشبال، البلاغة والخطاب أبحاث مهداة للدكتور محمد العمري، (البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير من الشعر إلى الخطاب- مقال لمحمد العمري منشور في الكتاب)، منشورات ضفاف- منشورات الاختلاف، الرباط، المغرب، ط:1، 1435هـ- 2014م، ص: 18.

[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، افريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص:189 نقلا عن: نقد الشعر عند العرب، ص: 59.

المصطلحات النقدية والبلاغية التي لا يربط بينها تصور نظري أو استراتيجية، فتهمل لذلك المفاهيم والمصطلحات الأساسية المولدة في الكتاب مثل (المقام) و(الخطابة)، وكثيرا ما اعتبر الجاحظ مجرد جامع لما استقر إلى حدود عصره من مصطلحات ومفاهيم نقدية وبلاغية[1].

وفي سياق متصل يرى محمد مشبال أن محمد العمري من خلال كتابه (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**) أنه مشروعه هو بحق مشروع متكامل، قد صاغ فيه مفهوم البيان الذي تبنّاه الجاحظ، فقد خاض الجاحظ معركة فكرية في (**البيان والتبيين**) بحيث جمع فيه كل المواد التي تساعد وتنمي دور الخطيب المقتدر المتصدر لمجالس الخطابة والمحاججة، «ويقدم محمد العمري لكتابي الجاحظ **البيان والتبيين** و**الحيوان** تفسيرا غير بعيد عن التفسير السابق، حيث يرى أنهما ينطويان على مشروع متكامل لصياغة مفهوم البيان [2]، إذن حجرة الأساس التي بنا عليها جهوده في الكتاب هي مادة **البيان**.

من هنا نستطيع القول أن «مقاربة الباحث العمري -انطلاقا من المنهج الذي اعتمده وصولا إلى النتائج التي توصل إليها - امتداداً لجهود الباحث حمادي صمود في هذا الطريق، وبناء يستند إلى بناءاته، ولعلنا لا نبتعد عن الصواب اذ اعتبرنا الباحث محمد العمري أحد أبرز البلاغيين العرب المعاصرين الذين أسهموا في تجديد مفهوم البلاغة وتطويره تنظيرا وانجازا»[3]، وهما قراءتان تختلفان من عدّة وجوه، سيكون لنا فيهما بحث مستقل، نتطرق إلى أبرز ما ميّز القراءتان في الفصل التطبيقي.

4. القراءة النّسقية للبلاغة العربية:

يرجع الاهتمام بالمناهج الغربية لقراءة التراث العربي إلى نخبة من الدارسين أمثال حمادي صمود ومحمد العمري وكمال أبو ديب، بعد أن ظهر القصور في الإلمام بالتراث العربي، فاتجه هؤلاء إلى البحث عن بدائل للمنهج التاريخي السردي الذي كان سائداً منذ مدّة، وهنا يرجع الفضل إلى حمادي صمود في مشروعه القرائي: (**التفكير البلاغي عند العرب**)، وقراءة محمد

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 198، بتصرف.
[2]- العمري، البلاغة العربية اصولها وامتداداتها، ص: 205.
[3]- محمد مشبال، البلاغة والسرد، ص: 205.

العمري في كتابه الموسوم بـ: (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)، هاذان الكتابان يعتبران من أهم ما ألّف تحقيقا في التراث البلاغي بآليات البنيوية واللسانية ونظريات القراءة، والسؤال الذي ينبغي أن نطرحه هنا: هل نجحت القراءة النسقية في تحديد معالم البلاغة العربية والذي عليه اهتمامنا هل نجحت في كشف اللثام عن بلاغة الجاحظ وكشف ما كان خفياً عبر الأزمان الغابرة ؟

وبالرجوع للكتلة العنوانية السابقة حول النّسق عند العمري ما المقصود بالنّسق عند العمري ؟ وما هي الآليات التي اتخذها في تحديد المسالك المتحكمة في أصول هذه البلاغة؟ وكيف تتابع منابع وروافد بلاغة الجاحظ تحديداً ؟

5. النسق عند محمد العمري:

لقد كان حضور النّسق في كتاب محمد العمري السّالف الذكر حضوراً مكثفاً بحيث استعمله كآلية بنيوية كشفية مكّنته من رصد العوامل التي تتحكم في المشاريع البلاغية، «لقد تقوى مفهوم النّسق والبنية في البحث العلمي العربي منذ البداية، عندما غلب القياس على الرواية، القياس الذي يقوم على استقراء الظواهر واستخراج نظامها الخفي الذي يترجمه الاطراد»[1]، وهنا تكمن جمالية القراءة النسقية في تحديد ما غفلت عنه الرواية وهذا ما ساعد الدارسين على الدخول لبوابة البلاغة والتراث عبر ممر النّسق الذي يسهل على الباحث ايجاد ما أهملته المناهج السياقية التي ظهر قصورها في الإلمام بكل ما تكتنزه كثير من النصوص والمدونات.

إنّ العمري يستدرج القارئ من البداية إلى النهاية، من الأصول إلى المسارات الكبرى للبلاغة العربية، بهذا جعل القارئ يمر عبر محطات متنوعة بعلماء ومحققين كانت له اليد الطولى في التأسيس لهذه البلاغة، وكل واحد له مشروع خاص، وحين يصل لمشروع الجاحظ يتوقف كثيراً، يريد أن يقول أن الجاحظ قتل مشروعه البلاغي باستبداله البلاغة بالبيان، تركيز الجاحظ على البيان أذهب بريق بلاغته، وهنا نجد العمري ومن السرعة بمكان يضع مكانه ابن وهب كمركز للبلاغة العربية وأصل ورافد من روافدها، وهو ما بينه الباحث لاحقاً حينما يصرح لنا في كتابه المعنون بـ: (**البلاغة العربية أصولها**

[1]- **محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 15.**

وامتداداتها) بأن مشروع الجاحظ أخفق كمنجز، كما أننا سنتطرق إليه بالتفصيل في الفصل التطبيقي لاحقاً.

6. استكشاف بلاغة الجاحظ من البيان والتبيين:

إنّ قراءة العمري للجاحظ تعد استثنائية بحيث استثمر في (بيان) الجاحظ، وشخّص مسائله بجهد كبير، بحيث إذا تدبرنا كتابه وجدناه متشعب هنا وهناك، من كل زاوية من زواياه يأخذك بعيداً إلى حيث يريد، ويصل معك إلى نتائج لم تكن تتوقعها، فقد فحص منجزات بلاغيين كبار وقد كان للبنيوية اللسانية دوراً كبيراً في استمرارية بحثه.

يبدأ الجاحظ ممهداً للنثر الذي سيعقده في كتابه، وبالضبط في الجزء الثالث: «**هذا أبقاك الله، الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة، والمقطعات المتخيرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة، والجوابات المنتخبة**»[1]، وهو كلام يختص بالنظرية البيانية البحتة مثل اشتراط شروطا الخطيب، والمذاكرة والجوابات وغيرها التي يحتاجها الخطيب المفوه.

ففي مقاربته هذه نجد العمري يتخذ من البعد البيداغوجي آلية لقراءة بلاغة الجاحظ، وانطلاقاً من هذه الخطاطات التي استعملها في كتابه: (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)** كمفاتيح وتلخيصات تسهّل للقارئ الوصول للمعلومة بشكل يسير ومنظّم، وفعلاً نجح في تسهيل بيان الجاحظ المعقد إلى القارئ بتلك الخطاطات والملخصات، وصرّح بذلك في بداية كتابه بأنه موجه لكثير من الأصناف من الناس.

كما كانت قراءته ذات بعد تداولي «فقد ساهم في -تقديرنا- في ربط مشروع الجاحظ باين وهب وأبي هلال العسكري، وابن سنان، كما ساهم هذا البعد أيضا في الكشف عن خلفيات المشاريع المرتبطة بالخطاب الجاحظي»[2]، وهو ما ساعده كثيرا في كشف حقيقة بيان أبي عثمان.

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 3/5.

[2]- محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة، ص: 255.

بدأ الجاحظ كتابه: (**البيان والتبيين**) بكتاب العصا مردفاً الكثير من الأقوال والشواهد «وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة، والمقطعات المتخيرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة، والجوابات المنتخبة»[1]، وهذا من صميم النظرية البيانية كما يقول محمد العمري، والكتاب لا يخرج عن ثلاث محاور: وظيفة البيان وقيمته، العملية البيانية وأدواتها، والبيان العربي.

فالبيان عند الجاحظ لا يخرج عن هذه الثلاث، فوظيفته تكمن في طبيعة البيان وقيمة البيان، وهو من خلال شرحه لطبيعة البيان في الكتاب، كما تعرّض إلى الفهم والإفهام والتأثير، وعزاه إلى قضية التأثير، بالرجوع إلى وظيفة الرموز والإشارات (الأزياء مثلا) في كتاب (**العصا**) ‹في الجزء الثالث من البيان›.

ثم ذكر مساوئ العي وذلك قبل أن يُعرّف البيان، ويبين أنواع الدلالات على المعاني، يضاف إلى ذلك الدفاع عن الخطابة وكل ما يتصل بها من وسائل إشارية، كما في باب العصا، ثم ينتقل العمري الى شرح طرفا العملية البيانية ‹الخطابية› وضمّنها أنواع الأدلة على المعاني، والمقام الخطابي (أحوال المخاطبين)، ومن أنواع الأدلة على المعاني يورد اللغة والإشارة والنصبة أو الاعتبار والخط والعقد.

ثم ينتقل محمد العمري إلى «مفهوم البيان في (البيان والتبيين) ولخصه في (المعرفة والاقناع)، والبيان معرفة وهو الوظيفة الفهمية، والبيان إقناع وهو الوظيفة الإقناعية، والبيان عند الجاحظ هو معرفة واستكشاف»[2]، إذن استطاع العمري تحديد معنى البيان بهذا التعريف وأظنه أول من تطرق لهذا وكشفه أيما اكتشاف.

وفي هذا الباب نجد أن الجاحظ يبرر لمشروعه البياني، فيقول: «مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[3]، فمدار الأمر

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج:3، ص:5، https://al-maktaba.org/book/10614/557

[2]- محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة، ص: 193.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، ص:11.

ها هنا هو الفهم والإفهام في حوار بين القائل والسامع، الرسالة التي تصل على أحسن صورة هي البيان في أحلى سياق في إيصال المعنى، وهو ما وصلت إليه النظريات الغربية.

ثم تحدث عن البيان بأنه إقناع، أو وظيفة إقناعية، وأضاف أن الجاحظ تحدث منذ مطلع الكتاب على دور البيان وأثره، ومساوئ العي، وبيّن أهمية الدور الاقناعي للكلام وما يتصل به من عناصر إقناعية غير لغوية، كما يقدم العمري مجموعة من النصوص التي تؤسس لفن الإقناع أو بلاغة الخطاب الاقناعي:

1- وسأل الله عز وجل، موسى بن عمران عليه السلام حين بعثه إلى فرعون بـ إبلاغ رسالته، والإبانة عن حجته، والإفصاح عن أدلته [1].

2- وليس، حفظك الله، مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث عن العي من إخلال الحجة، وعن الحصر من فوق درك الحاجة [2].

3- وذكر الله، عز وجل، لنبيه عليه السلام، حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام وصحة العقول، وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكران والمكر، ومن بلاغة الألسنة واللدد عند الخصومة[3].

4- ثم ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم [4].

5- كان أبو شمر إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه، وكان يقول: ليس من حق المنطق ان تستعين عليه بغيره، حتى تكلمه ابراهيم بن سيار النظام، عند أيوب بن جعفر، فاضطره بالحجة والزيادة في المسألة حتى حرك يديه وحل حبوته [5].

6- ومدح (الله) القرآن بـالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الافهام وحكمة الإبلاغ، وسماه فرقانا، كما سماه قرآنا [6].

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، ص: 7.
[2]- المصدر نفسه، ج:1، ص: 12.
[3]- المصدر نفسه، ج: 1، ص: 8.
[4]- المصدر نفسه، ج:1، ص:9.
[5]- المصدر نفسه، ج:1، ص:91.
[6]- الجاحظ البيان والتبيين، ج:1، ص:8.

ثم يقول العمري «ومن خلال عملية التراجع هذه يقدم الجاحظ تصوره لبلاغة إقناعية قائمة على الصواب اللغوي والتوسط البلاغي في حوار مع المقام، وهذا ما يهمنا بسطه الآن»[1]، ثم نجده يصف انتقال ومقايضة كلمة بيان بكلمة بلاغة، باعتبارها فهماً وإفهاماً بالوسائل اللغوية وغير اللغوية، ويشرح لنا كلمة (قايض) لأنه لم يقدّم أي بيان يرتب العلاقة بين المفهومين، كان يتحدث عن البيان باعتباره موضوعا للكتاب، ثم صار يتحدث عن البلاغة، كما أنّه لم يقم بتعريف البيان السابق تعريفا للبلاغة، بل اقترح صيغ مختلفة ترجع إلى الهند والفرس، وإلى أعلام من الثقافة العربية.

ثم يحثنا العمري عن تعليم الخطابة وتقديم صحيفة بشر بن المعتمر بديلاً للمناهج التعليمية التي تعمل على اكتساب المهارة من خلال الحفظ، وهنا يرى العمري أنّ الجاحظ يستبدل البلاغة بالخطابة، ثم ينتقل إلى مكونات الخطاب البياني من اللغة، والتي تتمثل في الصواب والاعتدال، إذ تحديد مفهوم البيان ووظيفته هو الذي يحدد البنية اللغوية المناسبة لإنجاز تلك الوظيفة، وقد انحصرت هذه الوظيفة في الفهم والإفهام في بعديه المعرفي والإقناعي، ثم ربطت الأداة بالموضع والمناسبة أي بالمقام الخطابي، وقد شرح الجاحظ الموضع وارجعه إلى أمرين:

1- أقدار المستمعين.
2- أقدار الحالات.

وهنا يقول الجاحظ «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات»[2]، وهنا نجد العمري يقول أن الجاحظ استعمل عدّة ألفاظ دالة من أهمها الطبقات في حديثه عن أقدار المستمعين، ومراعاة أقدار المتكلمين، والنحاة، والعروضيين وكذلك يفرق بين العامة والخاصة، وبين البداوة والوحشية، ولكل مقام مقال.

أمّا في حديثه عن أقدار الحالات فينصرف إلى مناسبات القول، فاختلاف المناسبات يغير المعنى، فخطب الجمع ليست كخطب الاحتفالات، وهنا يبرز دور المقام عند أبي عثمان، الذي كان له فيه مبحث، حاول العمري الاستثمار

---

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 200.
[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، 139/1.

فيه، ورأى أن زمن الجاحظ قد طغت فيه العجمة واللحن، وضعف النطق والنحو، ولهذا يرى العمري أن أهمية المقام عند الجاحظ لها أهمية كبيرة، فهو يعتني بالفهم والإقناع الخطابي[1].

في هذا الصدد نجد العمري يورد كلاماً لحمادي صمود يقول: «إنّ قلة اعتناء الجاحظ بالوجوه وتحديدها وتصنيفها قد لا يفسر بالمرحلة التاريخية التي تتنزل فيها مشاركته... وإنما بتعارضه مع أصول نظريته التي يرتبط حسبها جمال النص بسياقه، وتقاس نجاعته بنسبة موافقته للمقام والحال، ومن ثم لا يكتسب الوجه قيمة قارة من شأنها أن تدفع المؤلف إلى الاهتمام به اهتماما خاصا» [2].

ثم يتحدث العمري عن مفهوم البيان كمشروع منطقي كما جاء في أول (**البيان والتبيين**) وطوّر في (**البرهان**)، أو كنظرية بلاغية للخطاب الشفوي، كما أنجز فعلاً في (**البيان والتبيين**)، كما يقول العمري أنّ معركة الجاحظ لم تكن فنية، بين شاعر قديم وشاعر حديث، وليست همومه في حدود الفرق بين استعارة الشاعر الجاهلي واستعارة الشاعر العباسي.

ثم يضيف: إنّ معركة البيان كانت معركة فكرية حضارية، والخطابة دائما ملتبسة بالسياسة والعدالة، وفي معركة الحجاج وتكوين الخطيب كان الجاحظ يحمل هم الجمع، جمع الأفكار والملاحظات العميقة، ومعان وحجج تكون مكونا رئيسا للخطيب لمواكبة معركة الحجاج التي يخوضها مع المعتزلة، هذه المعارك الضارية كانت الصور البلاغية هي السلاح الفتاك لدى المحاج في المعارك الأدبية.

ومن المباحث المهمة في كتاب (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)، نجد المحتوى الفكري لبيان الجاحظ، الذي نوه به كثيراً، وقد رد على كل طاعن في البيان، بحيث نجده يكره صور العيّ، فقد رأى العمري أن الجاحظ تكلم كثيراً عن اللسان، وفضل الكلام على الصمت وأورد عدّة روايات تؤيد فضيلة الكلام، والعمري يرى أن دفاع الجاحظ عن اللسان وذم الصمت والعي هو بمثابة انتقال المفهوم العلمي البلاغي إلى البعد الاجتماعي.

---

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 202، بتصرف.

[2]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 305.

ويستدل العمري بالظروف التي سبقت هذا الاحتفال بالبيان، باعتباره احتجاجاً بالمعنى البلاغي والاجتماعي، ويرى بأنّ **البيان والتبيين** يمثل موقفاً حضارياً، يربط بين أفراده علاقات الاقناع بالمنطق، والاستمالة بالتعبير الاجتماعي بعدة صور، اعتماداً على رصيد من الأقوال والخطب والشعر، والحكم والأمثال، وهذا ما يترجم على الساحة المجتمعية، فيرى العمري أن بنو أمية والخوارج هم في الحقيقة تياران متناقضان يمارسان العنف السياسي والإعنات الفكري، بحيث كل يكيل للآخر بالوعد والوعيد، وهذا ظاهر بيّن في خطب الحجاج، وزياد بن أبيه، وقطري بن الفجاءة وأبي حمزة، بحيث غلب عليهم الفخر والهجاء.

هذا من جهة السياسة أمّا من طرف كبار العلماء ورجال الدّين انزاحوا إلى الصمت واعتزلوا تلك الفرق، حتى ظهر الإرجاء الذي لا يضر مع الإيمان شيء من الكبائر، فالعمل عندهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر معه معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة كما جاء في الملل والنحل[1]، كما ظهر في هذا السياق القول بالمنزلة بين المنزلتين، هذه الأخيرة يقول حولها العمري بأنها بلورت نظرية البيان والبلاغة، يقول العمري: «نظرية البيان والبلاغة باعتبارها موقفاً وسطاً بين العنف الأناني من جهة والصمت المتخاذل من جهة ثانية، فكان من الطبيعي أن يلامس الحديث التقني البلاغي المفاهيم والمواقف الاجتماعية»[2].

كما أن محمد العمري يرى أن استجابة الجاحظ للفكر الاعتزالي لهذه المطالب الحضارية قد ضمن الإشعاع لكتابه **البيان والتبيين**، إمّا من جهة مستوى الكتابة البلاغية فقد اهتمت الدراسات الحديثة به كثيراً، فهذا الكتاب لا تتوقف الدراسات حوله، زيادة على بعده القومي الذي حاول فيه الدفاع عن البيان العربي بكل شراسة.

وفي موضوع غير بعيد عن بحثنا هذا نجد العمري يتطرق إلى قضية جد مهمة تمثلت في البيان بعد الجاحظ، وهنا لا ينسى العمري فضل ابن وهب في كتابه: (**البرهان**) الذي يعتبر بحسبه مكملا لعمل الجاحظ وتصوره، حيث يقول:

---

[1]- الشهرستاني، الملل والنحل، ص: 48/1.

[2]- محمد العمري، البلاغة العربية اصولها وامتداداتها، ص: 210.

«أما بعد فإنك كنت ذكرت لي وقوفك على كتاب الجاحظ الذي سماه كتاب **البيان والتبيين**، وأنك وجدته إنما ذكر فيه أخبارا منتحلة وخطبا منتخبة ولم يأت فيه بوظائف البيان، ولا أتى على أقسامه في هذا اللسان، فكان عندما وقفت عليه غير مستحق لهذا الاسم الذي نسب إليه»[1]، بل أكثر من ذلك يراه الأفضل في قضية البيان، وهذا ما سنحاول بسط القول فيه في الفصل الرابع، حيث سيكون هناك حوار يجمع بين حمادي صمود في كتابيهما حول مسألة مركزية الجاحظ أو ابن وهب في البلاغة العربية.

وفي نهاية هذا البحث المخصص لمحمد العمري قد ألممنا بما أحاط به كتابه، وبخلاف الدارسين الذين سبق وأن درسناهم نستطيع القول أن العمري حاول استبعاد المشروع البياني للجاحظ، وتقزيمه ليضفي على مشروعه المصداقية جعل ابن وهب أساً وركيزةً للبلاغة العربية، وفي المبحث الموالي سنتطرق لحمادي صمود فهل سيكون أكثر إنصافا للجاحظ ؟

حمادي صمود والقراءة البنيوية للبلاغة

1.تمهيد:

يعتبر حمادي صمود من الذين كانت لهم اسهامات جليلة في إحياء البلاغة العربية القديمة، بحيث «يمكن اعتبار أطروحة حمادي صمود حول **التفكير البلاغي عند العرب**، التي صدرت طبعتها الأولى عن الجامعة التونسية بداية الثمانينات، من الاجتهادات التي شكلت قفزة نوعية في إعادة قراءة البلاغة العربية القديمة وفق منظورات جديدة»[2]، ومن أبرز ما جاء في مشروعه

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية اصولها وامتداداتها، ص: 211، نقلا عن البرهان ص: 49.

***- حمادي حميدة صمود (ولد في 25 يونيو 1947 في قليبية) هو جامعي وكاتب تونسي، وعضو في مؤسسة بيت الحكمة، له كتاب التفكير البلاغي عند العرب الذي نحن بصدد دراسته في متن الكتاب.**

[2]- عبد الواحد مرابط وآخرون، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة قراءات في أعمال الدكتور محمد مشبال، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط:1، ص: 4.

القرائي هذا، هو إعادة النظر في مرتكزات الدراسات السابقة للبلاغة العربية القديمة.

يعتبر حمادي صمود من «الباحثين العرب المعاصرين القلائل الذين تبنوا البلاغة بمفهومها الواسع ‹الشرقية والغربية، القديمة والمعاصرة› خيارا بحثيا في فترة السبعينات»[1]، وتعد أطروحته -هذه- قراءة في المدوّنة البلاغية العربية حتى القرن السادس الهجري من أفضل المؤلفات في هذا العقد في التأريخ لنشأة البلاغة العربية، وقد قسّمها إلى ثلاث روافد كبرى هي: البلاغة قبل الجاحظ، والحدث الجاحظي، وبعد الجاحظ.

لقد رام حمادي صمود مباشرة التفكير البلاغي العربي من منطلق التفاعل بين التراث والحداثة، وفي هذا التوجه استعان المؤلف بالمفاهيم اللسانية والنقدية الحديثة، وبفعل المزاوجة الذكية بين النظريتين التاريخية التطورية والآنية التأليفية، ربط المناقشات الخارجية بالقضايا الداخلية بتصور الجاحظ العام، وهو عمل خالف فيه صاحبه نمط الدراسات القائمة على السرد التاريخي، وتلخيص مضامين الكتب، وهنا نستطيع القول أن قراءة صمود تعتبر فتحاً جديداً في التعامل البنيوي اللساني مع التراث.

نحس مع صمود في هذا المشروع أنه ذو مستوى راق في محاورته للجاحظ ولبلاغته، حتى أنه لم يقتصر على الأحكام العامة والانطباعات الذوقية، فالكلام والصمت من المباحث التي أسهم فيها أبو عثمان بشكل كبير، وهو بالأهمية بما كان، «ولا تقتصر أهمية ما تفطن إليه الجاحظ على ما فيه من مظاهر الحداثة والمعاصرة، فقد اهتدى في وقت مبكر إلى ما يحف بظاهرة الكلام من الملابسات»[2]، بحيث كان ذا استباقات تجلت في الدراسات الحديثة.

2. المنهج والآليات في كتاب التفكير البلاغي عند العرب:

يعتبر المنهج الذي وظّفه حمادي صمود لقراءة البلاغة والنقد العربيين، من أهم الأشياء الجديدة التي أتى بها في كتابه **(التفكير البلاغي عند العرب)**، وباقي الأبحاث السابقة التي قامت بدورها في قراءة التراث العربي بلاغةً ونقدا، نخص بالذكر قراءة شوقي ضيف في كتابه (**البلاغة العربية تطور وتاريخ)**،

[1]- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط: 1، 2008، ص: 272.

[2]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 185.

وقراءتي عباس أرحيلة في كتابه (**الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين حتى القرن الثامن الهجري**)، وقراءة محمد الوالي في كتابه (**الاستعارة في محطات يونانية وغربية وعربية**).

أصبح معروفاًتميز حمادي صمود عن معاصريه، في قراءته الجديدة للبلاغة العربية، فاستعان بمناهج غربية محضة، واستثمر في المكتسبات البنيوية واللسانيات، فكان مشروعه تركيبياً يعتمد النظرة الشمولية في قراءته للتراث، هذا دون إغفال المنهج التاريخي الذي رصد به الظواهر البلاغية والنقدية والتفكير عند العرب، كالبيان والبديع والمجاز وغيرها من المباحث البلاغية.

يقول حمادي صمود: «إن المنهج في تصورنا لا يقتصر على طرائق العلماء في تأليف كتبهم وتنظيم فصول أبوابها، كما لا يتحدد بالصبغة الغالبة على دراستهم أدبية كانت أو كلامية وإنما يتجاوزوها إلى تدقيق مسالكهم في الاهتداء إلى مواطن الجودة والقبح في الكلام واستكناه المستندات النظرية والمتطلبات المبدئية التي على أساسها واجهوا مسألة القيمة الفنية وأخرجوا كتبهم»[1].

ولأهمية المنهج في توجيه القارئ واستمالته يقول: «والمؤلف على بيّنة من غزارة المادة التي يعالجها وتشعبها، حاد الوعي بضرورة ترسم منهج محكم يمكّن من إخضاعها وسوقها إلى القارئ في أبواب واضحة الفواصل متينة الروابط، إلاّ أن الإنجاز الفعلي بقي دون الوعي المنهجي النظري فجاء تخطيط الكتاب صورة لهذا الصراع الذي حملناه على التقاء مفهومين للكتابة لديه: التدوين والتنظيم»[2]، وهذا منهجه في التأليف الذي أصبح مشروعاً بحق ينتفع به المتلقي والباحث في أفنان البلاغة.

وتبعا لهذا التصور حاول الباحث رجاء عيد أن يتابع رحلة صمود، والتي كانت في تقديره شاقة مشوقة، ومن ثم فقد وقف ابتداءً على منهج صمود في كتابه قائلا: «أنه لم يلتزم بمنهجه في القسم المخصص لدراسة الجاحظ وتعليل المؤلف لذلك الخروج في كلتا المرتين يبدو غير مقنع»[3]، ففي الخروج الأول

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 480.

[2] - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 12.

[3] - رجاء عيد، مقال: مجلة فصول، ص: 234.

يكون تعليله بأن الجاحظ وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي، وقد جره ذلك لبعض الاضطرابات المنهجية.

وفي ما يخص المقاربة المنهجية للكتاب، يقدم لنا حافظ الجمالي* قراءة في مشروع حمادي صمود «وبمنطق النقد الواصف **Critique descriptive** يبيّن أن منهج صمود في مقاربته للبلاغة العربية طريف متميز»[1]، وهذا اعتراف منه بأن منهج حمادي صمود في الكتاب هو منهج دقيق توصل به إلى ما يريد الوصول إليه.

وفي كتابه **(التفكير البلاغي عند العرب)** نجده اختار **الحدث الجاحظي** في البلاغة العربية كمرجع له في تدوين معالم البلاغة، في إطار قراءة لسانية، «وصورة هذه القراءة أنّها ناقشت أفكار البلاغيين في جملة من المقولات اللسانية التي جاء بها العلم الحديث، ويبدو أن الرجل كسب هذه الثقافة اللسانية جيدا، وحاول أن يقدم قراءة جديدة لتاريخ البلاغة العربية من منطلق التفاعل مع النصوص اللغوية»[2].

نقف على نظرية متكاملة عند حمادي صمود ترى وتقدّر «أنّ الكلام وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعي فيه بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحض، جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية **extra linguistique** من روابط»[3]، وهو سبقٌ للمؤلف حيث شحن

*** - ولد حافظ الجمالي بحمص، دمشق سنة 1956، كاتب ومفكر قومي، رئيس اتحاد الكتّاب العرب، شغل منصب وزير للتربية بسوريا، له عدة مؤلفات وبحوث أكاديمية.**

[1] - ينظر: حافظ الجمالي، ملاحظات قصيرة حول كتاب التفكير البلاغي عند العرب، نقلا عن: محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ط:1، 2019، ص:240.

[2]- عثماني عمار، ملامح تجديد البلاغة العربية في كتاب البلاغة العربية قراءة أخرى لمحمد عبد المطلب، دراسة تحليلية نقدية، رسالة دكتوراه، جامعة احمد بن بلة وهران، 2015-2016، ص:20.

[3]- ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 185.

البلاغة العربية بنظريات غربية ساعدته في اكتشاف مضمرات التراث العربي القديم.

يحاول صمود كشف أسرار المادة البلاغية عند الجاحظ، وسبب خلطه للمادة اللغوية بالمادة البلاغية، و«يبدو من وجهة ألسنية عامة، أن البحث البلاغي والنظر في الأساليب نظراً يرغب عن الانطباع، ومجرد الانفعال ويروم كشف السر في جودتها، وفضل بعضها على بعض، لا يتأتى إلاّ بعد معرفة دقيقة بقواعد اللغة، والضوابط التي تتحكم في ما قد يقوم بين أقسامها من علاقات»[1]، كما أنّ توظيف الطاقات الصوتية التي تنتج عن الوظيفة الأدبية والفنية كالسجع مثلاً.

والجاحظ لم يقتصر على اللغة وحدها فقط كوسيلة للتواصل، بل عدّ العقد والإشارة، والخط، والنصبة، من وسائل التواصل أيضا، و«بدأ الجاحظ من البيان كنظرية معرفية عامة وانتهى إلى خطابية قائمة على المقام والإشارة»[2]، حتى وإن اعترف تصريحاً بأن اللغة هي أهم تلك الوسائل وأوفاها، وفي خضم هذه المباحث لا ينبغي أن نحمّل المؤلف ما لا يحتمل، فالمعاني وإن كان للباحثين فيها مقالات، بين من يرى بأهميتها، وبين العكس، مقارنة بالألفاظ بصفة عامة، وهذه هنةٌ لا يُعرف بها الجاحظ، فالألفاظ والمعاني كلها درٌر من درر الجاحظ كما بيّنه صمود.

القراءة التي تتعامل مع التراث اللغوي العربي القديم كموجود لغوي قائم الذات، باعتباره كتلة من الدوال المتراصفة، وإعادة قراءته، فقراءة صمود عرضت آراء لغوية جاحظية في محاولة منه لاستنطاق نصوصه، والوقوف على ما فيها من نظرات لسانية «لم تهتد إليها البشرية إلاّ مؤخراً بفضل ازدهار علم اللسان منذ القرن العشرين»[3]، فمقولات الجاحظ تحاكي حد التطابق مقولات الدرس اللساني الحديث، الذي يراعي البعد الاجتماعي للغة.

---

[1]- المرجع نفسه، ص:46.

[2]- محمد العمري، المحاضرة والمناظرة في التأسيس البلاغة العامة، مواجهة بين زمن الجرجاني وزمن القزويني، أفريقيا الشرق، 2017، ص:115.

[3]- عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، للنشر والتوزيع، تونس، (ب ط)، ص:31.

وتحدث الجاحظ كذلك عن عيوب النطق التالية: **العقلة واللكنة والحكلة** مستأنساً بشواهد شعرية شتى، وأضاف عيوباً أخرى **كالنحنحة والسعلة والبكيء والهياب والعي وعيّاب والضجم والفقم والروق**، وكل هذه العيوب البيانية تلتصق بشروط الخطبة، كما تحدث عن العيوب التي تصيب آلة النطق، كأهمية الثنايا وفساد الأسنان.

وقف الباحث حمادي صمود على نص الجاحظ التالي: «**وعلى قدر وضوح الدلالة والصواب الاشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور، وكان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه ويدعو إليه، ويحث عليه بذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم**»[1]، فالإفصاح وجلاء الألفاظ هو من مباحث الجاحظ البلاغية التي اشتغلت عليها النظريات الغربية اليوم.

3. مركزية الجاحظ البلاغية:

إن الناظر بغير عصبية يدرك لا محالة أن لبّ البلاغة ومركزها هو الجاحظ، وهنا يبرر صمود اختياره لهذا الأخير بقوله: «ولم نخرج عن هذا الالتزام إلاّ في القسم المخصص للجاحظ لأنه، في اعتقادنا وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي بحيث تبقى الفترات الموالية تستلهم مادته وتستحضر مقاييسه»[2]، فكل جهد بلاغي جاء بعد أبي عثمان يعتبر عالةٌ عليه، فا**لبيان والتبيين** هو مؤلف يعتبر من أصول الأدب وفنه، كما يقول إبن خلدون في المقدمة.

كما أن مؤلفاته -بفهم صمود- تعد أقدم آثار وصلتنا لها علاقة بأفانين التعبير، وهو كذلك أول مؤلف يخصص لدراسة الكلام البليغ، وضوابط المستوى الفني من اللغة، والمفهوم من هذا أنّ الباحث قد أدرك تقسيم المنظومة البلاغية العربية إلى عصور، أو إلى بيئات لغوية وكلامية، وفلسفية، وأدبية، ويكون صمود بهذا التقسيم قد فطن إلى أن الحدود الفاصلة بين هذه البيئات والعصور النقدية لم تكن حدوداً قاطعة، فهناك دائماً نقاط التداخل والتلاقي.

---

[1]- المرجع نفسه، ج:1، ص:90.

[2]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص:12.

تركزت دراسة حمادي صمود لمركزية الجاحظ في نقاط نجملها فيما يلي[1]:

أ- رأى المؤلف أن الجاحظ يمثل الحلقة الأولى لحركة ما يسمى بالنزعة الموسوعية في الفكر العربي، ويرى أنها عند الجاحظ مؤشر خلق حضاري، بينما كانت عنده غيره نذير تقهقر وانحطاط.

ب- يعرض المؤلف (**لمجموعة الرسائل**) وكتاب (**البخلاء**)، ومع اعترافه بأن المادة البلاغية قليلة

فيهما وصعبة المنال، فهي متناثرة هنا وهناك حيث لم يفردها بمؤلف خاص.

ج- يعرض لمصطلح البيان ويتوصل إلى أنه يتحمل دلالات متعددة حسب السياقات.

عبد السلام المسدي والوعي بمظاهر الأسلوب

1.تمهيد:

من القراءات الحداثية التي حاولت الاستثمار في الأسلوب لقراءة التراث، نجد عبد السلام المسدي*[2] الذي اهتم بالأسلوبية العربية في بحثه المعنون بـ: (**مع الجاحظ البيان والتبيين بين منهج التأليف ومقاييس الأسلوب، أسس تقييم**

---

[1]- رجاء عيد، مقال: التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس مشروع قراءة، عرض ومناقشة، ص:235.

[2]- عبد السلام المسدّي، مواليد 26 يناير1945، صفاقس (أكاديمي وكاتب ودبلوماسي ووزير التعليم العالي في تونس، من أهم الباحثين في مجال اللسانيات، يُعدُّ واحدا من النقاد القلائل الذين رسخت أسماؤهم في حركة النقد الأدبي ليس في تونس فقط بل في العالم العربي، فعلى مدار مسيرته الطويلة قدم عطاءً وافراً أسهم في ثراء الحركة النقدية العربية، وهو بالإضافة إلى هذا له إسهامات في العمل السياسي والدبلوماسي والأكاديمي، حيث يعمل أستاذ اللسانيات في الجامعة التونسية، كما تولى عدة مناصب سياسية من بينها توليه حقيبة التعليم في تونس.

جديدة)، كما كانت له مباحث رائدة في التنقيب عن التراث العربي القديم، حيث كانت له دراسات رصدت أهم القضايا المتصلة بالتراث، وقد استند على المنهج في قراءته لبلاغة الجاحظ خاصة في **(البيان والتبيين)**، وهذا ظاهر جلي، وواضح في دراسته الموسومة بـ **(قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون)**، فكتابه هذا يعتبر نقلة نوعية في بلورة أدب الجاحظ ومنهجه في التأليف.

وقد كانت له دراسة أخرى تعتبر دراسة غنية بما حملته، فاهتمت بالجانب المنهجي في البيان والتبيين والمعنونة بـ: (**البيان والتبيين بين منهج التأليف ومقاييس الأسلوب أسس تقييم جديد)**، وتعتبر هذه الدراسة مشروع نقد النقد كما يصرح هو بذلك.

أمّا عن سبب دراسته للجاحظ وفق المناهج المعاصرة -المنهج الأسلوبي- والجواب في نظرنا هو «إبراز ما في الفكر البلاغي الجاحظي من مظاهر الحداثة ومن قيم ومفاهيم يقدّر الباحث أنها غير بعيدة عن التصور الأسلوبي الحديث، بمعنى أن مطمح عبد السلام المسدي يتمثل في الرغبة في تجاوز نظرة الانبهار بالدرس النقدي الغربي وكذا في الحرص على إحياء التراث في ضوء معارفه وإفاداته في الدرس الأسلوبي»[1]، فغاية المسدي الرقي بالتراث عبر وصله بالمناهج الغربية، واستخراج ما فيه حداثيا، فقد انبرى له المسدي وكان جهده جهداً غنياً.

وقد تمثلت الأسلوبية في **البيان والتبيين** من خلال قضية **اختيار** اللفظ، وذلك أن الجاحظ في هذا الكتاب ركّز كثيراً على أن الخلق الفني إنّما هو عمل أو صناعة، كما أنّ العمل الأدبي –شعراً كان أو نثرا- يخضع لشرطين:

1- وعي صاحب النص بنصه.
2- طول مدة الدراسة والدربة والتنقيح، «وقال الحطيئة خير الشعر الحولي المحكّك»[2].

وكذلك تعيين مبدأ الاختيار الأسلوبي لدى الجاحظ هو يطابق البنية الداخلية للكلمة أن يحصل التطابق الدلالي بين البنية الألسنية الصوتية -والبنية الداخلية-

---

[1]- محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة، ص: 274-275.
[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، 13/2.

أي الألسنية الدلالية- بحيث يكون اقتران الدال بمدلوله اقرانا آنيا لا يفضي إلى أي انزياح زمني أو قطيعة دلالية، ويطلق عليها الأسلوبيين اليوم على هذه الظاهرة بالانتظام النوعي في صلب أجزاء الأثر، مما يطبعه بالائتلاف بين هياكل الدوال وهياكل المدلولات، وللجاحظ في ذلك تصور طريف يجسم مفهوما حركيا يتمثل في التسارع بين البنيتين: ‹لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك›، **فالاختيار** و**التأليف** اللذين سيتحدث عنهما المسدي فيما بعد في كتابات الجاحظ، ومفهوم الاختيار هنا لدى الجاحظ[1].

وعن سبب تأليف الجاحظ **للبيان والتبيين** يقول: «وللكتاب غاية لعلها هي التي حركت الجاحظ إلى تأليفه وتتمثل في الرد على الشعوبية رداً صريحاً وضمنياً في أغلب الأحيان فقصد بذلك إلى إبراز الطابع الذي انفردت به حضارة العرب فتميزوا به عن غيرهم من ذوي الحضارات الأخرى ولاسيما الفارسية منها، وما هذه السمة المميزة إلاّ البلاغة والفصاحة»[2]، هذا هو الدافع الحقيقي الذي جعل الجاحظ يؤلف هذا الكتاب بنزعة قومية قوية.

فقد اجتمع في (**البيان والتبيين**) رافدين أساسين أحدهما: «غربي وافد والآخر إسلامي وبين ذا وذاك تجد تعليقات الجاحظ واستطراداته، فالكتاب احتوى على نصوص دينية وأدبية وشعرية ونثرية فيحاول أن يصوغ لنفسه نظرية في البلاغة»[3]، وهذا الذي يقول به أيضا شوقي ضيف في (**البلاغة تطور وتاريخ**).

ينظّر المسدي (**البيان والتبيين**) فيرى أن الكتاب «بقدر ما حمل بين طياته صبغة قواعد البلاغة وإن كانت قليلة ويسيرة، بينما ما نجده من أدب وفير قد ساعد على بلورة مفهوم هذا الأخير حتى «كان حظ البيان والتبيين في إرساء قواعد علم البلاغة غير قليل فإن حظه الأوفر إنّما استقاه من كونه كتاب أدب ولا يكاد أحد من القدماء أو المحدثين – نصيرا لأبي عثمان أو خصيما عليه- يشك في شرعية هذه المنزلة الجاحظية في بلورة مفهوم –الأدب- عند العرب

---

[1]- المرجع نفسه، ص:276، بتصرف

[2]- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح الكويت، ط: 4، 1983، ص:101.

[3]- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص: 101.

حتى أصبحت شهادة ابن خلدون في ذلك رمزا لحقيقة عرفية قارة»[1]، إذا فـ**البيان والتبيين** حدّد مفهوم الأدب بمنهجه كما يقول المسدي، حتى أضحى نموذجا يحتذى به في الاستطراد والتحرر من قبضة وسلطة المواضيع.

وبنظرة أولية في (**البيان والتبيين**) يرى المسدي أنّ الجاحظ يمتلك منهج محكم وصارم «فهو فضلا عن تقسيم كتابه إلى أجزاء مقصودة الفواصل، ثم إلى أبواب صريحة الحدود، يضع لجل الفصول عناوين فيها من التجريد والشمول ما يجعلها محركا دلاليا لكل المادة في الحامل للعنوان كما في باب البيان (1-75) وكما في باب القول في المعاني الظاهرة باللفظ الموجز (1-210)»[2]، وبعد سرده لبعض المسائل التي أوردها الجاحظ حول تبويب الكتاب تقديما وتأخيرا، توصل لهذه النتائج التي مر الكلام عليها.

ونجده كذلك يصرح بأن الوعي المنهجي واضح وبشكل كبير «ويطفو هذا الوعي المنهجي على سطح التأليف فيتجاوز مادة الكتاب الواحد مما كان الجاحظ بصدد تأليفه ليصبح وعي المقارنة بمادة بعض كتبه الأخرى»[3]، وهذا يعطينا فكرة واضحة على أن الجاحظ بنى كتابه على منهج عقلاني وهو الذي يذهب إليه المسدي، فالجاحظ يشرك القارئ في سهولة الاقتناع.

كما كانت له مناقشة في آليات الإجراء ومنطلقها المعرفي في فك شيفرة التأليف لدى الجاحظ من ناحية منهج التأليف، والظواهر الأدبية التي جاءت في البيان والتبيين كالاستطرادات، والمراوحة بين الجد والهزل والتكرار، هذه المناقشة تسمح لنا بالكشف عن الظاهرة الكتابية لدى الجاحظ وحدود وعيه المنهجي، هذا من جهة وتقديم قراءة استباقية في مشروع نقد النقد من جهة أخرى.

استهل المسدي كلامه بوقوفه على أهل الكلام، حيث يقول: «إذ يبدو أن المتكلمين – والجاحظ أحد أعلامهم – قد كانوا أشد الناس عناية بخصائص الكلام البليغ لاعتمادهم على صياغة اللفظ وأفانين تصريفه في مناظراتهم

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 102.
[2]- المرجع نفسه، ص: 103.
[3]- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص: 104.

ومساجلاتهم»[1]، فانتماء الجاحظ للمعتزلة وللكلاميين بصفة خاصة جعله يسعى للتأليف بحسب البيئة التي أثرت فيه كما سبق وأن ذكرنا تأثير البيئة على أدب الجاحظ في مبحث المستشرق شارل بلاّ.

ويرى المسدي أن الجاحظ دقيق في اختيار العناوين وتناسقها وتشابكها، هذا ينمّ على وعي منهجي كبير، لا يخفى على المتلقي، ولهذا نجد المسدي يتحدث كثيرا عن قضية الوعي المنهجي لدى الجاحظ، واهتم بالأسلوب أيما اهتمام، فقد سبق وقلنا أن المسدي يرى بوعي الجاحظ الكبير -منهجيا- واستطرادات أبي عثمان كانت بعلم منه وبغرض دفين عنده، ودليله قوله: «وإنما هو واع بدوافع هذا التصنيف مما يبرز صريحا في بعض المواطن... ويطفو هذا الوعي المنهجي على سطح التأليف فيتجاوز مادة الكتاب الواحد مما كان الجاحظ بصدد تأليفه ليصبح وعي المقارنة بمادة بعض كتبه الأخرى»[2]، هذا التقديم والتأخير من طرف المؤلف –الجاحظ- هو صادر عن وعي منهجي وبتدبير مقصود.

ومع هذا يستدرك إلى ما ذهب إليه حول الدقّة المنهجية عند الجاحظ، مع وجود تداخل وتبعثر في مواضيع مؤلفاته بحيث يقول: «ومن مظاهر حدود الوعي المنهجي ما نلاحظه من تباعد ما حقه التعاقب المباشر، ومما يتسنى الاستدلال به على ذلك من إيراد الجاحظ رأيا للعتابي في البلاغة في (الصفحة 113) من الجزء الأول ثم لا يعلق عليه إلاّ في (الصفحة 121)، كل هذا يعود إلى استعصاء منهجية التأليف على الجاحظ وهو لا يستنكف من الإقرار -في بعض المواطن- بقصوره عن إدراك حدّ من التجريد يبوء التأليف المنهج العقلاني الذي يرتضيه نظريا»[3]، وبعد إيراده للمواطن التي كان للجاحظ فيها تخبط واستعصاء منهجي، تجعله بين طرحين متناقضين وقع فيهما الجاحظ كما يرى المسدي الأول تمثل في الدقة المنهجية، والثاني تخبط منهجي لم يكن له رأي فاصل فيهما.

1- المرجع نفسه، ص:101.
2- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص: 104.
3- المرجع نفسه، ص: 109- 110.

هذا ما جعله يطرح بعض الأسئلة التي يمكن أن تساعده في قراءة **البيان والتبيين** فقال: أي شيء تعزى هذه الظاهرة في كتاب (**البيان والتبيين**) أولاً، وفي مؤلفاته الأخرى ثانياً ؟ وما سبب هذا التذبذب بين المنهجية المستحكمة في التأليف، وبين المسلك الاستطرادي في مؤلفاته ؟ أليس هذا منهجاً في حد ذاته كما يرى مصطفى ناصف ؟

حتى ولو تبنى الجاحظ هذا الطرح أي حرية الكتابة، والغوص في الاستطراد، وإن استطرد – فيما استطرد – إلى الحديث عن منهجه فإنه في مقام من غلبت عليه الظاهرة وأوعزته الحيلة فيها، فانبرى يوهم بأنها مقصودة لذاتها[1]، كل هذه الأسئلة تبحث عن أجوبة قد تحيلنا إلى قراءة المسدي لبلاغة أبي عثمان.

ومن خلال هذا البحث، ومع تعدد القرّاء الذين مرت بهم حيثيات هذا البحث في طريقي، لم أجد دارساً تعمّق في نصوص الجاحظ مثل المسدي، فقد حاول أن يصل بطريقة أو أخرى إلى كيفية كتابة الجاحظ للبيان، سواء من ناحية الكتابة أو من ناحية الفكر، ونجده يستدرك ويقول: «ولكنّنا متى تقفينا نسيج نظامه الفكري، وعقدنا الوصل بين أطراف حيرته المنهجية في أبعاد عمقها وحدود غوصه عليها»[2]، فقد تتبع المسدي منهجية الجاحظ في مؤلفاته، وتوصل في الأخير إلى أن يصف منهجية مؤلفات الجاحظ بـ (الحيرة المنهجية للجاحظ).

ويعترف بأن هذه المنهجية أعمق مما يتصور، بحيث يرى اختفاء المنهج المقصود ويحل محله منهج ليس بمنهج وهو منهج مزعوم كما يصوره الجاحظ بكل هدوء وينقلك من أمر إلى أمر دون أن تشعر، ووصولا إلى التبرير الذي جعله ينتهج هذا النهج بل ويعتذر عن هذا كما في (**الحيوان**)، وفي حديثه عن المصطلحات البلاغية الواردة في (**البيان والتبيين**) وهي التي ستتبلور مع تبلور علم البلاغة عموما.

ومن تلقائية استعمال الجاحظ لهذه المصطلحات يحاول المسدي رصد دقائقها الفنية، وهذه المجموعة من المصطلحات تستقطب لفظة **بلاغة** وتلحق بها

---

[1]- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، بتصرف، ص:111.
[2]- المرجع نفسه ، ص:112.

عبارة **إبلاغ**، ثم لفظة **فصاحة** وتلحق بها عبارة **إفصاح**، كما يرى أن استعمال مصطلح ‹**البلاغة**› استعملت في كتاب (**البيان والتبيين**) 16مرة، وتفرعت إلى معان أربعة عن طريق ‹عطف التمييز› فيكون المجموع 64 مرة.

ويستخلص كذلك أنّ «مصطلح (البلاغة) محور منطقي لساني تكون فيه العبارة محمّلة شحنة عقلانية تمخض بها معنى الإقناع عامة بواسطة الأداء اللغوي... ثم من استعمالات عبارات البلاغة ما يقترن بمجال استعمال الظاهرة اللغوية استعمالا شفويا تأثيريا يصطبغ بخصائص فنية»[1]، من هنا يرى المسدي أن العقلانية كانت مؤثرة إلى حد بعيد.

ومن جانب آخر يرى المسدي أن لدلالة البلاغة في (**البيان والتبيين**) محوراً آخر هو محور تطبيقي، يدور عموماً حول تضمن الكلام لخصائص تمييزية يتحول بها من مجرد إبلاغ رسالة لسانية إلى مادة من الخلق الفني أي الصناعة، كما يقول الجاحظ وهو استعمال يتلاءم وما اختصت به العبارة عندما أرسيت قواعد البلاغة.

أما تواتر عبارة بلاغة حسب هذه المحاور المختلفة فيتحدد كما يلي عند المسدي:

- مصطلح الإبلاغ: استعمل هذا المصدر في كتاب (**البيان والتبيين**) أربع مرات.
- مصطلح الفصاحة: وردت هذه العبارة خمسة عشر مرة.
- مصطلح الإفصاح: تواترت تسع مرات في معاني متقاربة الحدود يمكن إدراجها في ثلاثة محاور رئيسية مع تجاوز بعض الدقائق الجزئية.
- معجمي صرف يفيد مجرد عملية النطق أي أن المصدر ‹إفصاح› يتطابق عندئذ مع المعنى الأول لكل من ‹بلاغة وإبلاغ وإفصاح› ‹مرتان: 22.2 بالمائة›.
- والمعنى الثاني هو المعنى الأسلوبي المميز للتعبير ويطابق المعنى الخامس للبلاغة والثاني للإبلاغ والخامس للفصاحة ‹مرتان: 2.22 بالمائة›.

---

[1]- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص: 123.

- أما المعنى الثالث فهو معنى تستقل به عبارة الإفصاح وهو فنّي دقيق يفيد التعويل على الطاقات الدلالية في اللغة أكثر من دون التعويل على طاقاتها الإيحائية فتكون العبارة في هذا السياق مقابلة لمفهوم الإضمار أو الكناية أو التضمين[1].

هذه معانٍ مختلفة، كان للمسدي تفصيل فيها من الجانب الإحصائي لعبارة ‹بلاغة› التي وردت في البيان والتبيين وهي قليلة نوعاً ما، مثل مصطلح الإبلاغ ورد أربع مرات.

ثم تكلم المسدي عن قضية الألفاظ عند الجاحظ، ومحاولة إيجاد تبريرات له فيما يخص قضية المقاييس العامة للألفاظ، وكيفية انتقاءها، «فإذا كان الجاحظ قد حاول تقنين سلم المقاييس العامة في اختيار اللفظ، وفي اختيار النظم»[2].

ويتساءل المسدي عن رأي الجاحظ في الطاقات الظاهرة اللغوية من حيث الإبلاغ بحيث يقول: «ولئن اشتمل (**البيان والتبيين**) على إشارات عديدة تبرز الطاقة الدلالية المباشرة في اللغة»[3]، كما يعترف بأنها متطابقة مع الإفصاح، أما فيما يخص طريقة الجاحظ في شرح الخصائص الأسلوبية المميزة فيرى المسدي أنها تعود لكيفية الانتقاء لدى الجاحظ.

وفي نفس السياق يلخص المسدي طريقة الجاحظ في الاشارة إلى سمات الخطاب الايحائي بتوزيعها على مستويين:

المستوى الأول: وصفي تحليلي يتفرع إلى ثلاث مجموعات من المقاييس:

أولا: كمية، كقوله:

- حسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره.
- ورب قليل يغني عن الكثير ...بل رب كلمة تغني عن خطبة ... بل ربّ كناية تربي على إفصاح.
- الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ونزه عن التكلف.
- قلة عدد الحروف مع كثرة المعاني.

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 125-127.

[2]- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص:140.

[3]- المرجع نفسه، ص:140.

ثانيا: نوعية، كقوله:

- فذكر المحذوف في موضعه والموجز والكناية والوحي باللفظ ودلالة الإشارة إلى المعنى.

ثالثا: تقييمية، كقوله:

- ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها.
- قال من هذه التي ترد إلى قليل فتقنع وليس المضمن كالمطلق.
- وإنّ قصر القول أتى على غاية كل خطيب.

والمستوى الثاني هو مستوى التجريد ومطابقة الصيغة الاصطلاحية للظواهر الأسلوبية ونموذجه لدى الجاحظ مفهوم الكناية في مقابل مفهوم الافصاح ثم التدرج إلى مفهوم الاقتضاب والايجاز[1].

وعلى الجملة، ما نجلوه من استقراء كل من المسدي عبد السلام وحمادي صمود، فرغم اتفاقهما على تنوع المضامين المستخلصة من مصطلحات البلاغة والبيان والفصاحة، نجد المسدي يؤكد وعي الجاحظ بثنائية توظيف الظاهرة اللغوية بين دلالة غايتها البث كما تتبدى في الاستعمال اللغوي العادي، ودلالة أسلوبية غايتها الخلق الفني كما تظهرها خصائص النص البنائية[2]،

---

[1]- ينظر: محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة، ص: 282-283.

[2]- المرجع نفسه، ص: 284.

***- مصطفى عبده ناصف أديب وناقد مصري، حصل على ليسانس وماجستير الآداب في اللغة العربية من كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول، كما حصل على درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة عين شمس سنة1371 هـ الموافقة لسنة1952 م، عمل كأكاديمي في جامعة عين شمس إلى أن أصبح أستاذ كرسي سنة 1385 هـ الموافق لسنة1966 م .ساهم في نشر العديد من الكتب والمقالات في المجلات الأدبية والثقافية والمؤتمرات العلمية، حصل على جائزة الملك فيصل العالمية في اللغة العربية والأدب سنة1428 هـ الموافقة لسنة2007 م بالاشتراك مع محمد العمري، كما مُنح نوط الامتياز من الطبقة الأولى، وجائزة الدولة التقديرية في الآداب من مصر، وجائزة أفضل كتاب في النقد الأدبي من وزارة الثقافة المصرية، وجائزة نقد الشعر من مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين في الكويت، وجائزة الدراسات الأدبية والنقد من مؤسسة سلطان بن علي العويس في الإمارات العربية المتحدة.**

وبعد هذا البحث حول قراءة المسدي نمر في المبحث الموالي إلى قراءة مصطفى ناصف.

مصطفى ناصف وبلاغة الجاحظ

1.تمهيد:

في مستهل هذا البحث الذي نحاول تسليط الضوء على جهود مصطفى ناصف* البلاغية وحضور الجاحظ -بلاغيا- في بحوث مصطفى ناصف، حيث نستطيع القول إنّ البلاغة العربية قد شكّلت الحصة الكبرى من الأبحاث والدراسات لدى مصطفى ناصف في أغلب مؤلفاته التي شملت الشعر وتعدته إلى النثر العربي القديم، والعلوم الشرعية، وكما هو معروف فإنّ مصطفى ناصف من تلاميذ أمين الخولي الدّاعي للمدرسة التجديدية في البلاغة العربية.

وقبل ولوج هذا المبحث الخاص بقراءة مصطفى ناصف لبلاغة الجاحظ، لابد أن نطرح تساؤلات تساعدنا على الحكم على قراءته لبلاغة الجاحظ وكيف كانت محاوراته للنثر العربي؟ وللبلاغة العربية ؟

يعتبر مصطفى ناصف من الذين اعتنوا بالتراث أيّما عناية خاصة البلاغي منه، وهو الذي يهمنا في بحثنا هذا لارتباطه بالبحوث البلاغية وكل ما تعلق بها، وقد كانت عناية ناصف بالجاحظ عناية كبيرة، فقد كانت مقالاته في مجلة ‹المعرفة› وعنونه بـ: **(محاورات مع النثر العربي)** وغيرها من المؤلفات، استهل مصطفى ناصف مؤلفه متسائلا ومستغربا من كون الجاحظ بدأ كتابه: **(البيان والتبيين)** بالاستعاذة؟ من فتنة القول، وذلك في قوله: «**اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل**»[1]، فناصف يعلق على قول الجاحظ الذي ابتدأ به.

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مطبعة المدني، المؤسسة

شخصية الجاحظ المتميزة بالسخرية والمتناقضات، ولذا نجد (القول) مسألة كبيرة حذر منها الله سبحانه عز وجل في قرآنه، وكذلك نبيه محمد عليه أزكى الصلوات والتسليم من بعده، والناقش فيها قد يصاب بشظايا العدوى، ففتنة القول على حسب تعبير مصطفى ناصف قد تصرفك على عدة أشياء تستهويها، وها هو يقول: «الواقع أن الجاحظ كان يرى كلمة البيان واسعة، محتاجة إلى شيء من التقسيم أو التمحيص »[1]، وها هو ناصف يبدأ بما جاء في البيان وهو اختلاط البلاغة وفتنة القول التي سبق وأن أشار إليها تعليقا على قول الجاحظ في هذه الفتنة.

كما يرى أن الجاحظ مهتم بما هو بعيد عن مملكة البلاغة، لأن الجاحظ يحمل هموم الحياة العربية يقول مصطفى ناصف: «لابد أن نفترض أن الجاحظ مشغول بأشياء ليست من قبيل علم البلاغة وحدودها، الجاحظ مهموم بحياة العربية في المجتمع، والنظر إليها بطريقة وصفية بعيدة عن فتنة المعيارية والدعاية، ومهما يقل في محاربة الجاحظ للشعوبية فما ينبغي أن نهمل عقل الجاحظ وقدرته على الفحص المتأني بعيدا عن العامة السابقة الذائعة بين الناس»[2] ، فقد حارب الشعوبية وأعلن عليها الحرب وقد جرد نفسه من أشياء كثيرة اكتسبها من الجنس الدخيل المتمثل في الشعوبيين.

يقول الجاحظ في (**البيان والتبيين**): «وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة فقد كانوا مطبوعين »[3]، يتبين لنا من هذا القول أن الكره الذي يكنه الجاحظ لهم أكبر مما نتصور وهذا يحتاج لبحث مستقل، أو ما هي الدعاوى والأسباب التي جعلت الجاحظ يقف لهم بالمرصاد ويعريهم لهذه الدرجة، وبقساوة كبيرة وبأوصاف لم نعهدها منه في ألد أعداءه.

السعودية بمصر، القاهرة، ط:07، ج: 01، 1998 ، ص: 03.

*** مصطفى ناصف (1921- 2008)، وهو من أهم نقاد العرب الذين اشتغلوا على التراث العربي القديم والحديث من زوايا منهجية مختلفة تتراوح بين الدراسة البلاغية والأسلوبية والتفكيكية والتأويلية والأسطورية. له كتاب (قراءة ثانية لشعرنا القديم).**

[1]- مصطفى ناصف، عالم المعرفة، محاورات مع النثر العربي، ص:14.

[2]- المرجع نفسه، ص: 17.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 03، ص: 404-406.

ثم يحيلنا مصطفى ناصف إلى تفصيل البيان في (**البيان والتبيين**) بخاصة فيصرح ويقول: «قرأنا نماذج الجاحظ وتعليقاته الواضحة حينا والغامضة حينا فسوف نجد كلمة البيان تستعمل ويراد بها عدة معان من أوضحها خدمة الخصوصية والكيد »[1]، فناصف قد اعترف للجاحظ بالنبوغ بل تعجب من أمره كيف يجمع بين المتضادات.

وبين دفتي البيان والتبيين «نقرأ عبارات كثيرة قراءة هشة نقرأ عن الطبع والدربة ورواية الكلام، والإعراب وتخير الألفاظ والبعد عن الاستكراه، ماذا يعني الجاحظ هنا ألا ترى سياق الجاحظ عونا على التماس عالم من الوئام والإخلاص والبراءة هذا هو العالم المفقود يبحث عنه الجاحظ حين يتكلم عن البيان، وبعبارة أخرى إن الكلمات يجب أن تسأل عما تصنعه بعقولنا وأرواحنا»[2]، ويعطي لنا نتيجة أخيرة مصطفى ناصف من خلال قراءته للجاحظ وأدبه وفي كتب البلاغة العربية بحيث.

ويعترف ويقول: «لقد تفهم الجاحظ تنوع البراعة القولية تفهما أخصب مما نظن»[3]، هذا ما يدعونا للتساؤل: هل كان الجاحظ متقدما جدا على ما نتخيله عن الجاحظ الأديب؟ أم كان الجاحظ من زمن آخر؟ وهل تفكير الجاحظ لا تستوعبه عقولنا ؟ «هذه تساؤلات لا يحب الجاحظ أن يخوض فيها خوضا مفصلا لأنه حريص في الظاهر كما تعرف، على أن يسوق كل شيء مساق الأخبار والرواية والفكاهة والاستطراد، ولكنه حريص على شيء آخر، على أن هذا يسائل نفسه مساءلة عنيفة لا يبديها لك، لقد تبين له أن جانب الإخفاء أو الخصوصية جانب أساسي كلمة البيان... وهل الجاحظ يرجح بقاء الإخفاء حادث عرضي ما يلبث أن يتعرض للزوال، هل الجاحظ يرجح بقاء الإخفاء والدفاع عنه»[4].

والذي حيّر مصطفى ناصف كما يعترف هو بذلك، هل الجاحظ من أنصار البلاغة أم من أنصار البيان، أم من أنصار الفلسفة، وها هو يجيب ويحاول إدراك وإزالة هذه الحيرة، يقول: «ولكن الجاحظ محير أيضاً، طوراً ينصر ما

---

[1]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، ص:06.
[2]- مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، ص: 23
[3]- المرجع نفسه، ص: 23.
[4]- المرجع نفسه، ص: 26.

يسميه البلاغة أو البيان وطوراً ينصر الفلسفة، لا أظن أن الجاحظ خفي عليه أمر الصراع بين البلاغة والفلسفة»[1]، وهذا التساؤل من مصطفى ناصف يحيلنا إلى مسألة مهمة وهي علاقة الفلسفة بالبلاغة زمن الجاحظ وما دار حولها من دراسات.

محمد الصغير بناني والنظريات اللسانية والبلاغية

1.تمهيد:

يعتبر محمد الصغير بناني واحداً من الذين سخّروا جهودهم وأقلامهم لخدمة بلاغة الجاحظ، كما أنّه قدّم خدمة قيمة للتراث العربي، وعمل على تجديده والرقّي به، من خلال المؤلفات التي زينت المكتبة العربية، وقد حمل هم الدعوة لانفتاح البلاغة العربية على غيرها من المعارف المعاصرة، وذلك بإعادة قراءتها وبعثها بروح المعاصرة باعتبارها عالمية، وقد حرص في بداية مساره العلمي على إدماج البلاغة في النظريات الأدبية المعاصرة، وكتابه (**النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ**) سيكون شاهداً على بلاغة الجاحظ، وفي كتابه هذا قدّم خدمة جليلة للدراسات الأدبية.

كانت لمحمد بناني مباحث مهمة في كتابه، حيث درس فيه أهم القضايا والنظريات التي كانت محل أخذ ورد عند الباحثين، عبر أزمنة متعددة، ومسارات كبرى، ولتسليط الضوء على مشروع مقاربة محمد الصغير بناني للتراث البلاغي للجاحظ، لما له من فضل في تقديم رؤية منهجية حداثية أكثر دقة تساير الحداثة، وعليه نحاول ولوج هذا الموضوع وفق التساؤلات التالية: كيف كانت قراءة هذا الباحث لبلاغة الجاحظ، وما هي خصوصيات هذه القراءة ومميزاتها المعرفية والمنهجية عند بناني ؟

نشير بدايةً إلى أنّ محمد الصغير بناني طرح مشروع الجاحظ في مؤلفين هما:

- **النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ.**
- **المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة.**

يرى محمد الصغير في كتابه: (**النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ**)، بأنّ مكانة الجاحظ في البلاغة العربية لا غبار عليها، فقد كان بحق

[1]- مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، ص: 30.

بليغاً أديباً، وجهوده «لا تحتاج إلى دليل فقد اعترف بها أنصاره وخصومه على السواء، لكن الكثير ممن يشيدون ببلاغته لا يقصدون بذلك إلاّ أسلوبه في الكتابة، ولا يراعون الجانب النظري إلاّ قليلا، وحتى النقاد المحدثون الذين عكفوا على جمع آراءه البلاغية لم يجدوا مخرجا أمام تشتت هذه الآراء»[1]، فالاستطراد الذي تميز به الجاحظ وكثرة شواهده، جعلت منه مطمعاً للطاعنين في أسلوبه.

وللجاحظ أسلوبه وطريقته لن يحيد عنها، «نعم إنّ الطريقة التي اختارها الجاحظ لمعالجة القضايا البلاغية وخاصة الرمزية التي لجأ إليها أحيانا مسؤولة عن هذا، لكن أبعاد النقاد لهذه البلاغة عن إطارها الكلامي في نظرنا السبب الأول في سوء التفاهم بين الجاحظ ونقّاده»[2]، فالسبب الرئيس -لغربة- بلاغة الجاحظ تتمثل في المشاكل العالقة بين الجاحظ ومناوئيه، وتكمن في عدم فهمهم له وذلك عندما يضعوه في الزاوية الكلامية، ولا يريدون رؤية أدبه إلاّ من هذا الطريق.

ولما كانت البلاغة هي الجسر الذي يجمع بين الماضي والحاضر، كان أبو عثمان يمثل تلك الوساطة ليتعداها كعالم، وينحتها كما يريد، «والجاحظ لم يكن ينظر إلى البلاغة كعلم فحسب ولكن كأدب أيضاً، بل إنّ البلاغة عنده هي المقام المفضل الذي تلتقي فيه أهم العناصر المقومة للثقافة العلم والفن والأدب، ولذلك كانت كل شيء في الإنسان بل هي الإنسان نفسه»[3]، فالناظر في تصانيف الجاحظ يدرك جلياً اهتمامه بالأدب، وقد كان شغوفاً بذلك، وقضى كامل حياته بين أخبار العرب وأشعارها وأمثالها.

ولظروف وملابسات تاريخية تحولت البلاغة من بلاغة حية متوهجة، إلى بلاغة اهتمت بالشروح على الشروح، والهوامش على الهوامش، أمّا البلاغة التي عناها محمد الصغير بناني والتي استقر عليها الجاحظ، هي «التبليغ أو

---

[1]- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص: 10.

[2]- المرجع نفسه، ص: 10.

[3]- المرجع نفسه، ص: 10.

التوصيل كما يقول علماء اللسان اليوم»[1]، فالبلاغة التي تبناها الجاحظ تلتقي مع الفنون الأخرى.

وقد خصّص باباً في (**البيان والتبيين**) للبلاغة وتعريفاتها المتداخلة، «فهذه البلاغة هي التي يسميها الجاحظ تارة ‹بيانا› وتارة ‹تبيينا› وتارة ‹بلاغة›»[2]، والناظر في كتب الجاحظ تستوقفه عدة محطات ومشكلات من أهمها تفاوت المصطلحات والمفاهيم.

وفي هذا المقام في تغير المفاهيم «وهنا لابد من التوقف لحظة لإزالة الغبار عن مشكلة أدت إلى التباس خطير سبب فيه تعبير الجاحظ نفسه وعاد بالأثر السيء على بلاغته، وهو تشابه هذه المفاهيم وتقاربها وفي نفس الوقت تباينها وتباعدها»[3]، فتشابه المفاهيم في مؤلفاته أحيانا وتقاربها مرة وتباعدها، وتنافرها، هو السبب كما يقول بناني الذي صعّب من فهم بلاغة الجاحظ عموما.

«أمّا ‹التبيّن› فيشترك مع الأول في كونه تعبيرا لكنه يختلف عنه اختلافا جوهريا فهو في متناول الجميع، يدرك بالعقل ويكتسب بالتمرين والممارسة ... أما البلاغة فإنها وإن كانت مرادفة للتبيين من عدة وجوه تختلف عنه اختلافا ملموسا هي الأخرى فهي أولا مفهوم تتبناه الشعوبية وتدعي فيه الادعاءات الكثيرة»[4].

إدريس بلمليح، البلاغة الجاحظية رؤيةٌ للعالم

1.تمهيد:

[1]- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، ص:11.

[2]- المرجع نفسه، ص: 11.

[3]- المرجع نفسه، ص: 12.

[4]- ادريس بلمليح، (2013 - 1948) كاتب وناقد مغربي، أستاذا للمناهج النقدية المعاصرة والنقد العربي القديم، وأستاذ الشعر الجاهلي في جامعة محمد الخامس في الرباط، من أبرز مؤلفاته الرؤية البيانية عند الجاحظ.

[2]- المرجع نفسه، ص:13.

يعتبر ادريس بلمليح* من الدارسين الذين خدموا البلاغة العربية خدمة جليلة بصفة عامة والجاحظ بصفة خاصة، وذلك ضمن مقاربته: **(الرؤية البيانية عند الجاحظ)**، «بتطبيق مفهوم رؤية العالم بطريقة متميزة، مما ساعده على تمثل فلسفة بيانية كانت قاعدة لتصور العالم الذي آمن به الجاحظ: **فلسفة المعتزلة** وحاول تفسير هذا الاتجاه العقائدي في ضوء شبكة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي عاشها الجاحظ»[1]، وهي نفس الرؤية التي ذهب اليها شارل بيلا.

ولتسليط الضوء على بلاغة الجاحظ عند إدريس بلمليح لابد من طرح هذه الأسئلة التي قد تساعدنا على فك شفرات (رؤية العالم) التي تبنّاها، فهل نجح في هذه (الرؤية) من تحديد المعالم الكبرى لبلاغة أبي عثمان؟

2.البلاغة الجاحظية رؤيةٌ للعالم:

يبدأ -بلمليح- في كتابه بإثارة إشكال يستوقف الكثير من الباحثين والقراء، ألا وهو التكرار والاستطراد بحيث أن «قراءة الجاحظ قد تبدو لأول وهلة مسألة مبتذلة ومكرورة غير متسمة بأي اضافة أو تنوير جديد يساعد على فهم فكر هذا الرجل الذي قيل عنه الكثير، ودرس تراثه في رأي بعضهم بما فيه الكفاية، صحيح أن الجاحظ حظى باهتمام عدد كبير من الباحثين وصحيح أيضا أن إمكانات الإضافة الجديدة في هذا المجال ضيقة وعسيرة، ولكننا عند استعراضنا للدراسات التي انجزت ضمن هذا الحيز نلاحظ اهمالا»[2]، هذا الإهمال من طرف الدارسين جعل من بلاغته تشهد تغييباً واضحاً لأسباب تمثلت في تداخل عدة عوامل تعود «نسبيا لقضايا جوهرية تتعلق بالاهتمام الفكري متعدد الأبعاد الذي عرف به الجاحظ ثم اهمالا يكاد مطلقا الربط بين فكره البياني وفلسفة الاعتزال التي آمن بها وانعكس في مجمل آثاره.

ويمكننا أن نقسم تقسيما تقريبيا الأبحاث التي انجزت عن الجاحظ الى نوعين:

دراسات اهتم بها أصحابها بحياة الجاحظ وثقافته وعصره وتراثه، ودرسوا التراث في ضوء الحياة الشخصية وثقافة العصر، فتوصلوا إلى نتائج قيّمة وجادّة، يستوعب القارئ بالاطلاع عليها المراحل التاريخية التي تميزت بها،

---

[1]- محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة، ص: 288.

[2]- ادريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، المغرب، ط:01، 1984، ص:16.

كما يعكس ذلك فكر الجاحظ وابداعه الفني بتفتح العقل العربي المتعطش للمعرفة وبالعطاء العلمي، الذي تجاوز حدوده الاجتماعية الضيّقة ليشرف على الأبعاد الإنسانية والتاريخية فيفيد في تطور المجال الثقافي بصفة عامة.

من بين هذه الدراسات: كتاب شارل بيلا **chl. Pellat** الذي صدر 1953 بعنوان: (**الوسط البصري وتكوين الجاحظ**)، وهو دراسة في إطار فهم الجاحظ ضمن الوسط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري الذي عايشه، وفيه وصف للبصرة تاريخيا وجغرافيا، وكذلك دراسة طه الحاجري لحياة الجاحظ ومؤلفاته، وهي تكون قد كشفت على تكوين الجاحظ من كل النواحي التي أحاطت به من كل الجوانب.

دراسات اهتمت بجانب خاص من فكر الجاحظ وأدبه، ومن جملة هذه الدراسات **المعنونة بـ: (النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ)** لفيكتور شلحت اليسوعي، وهي رسالة تقدم بها لنيل درجة الماجستير سنة 1961، وقد مهدّ لدراسة أسلوب الجاحظ بالحديث عن نشأة علم الكلام، وتأثيره في الثقافة العربية، ثم وصف أسلوب الجاحظ لفظيا، وحسب طريقة التفكير عنده المتمثلة في المعاني وأساليب استخراجها.

(المناحي الفلسفية عند الجاحظ) للدكتور علي بوملحم هي دراسة جديدة في موضوعها إذ لم يسبق أن اهتم المعاصرون بالجاحظ فيلسوفا، وقد قسّم الدارس فلسفة الجاحظ الى خمسة هي: المنحى الطبيعي، المنحى الكلامي، المنحى الجمالي، المنحى اللغوي، المنحى الخلقي، والاجتماعي والفكري والتبصيري، كما ربط بين المناحي الفلسفية والمنهج، وهذه الدراسة تكون متميزة بقيمة ريادية خاصة وهي فلسفة الجاحظ، وحتى أنه درس الجاحظ متفلسفا منفصلا عن الجاحظ واتجاهه الفكري العام الذي هو فلسفة المعتزلة»[1]، ويتجلى هذا في كتاب المناحي الفلسفية لدى الجاحظ.

ويضيف أيضا «كما أنه كانت هناك دراسات أنجزت في إطار البلاغة والنقد العربيين، درست جهد أبي عثمان في هذا المجال باعتباره معلما أساسيا من معالم تقويم الأثر الفني في ضوء الذوق من جهة ثانية ومن هذه الدراسات المتميزة كتاب الدكتور أمجد الطرابلسي الذي ألف سنة 1945 والذي تناول فيه

[1]- ادريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص: 19.

جهد أبي عثمان النقدي والبلاغي بشكل دقيق ومفصل، واستخلص النقاط التالية: خص الجاحظ في آخر حياته بكتاب البيان والتبيين وهو اختيارات أدبية صرف سلكت مسلكا بلاغيا إلاّ أنها فتية وغير منضبطة.

وكذلك كتاب الدكتور سيد نوفل: البلاغة العربية في دور نشأتها وهو بحث يؤرخ لظهور البلاغة العربية ونشأتها كما يدل على ذلك عنوانه، فعقد فصلا للجاحظ، وتصدى بالتحليل لمعاني البلاغة والبيان، ثم درس بعض مظاهر القول الفني التي استطاع أبو عثمان أن يتبيّنها ويعبر عن آرائه حولها كالتشبيه والمجاز والاستعارة والايجاز والاقتباس والمذهب الكلامي وخلص إلى أن الجاحظ أبرز وأهم عالم بذل جهدا كبيرا في سبيل تأسيس علم البلاغة عند العرب[1].

كذلك يعتبر الدكتور بدوي طبانة من أبرز من اهتموا بهذا الموضوع وخاصة في كتاب **(البيان العربي)** الذي أرّخ فيه للفكر البلاغي عن طريق إبراز معالم تطوره بدءا بكتاب أبي عبيدة **(مجاز القرآن)**، وانتهاء بكتاب **(فن القول)** للأستاذ أمين الخولي، ليخلص بأن الفنون البلاغية التي استخلصها من دراسته للجاحظ انه لم يختص بالبيان فقط بل تعداه الى البيان والمعاني والبديع «وهكذا كان اسم ‹البيان› شاغلا لفنونها المختلفة لتعلقها جميعا بالبيان»[2]، ومن هنا ندرك أن الجاحظ لم يهتم بالبيان وحده بل تعداه إلى أشياء متعددة تفرعت عن البيان.

كذلك لا ننسى جهوداً أخرى بذلت مثل دراسة شوقي ضيف 1965 **(البلاغة تطور وتاريخ)**، ثم دراسة عبد العزيز عتيق 1970 ‹في تاريخ البلاغة العربية›[3]، ثم نجد دراسة أحمد أبوزيد ديبلوم الدراسات العليا 1981 بالرباط، عنوانها: **(المنحى الاعتزالي في الدراسات البيانية)**، وقد اهتم بالجاحظ اهتماما مميزا، ثم يعرج كذلك على دراسة الاستاذ عباس أرحيلة لفكرة الاعجاز وأثرها في النقد والبلاغة العربيين، وهي رسالة للحصول على دبلوم الدراسات العليا، تقدم بها المرشح سنة 1982 عنوانها البحوث الاعجازية وأثرها في النقد والبلاغة

1- المرجع نفسه، ص: 20.
2- المرجع نفسه، ص: 21.
3- ادريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ص: 21.

إلى القرن الرابع الهجري وهي إبراز رأي الجاحظ في إعجاز القرآن، ووضح القضايا البلاغية التي توقف عندها.

كذلك دراسة الدكتور ميشال عاصي في كتابه المعنون بـ (**مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ**)، وهو بحث يتميز بدرسه المركز لحد اللفاظ المتعلقة بحيز النقد والبلاغة عند أبي عثمان حيث اهتم بتعريفات البلاغة والبيان والفصاحة وباستعمال الجاحظ المختلف والمتنوع لها، وكذلك وقف عند كل مفهوم من مفاهيم المصطلحات أو الألفاظ الدالة في إطار البلاغة والنقد ليبلوره في ذهن القارئ»[1]، كذلك دراسة الاستاذ البوشيخي التي تقدم بها 1977 للحصول على دبلوم الدراسات العليا بعنوان: مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين وهو في غاية الدقة[2].

وفي الأخير نستخلص من هذه الدراسة المتعلقة بقراءة بلمليح لبلاغة الجاحظ انه كانت دراسة جد مهمة، كما كان له إسهام في العرض لأهم المؤلفات التي اعتنت ببلاغة الجاحظ فقد كان موفقاً إلى حد كبير في حصر المادة المعرفية الخاصة لبلاغة الجاحظ عند المعاصرين.

محمد مشبال والتأصيل لبلاغة النادرة

1.تمهيد:

سعى محمد مشبال للعمل على إيجاد حقل جديد يتسع لبلاغة رحبة، ولا أكتم سراً أنّ من بين الأسباب التي جعلتني أميل لبلاغة الجاحظ هو مؤلفات محمد مشبال* التي قرّبت التراث الجاحظي مني، وقربته من تفكيري، كيف لا

---

[1]- المرجع نفسه ، ص: 23.

[2]- المرجع نفسه، ص:23.

***- أكاديمي وناقد مغربي، يترأس حاليا فرقة البلاغة وتحليل الخطاب في كلية الآداب بجامعة عبد المالك السعدي في تطوان. حاصل على جائزة الملك فيصل العالمية، شر عدة أعمال نقدية منها مقولات بلاغية في تحليل الشعر 1993، بلاغة النادرة 1997، البلاغة والأصول: دراسة في أسس التفكير البلاغي عند العرب نموذج ابن جني – 2007، البلاغة والسرد 2010، البلاغة والأدب: من صور اللغة إلى صور الخطاب 2010، خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ: مقاربة بلاغية حجاجية 2015، في بلاغة الحجاج: نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطاب له عدة ترجمات منها مشاركته في ترجمة موسوعة أكسفورد للبلاغة 2015 نقلا عن موقع https://www.zayedaward.ae**

وهو الذي أصّل لبلاغة الجاحظ بتفصيل دقيق، حيث نجده يعرض لها بشيء مذهل، بالتفصيل والترجيح، خاصة في بلاغة النادرة، والذي يمكن لنا قوله قبل البداية هل مارس محمد مشبال عدة قراءات وبمستويات مختلفة بحكم تعدد دراساته ؟ وهل اشكالية النثر العربي القديم واشكالية قراءته وما يتلوها من قضايا كالتراث والحداثة، والمنهج والرؤيةُ تعد عائقاً عنده ؟

ولمعالجة هذه الاشكاليات افترضنا فرضيات قد تساعدنا على فهم قراءة مشبال لبلاغة الجاحظ، وكيف استطاع أن يمرر مشروعه وسط هذه الصعوبات، ومن الفرضيات المحتملة وضعنا مزجه بين النقد والبلاغة لفهم البلاغة عند الجاحظ بصفة عامة والنادرة بصفة خاصة.

بعد بزوغ نجم البلاغة الجديدة «ذات المنحى التوسعي المنفتح، ظهرت أعمال الباحث والناقد محمد مشبال، التي ترسم معالم مشروع معرفي ومنهجي متميز إنه مشروع معرفي ومنهجي متميز، إنه مشروع يرمي إلى المساهمة في توسيع البلاغة وفتحها على آفاق رحبة تستوعب مختلف النصوص والخطابات»[1]، من هنا ندرك اشتغال مشبال على أدب الجاحظ وبلاغته فقد اعتنى به كثيرا وله دراسات متميزة تنم عن تبحره في هذا الفن.

لقد كانت لمشبال قراءات متعددة حول بلاغة الجاحظ عبر التاريخ النقدي والبلاغي سواء القديم أو الحديث، وقبل الخوض في هذه المشكلة التي تعترض مشبال نراه ينطلق من أن «إشكال النثر العربي القديم هو إشكال قراءته ... وما يستتبعه من مشكلات المنهج والرؤية، والتراث والحداثة، والذات والآخر، والتقليد والتجديد»[2]، ومن هنا يمكن لنا أن نقول أن مشكلة المنهج تبقى قائمة وإشكالية يصعب حلها في ظل تراكمات تراثية مختلفة.

يضيف محمد مشبال أن الإحساس بوجود ألوان من الصياغة الأدبية في تراثنا النثري، لا يسعف في تحليلها الانتفاع المباشر بهذه النتائج، ثم يقول: كانت البلاغة التي انطلقت منها في تحليل نصوص النوادر لا تتقيد بمفهومها الأسلوبي السائد في ثقافتنا العربية، إذ سعيت إلى توسيع مجال البلاغة خارج حدود ما

---

[1]- عبد الواحد مرابط، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة، قراءات في أعمال الدكتور محمد مشبال، ص: و.

[2]- محمد مشبال، بلاغة النادرة، ص: 11.

يطلق عليه ‹وجوه الأسلوب›، إذ لم يكن ثمة فصل عندي بين البلاغة والنقد الأدبي وخاصة عندما يتعلق الأمر بتحليل النصوص، فالحدود المرسومة بين هذين المجالين لم تكن لتثني نزوعي إلى دمجهما[1].

2.مقولة التجنيس عند محمد مشبال:

عمل محمد مشبال على تشغيل مقولة التجنيس والتي «تعد من الصعوبات التي تواجه الباحث في نثر الجاحظ ونوادره لوجود نوع من الحكي يحمل أكثر من تسمية، أو لنقل إنه لا يحمل تسمية محددة، فالجاحظ يطلق على حكايات بخلائه تسميات متعددة، منها النوادر والملح والطرف والقصص والأحاديث، وسواء أكانت هذه التسميات تحيل إلى نوع سردي واحد أم كانت بينها فروق دقيقة، فالمهم هنا أن الحكايات التي يقصها الجاحظ في البخلاء والحيوان على وجه الخصوص، تلتقي في جملة من السمات الأخرى ولكنه يحتويها بوصفها مرادفات لها»[2]، ومحمد مشبال استطاع أن يوحدها في مصطلح واحد ألا وهو النادرة، والعلة في ذلك أن الزمن الذي عاش فيه الجاحظ لم يصل فيه الوعي الأجناسي إلى الصياغة النظرية في اعلى درجاتها المنشودة كما يقول محمد مشبال في بلاغة النادرة.

2. بلاغة النادرة عند محمد مشبال:

وفي هذا الموضوع المخصص لبلاغة النادرة نجد محمد مشبال قد قسّمها إلى نوعين: بلاغة خارجية، وبلاغة داخلية هي كالتالي:

هذه البلاغة تتسم عند الجاحظ بالعري عن المحسنات البديعية، فقد كتبت بأسلوب مباشر ومسترسل خال من التشبيهات والاستعارات والمحسنات الزخرفية، إنّ هذه المحسنات التي اعتبرت سمة لبلاغة أنماط خطابية كثيرة منها الشعر والمقامة، فقدت وظيفتها في خطاب النادرة، إذن النادرة قد تمت كتابتها بلغة واضحة وألفاظ فصيحة متداولة بين الناس في خطاباتهم اليومية يسهل فهمها دون التنقيب عن معاني ألفاظها في معاجم اللغة ومصادرها[3].

---

[1]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 13.

[2]- عبد الواحد المرابط وآخرون، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة قراءات في أعمال الدكتور محمد مشبال، ص: 115، نقلا عن: بلاغة النادرة، ص: 16-17.

[3]- ينظر: عبد الواحد المرابط وآخرون، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة قراءات في أعمال الدكتور محمد مشبال، ص: 117.

كذلك قد عرف عن الجاحظ شغفه بالوافد من البلاد الأخرى وعنايته بالترجمة «كما أنه يدعو إلى الانفتاح والانعتاق والتحرر»[1]، هذا فيما يخص أسلوبه والتأصيل لمباحثه التي ستأتي تباعا، والذي يهمنا هو قراءته لنثر أبي عثمان.

ومن خلال إلقاء نظرة يسيرة على مؤلفاته نجده يسعى لطرح أهم فكرة في كتابيه: (**البلاغة والسرد، جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، والحجاج والتأويل في النص السردي عند الجاحظ**)، ألا وهي-أي- تأصيل بلاغة السخرية بمنهج تحليلي متكامل، وتتمثل هذه الفكرة في علاقة البلاغة بالسرد، وهي علاقة –كما يقول- فرضتها هذه النصوص الوثيقة الصلة بالبلاغة التي ازدهرت زمن الجاحظ، كما نستطيع القول أنه «همّه في الالتفات إلى القارئ، فاختار الجدّ والهزل إطارا عامّا لرسائله»[2]، وهو ما ستكون عليه دراسة محمد مشبال هذه.

وكتابيه هاذين يعتبران بحق مرجعا مهما في التنقيب عن البلاغة العربية الكلاسيكية، كيف لا وهو واحد من الذين خدموا البلاغة العربية بصفة عامة خدمة جليلة، بحيث «تتقاطع في هذا الكتاب إشكالات متعددة، كإشكال وصف الأجناس الأدبية السردية القديمة، وإشكال قراءة النصوص وتأويلها، وإشكال علاقة الأدب القديم بالأدب الحديث، وإشكال مفهوم البلاغة في صلاتها بالأدب أو السرد الأدبي وما يثيره من تعارض سائد اليوم بين مفهومي الحجاج والتصوير، إشكالات قد ينوء بحملها مثل هذا الحيز الضيق، لكنها ضرورة أملتها طبيعة الموضوع والغاية المبتغاة، فنحن نتناول هنا ‹جنسا أدبيا› قديما، ونروم الإسهام في فهمه وتعرف مشكلاته الحقيقية، ولا شك ان مثل هذا الطموح البعيد لا يريد الاكتفاء بالتوقف عند هذه الغاية العلمية التاريخية، بل يستشرف آفاقا أوثق صلة بوضع الإنسان العربي المعاصر وحاجاته الأدبية والجمالية»[3]، فهذا الكتاب حاول صاحبه البحث في بلاغة الجاحظ، بحيث سعى إلى المزاوجة

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 195.

[2]- مختار الخلفاوي، عتبات في الكلام على الكلام دراسات في أدب ابن المقفع والجاحظ وابن حزم، سلسلة آفاق – برسبكتيف للنشر، تونس، ط:01، 2013، ص: 97.

[3]- محمد مشبال، البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب 2010، ص: 05.

بين التفكير النظري في أحد الأجناس الأدبية السردية القديمة وبين النصوص المفردة والتحقيق والكشف عن سماتها وأبعادها.

وفي سياق الحديث عن بلاغة النص السردي القديم، يبدأ مشبال بالتأصيل لمصطلح ‹**الخبر**› لما يمثله في التراث الأدبي العربي القديم جنسا سردياً بسيطا قام على المزاوجة بين الإفادة والإمتاع و «مزج الواقع بالخيال»[1]، فمفهوم الخبر عند الدارسين المعاصرين، يصنفه بعضهم في دائرة الأجناس النثرية كالمقامة والخطبة والوصية والرسالة والنادرة والحكاية.

ويميل بعضهم الآخر إلى اعتباره «شكلا أساسيا من الأشكال الأدبية أو فنا من فنون القول، بينما عند مشبال ينظر إلى الخبر باعتباره جنسا سرديا يتشكل في أنواع وأصناف»[2]، ويضيف أن مدونة الجاحظ السردية تزخر بالأخبار والنوادر، التي تميل إلى أسلوبي الهزل والسخرية.

ويقول مشبال أن الخبر -في تصور الجاحظ- يتحول من التأريخ إلى الفن كلما احتفت نصوصه بالهزل واستنفار الضحك أو بالغرابة وإحداث التعجيب في المتلقي، لا يوجد خبر أدبي عنده لا يقوم على أحد هذين المكونين[3]، فأسلوب الجاحظ ظاهر واضح وضوح الشمس في رابعة النهار ولا يتخطى الخطان التأريخ والفن والتأثير في المتلقي، ولا تخرج نصوصه عن هذا النطاق وهي الغالبة على أغلب نصوصه.

كما يحاول الجاحظ ابرام صفقة مع القارئ المتميز أو القارئ النموذج الذي يشركه في بلورة نصوصه وأخباره، و«يحمل النص السردي عند الجاحظ معنى علميا وخلقيا وفلسفيا، لأنه يتوق إلى توصيل رسالة معينة، الأمر الذي يقتضي ضرورة تحليله وتلقيه في سياق مواقف تواصلية ملموسة، أي باعتباره خطابا لفظيا يجسد حدثا واقعيا وشخصيات حقيقية يمكن التأكد من وجودها التاريخي وفهم سلوكها فهما عقليا وخلقيا، إن النص السردي عند الجاحظ نمط حجاجي

---

[1]- المرجع انفسه، ص: 09، نقلا عن: شكري عياد، القصة القصيرة في مصر، دار المعرفة بالقاهرة، الطبعة: 2، 1972، ص: 24.

[2]- محمد مشبال، البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ص: 9.

[3]- المرجع نفسه، ص: 10، بتصرف.

يلتقي مع النصوص الحجاجية الصريحة مثل الخطبة والموعظة في توجهها نحو المتلقي لتعديل فكره أو تحفيزه على الفعل»[1].

ثم يورد محمد مشبال كلاما للجاحظ استطاع أن يصور لنا موقفا نادرا يصف فيه قوة مخلوق ضعيف ألا وهو الذباب الذي كان يكسر ذاك الحائط من الكبرياء للقاضي حيث يقول: «يسخر الجاحظ هنا من شخصية تتكلف سلوكا لا يقتضيه المقام ولا ينسجم مع الطبيعة الإنسانية، منتقدا تكبره وقد قصم الذباب القاضي المتكبر، فأقوى الناس ضعيف»[2].

وفي سياق آخر يرى «أن التكلف أحد مفهومات البلاغة ومعاييرها في نقد الخطابات الشعرية والنثرية وإبراز ما يسبغه عليها من عيوب، فإنه كان كذلك أحد المفهومات والمعايير التي استند إليها التفكير الديني والخلقي والاجتماعي والجمالي في نقد السلوك والتذوق، أي إن الجاحظ لم يتصد للتكلف في وجهه الخطابي الذي خاضت فيه البلاغة فقط، بل تصدى له أيضا في وجهه الخلقي والاجتماعي الذي جسدته النصوص السردية»[3]، فالجاحظ يرى أن التصنع وانتحال تكلف الصوت وجهوريته هو مذموم، بل حتى التكلف يعد من هذا القبيل الذي كان الجاحظ لا يراه من البلاغة في شيء.

ومن زاوية أخرى يرى مشبال أن «تشكل الحيلة في هذا الخبر الطريف مكونا في نسيجها البلاغي، إنها تقتضي أن يستعير الرجل صوت الكلب في تواصله مع جماعته، أن يصبح النباح وسيلته في التواصل»[4]، وهذه التداخلات والتشعبات في نقل المعركة بين القوي والضعيف بين شيء هين وثمين بين حشرة وإنسان، هي من بديه ما أنتج الجاحظ الذي حير القراء بأسلوبه هذا.

كما أنه جعل من الغرابة جسرا للتأليف «إن الجاحظ الذي رأى في الغرابة منبعا السرد واتخذ من فن الخير ميدانا لعرض الأعاجيب، كان يرى أن الغرابة

---

[1]- عبد الواحد المرابط وآخرون، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة قراءات في أعمال الدكتور محمد مشبال، ص: 16.

[2]- محمد مشبال، البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ص: 67-68، بتصرف.

[3]- المرجع نفسه، ص: 72 بتصرف.

[4]- المرجع نفسه، ص: 84.

ينبغي ألا تكون في الأمور الممتنعة في الطبيعة، أي الأمور التي لا يمكن أن تحدث في الواقع الطبيعي وإن جازت في الخيال»[1].

- التنقل من موضوع إلى آخر والعودة إليه طردا للسأم.
- ملء فجوات سطوره بروح الدعابة، والتحبب.
- المعرفة المجلوة بلطف فيما يتعلق بالمجتمعات، والبيئات، ونفوس الأفراد.
- الحرص الشديد على تقديم المعرفة بأسلوب لا يسئم القارئ، ولا يتركه يتخلى عن الاطلاع.
- سلوك الطريق الذي يرسم نظره الشمولي، وتأليف الموسوعي فيما ترك من كتب.
- موقفه من عصر سطعت فيه بغداد عاصمة الدنيا بكل ما تجهزت به للحضارة، فإذا بالجاحظ يتخذ موقفه الصارم المعلن:

أولا: يرى في العرب أمة مختارة فاضلة.

ثانيا: أسكت الزندقة بالإيمان.

ثالثا: صرف المجون، واختار الدعابة.

رابعا: لم يحسد، لم ينم، لم يخض في أعراض الناس، إنما عمد الى ذائقته الفنية، وموهبته التي لابد من أن تنشد التعبير، فلها وسخر، وداعب، ولم يغلط بحال حتى مع أحمد بن عبد الوهاب الذي رسمه برائعة في فريدة في الأدب العالمي هي: (**رسالة التربيع والتدوير**).

وفي نهاية هذا البحث نكون قد أتمننا هذا المبحث وقد تباينت قراءاتهم لهذه البلاغة، وأكثر ما شدّني في هذه الدراسة التي كان لها الحيز الأكبر من التحليل والتفسير، هي قراءة شارل بيلاّ **chl. bellat** التي تتبع فيها الجاحظ من بيئة لأخرى، وكيف انعكست الحاضرة على بلاغة أبي عثمان، دون أن ننسى قراءة حمادي صمود التي سنكمل في التحقيق فيها، وتشخيصها رفقة قراءة محمد العمري التي سنتطرق لها في الفصل الموالي.

---

[1]- **المرجع نفسه، ص: 87.**

الفصل التطبيقي

الحوار حول بلاغة الجاحظ

حمّادي صمود ومحمد العمري (أنموذجا)

1. تمهيد:

ارتأينا في هذا الفصل إلقاء نظرة شاملة، لكشف ذلك الحوار بين أهم مدرستين في البيئة المغاربية (التونسية والمغربية)، في مجال البلاغة العربية بصفة عامة، المدرسة التونسية يمثلها **حمادي صمود** صاحب البحوث المتميزة في النقد والبلاغة، أمّا المدرسة الثانية هي المدرسة المغربية ويمثلها **محمد العمري**، وسنقتصر على هذين النموذجين في هذا الفصل التطبيقي لعدة أسباب أهمها اتصال جهودهما بمجال البحث الذي نحن بصدده.

هذا الفصل في مبدأه مدخلاً مخصصاً للرد التفصيلي عن تصورات المتن المحَاوَر، بين باحثين اثنين لا ثالث لهما، نريد أن نستكشف الجاحظ بواسطة -حوارهما- ونحيط بمن هو أولى مركزيةً للبلاغة العربية، ونحاصر المادة العلمية التي استهلكت مدونة الجاحظ، وقد ولّد لنا هذا المتعة في قراءة كل ما يلف بأبي عثمان، ويلقي بضلاله على (**الحوار حول بلاغة الجاحظ**)، في هذا الفصل وفي محاولة منا للكشف والتحقيق في هذا **الحوار** المسطّر مبدئيا على مسودة خطاطة البحث، والنبش في طريقة ومنهج قارئين وبلاغيين كبيرين، لهذه المدونة، وهما يمثلان المدرسة المغاربية دون منازع، إنهما حمادي صمود ومحمد العمري.

أسبـــــاب الاخـــــتيـار

1. تمهيد:

في زمن غير بعيد -مرحلة الماستر- وأنا أناقش مذكرتي التي تمثلت في دراسة لكتاب محمد العمري الموسومة بـ: (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)، تحت إشراف الدكتور بشير دردار، قد فتح لي باب البحث على مصراعيه بجديّته وتخصصه، ومنذ ذلك الوقت بقي حلماً يراودني لأكمل الرسالة التي بدأتها في طور ما بعد التدرج وبأهداف أخرى، كما تزامن بحثي مع صدور مقال للدكتور المشرف، الموسوم بـ: (**إسهام الجاحظ في تاريخ البلاغة العربية قراءة حوارية لأطروحة العمري في كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)، هذا من بين أسباب الاختيار التي جرّ بعضها بعضاً، وزادتني إصراراً على مواصلة هذا البحث.

اعتمدت في الأساس على كتابين رئيسين جرى حولهما **الحوار** المفترض بين - حمادي صمود ومحمد العمري- **(التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس الهجري، مشروع قراءة)، و(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)**، وقد وقع اختياري عليهما لعدة اعتبارات، منها: أنهما يمثلان أحدث مشروع في الحقل البلاغي، فكتاب التفكير البلاغي يمثل مشروعا قرائياً جدير بالاهتمام والدراسة، والناظر في فهرسه يجده يسير على طريق خطة بحثنا، حيث يساعدنا في التأصيل لحوار جرى بين الرجلين، ومن المعلوم أن حمادي صمود في كتابه الموسوم بـ: **(التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس، مشروع قراءة)** جعل الجاحظ مركزاً للبلاغة العربية.

كما استعنت بكتاب **محمد العمري** المعنون بـ: **(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)**، وهو من المؤلفات التي لاقت رواجاً كبيراً في الآونة الأخيرة، سواء من حيث نسبة المقروئية أم من حيث الدراسات التي انصبّت عليه، والبحوث الجامعية بمختلف مستوياتها التي كان لها حضوراً في مؤلفه هذا، كما يدلنا دلالةً واضحة على قيمته العلمية، هذه من بين الأسباب التي جعلتنا نراهن لجعلهما مركزاً وأساساً في بحثنا هذا وعليهما سيكون اعتمادنا.

كان التعامل مع المدوّنة -**حمادي صمود ومحمد العمري**- خاضعاً لإكراهات البحث، ومقتضياته وأهدافه، بحيث خضع استثمار نصوص الكتابين لما رُسم للبحث من خطّة وسيرورات التحليل التي استدعيت لإنضاجها، والسير بها إلى نهايتها، فحضر **(التفكير البلاغي عند العرب)**، و**(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)** بقوة في هذا البحث، وقل حضور أخرى، وغابت مؤلفات أخرى، كان من الأولى الاستعانة بها، ولكن طبيعة هذا الفصل **(التطبيقي)** جعلتنا نضطر لتتبع مسار الكتابين دون غيرهما.

بدايةً من المعروف أن حمادي صمود اعتمد في مقاربته في كتابه: **(التفكير البلاغي عند العرب)** على «مفهومين أفرزتهما البنيوية والأسلوبية، وهما وحدة الأثر، والدلالة المميزة **(pertinence)** التي أفرزتها البحوث الفونولوجية»[1]، هذا فيما يخص حمادي صمود، أما كتاب العمري فهو كتاب

[1] - محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل بحث في مسارات تلقي الخطاب البلاغي الجاحظي في النقد الحداثي، ص: 235.

جدير بالاهتمام كذلك، لأنه رصد فيه روافد البلاغة العربية الكبرى تأريخاً وتنظيراً، مستعيناً بآليات المناهج الغربية، من بنيوية ونظرية القراءة في نفض الغبار عن مملكة البلاغة وتاريخها الضارب في القدم.

وكذلك من بين الأسباب الرئيسة في اختيار الكتابين يرجع إلى التالي:

- لأنهما يتضمنان أطروحتين متضادتين أشد التضاد، رغم عدم إعلان العمري على ذلك.
- أطروحة حمادي صمود تجعل من الجاحظ مركزا للبلاغة العربية.
- بينما أطروحة العمري جعلت من ابن وهب مركزا للبلاغة العربية بدلا من الجاحظ.

خطـــــــة الـــــــدراسة

1. تمهيد:

خصصنا هذا الفصل لتحليل المدونتين، اعتماداً على ما جاء به حمادي صمود، ومحمد العمري، بحيث حاولنا كشف ذلك التناقض بين الأطروحتين، وحسم الجدل القائم بينهما -بين أطروحة صمود التي ربطت البلاغة بالجاحظ، وبين أطروحة العمري التي استبعدت الجاحظ عن قصد أو عن غير قصد - **مركزيته في البلاغة العربية**- خاصة وأن العمري يرى أن البيان العربي تراجع مع الجاحظ، وازدهر مع ابن وهب.

أما حمادي صمود انشغل بتجربته في الدرس البلاغي الموسّع، القديم منه والحديث، الغربي والعربي، بقراءته قراءة نقدية متينة، منذ زمن بعيد ينتهي للسبعينات من القرن الماضي، كما تتمظهر جهوده في مؤلفاته الأولى خاصة أطروحته: **(التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس الهجري، (مشروع قراءة)**، وكتابه: **(الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة ودراسات في الشعرية: الشابي نموذجا)** وغيرها من المؤلفات التي جعلته يحتك بالنصوص الأصلية للبلاغة العربية.

عرض المحتوى العام للكتابين

1. عتبة الكتاب:

2. التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس، (مشروع قراءة)

صدر هذا الكتاب، عن دار منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، الطبعة الأولى، سنة 1981، الطبعة الثانية 1994، تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد القادر المهيري، بمناسبة تقديمه مناقشة دكتوراه الدولة في الآداب، وقد تمت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعية التونسية يوم 25 أفريل 1980، وهو كتاب كبير الحجم يحتوي على (669 صفحة)، وطبيعة موضوعه موجهة للقارئ والباحث المتخصص، فقد انطلق في تعامله مع المدونة البلاغية من منطلق حجاجي استدلالي، إذ اهتم في هذا الكتاب بالبعد التاريخي للبلاغة العربية، بحيث مزج بين التحليل والتأليف، والتركيز على المنعرجات الحاسمة في تطور وتقهقر البلاغة.

وفي الوقت نفسه نجده قد باشر التراث من منطق التفاعل بينه وبين الحداثة، وذلك من أجل إظهار النظرية الأدبية، ومحاصرة مظاهر المعاصرة في التراث البلاغي خصوصاً، كما أنّه بنا كتابه على التوفيق بين التأليف والتحليل ودراسة التفكير البلاغي اعتماداً منه على قضايا هامة، وكبيرة وضعت الأسس الكبرى لهذا التفكير-البلاغي- عند العرب.

عرض لكتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها لمحمد العمري

1. تمهيد:

يعتبر هذا الكتاب من أحسن مؤلفات العمري، لما له من أهمية بالغة في طرح جديد لمباحث البلاغة العربية، بحيث نجده يسلّط الضوء على **الامتدادات والمشاريع الكبرى** للبلاغة العربية، وتفسيرها، واستكشاف مساراتها، فقد حاول التقليل من قيمة الجدل حول الأصل العربي والأثر اليوناني، مستفيداً من مناهج القراءة.

صدر هذا الكتاب سنة 2010، في طبعته الثالثة، عن أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ويستهدف طوائف من القراء على مختلف أطيافهم، بحيث

يستفيد منها الطالب الجامعي، والباحث، والطبيب، وغيرهم، وقد غلب عليه البعد البيداغوجي التعليمي في تحليل المشاريع من خطاطات ورسومات تقوم على الاختزال المهم.

من الواضح أن محمد العمري يرى أن مشروع الجاحظ في (**البيان والتبيين**) أخفق كمنجز «وكأن العمري أراد أن يصدح -من خلال اقتناعه بإخفاق مشروع الجاحظ- أن الجاحظ لم يطرح السؤال ما الذي يجعل هذا النص أحسن من هذا النص، وهو السؤال الذي تولى طرحه الجرجاني فيما بعد، وهو الطرح الذي تبناه حمادي صمود في سياق حديثه عن البيان والتبيين»[1].

مستوى التفاعل الحواري الأول: العمري محاورا للعمري

1.تمهيد:

لا يتبين لنا موقف العمري من الإسهام الجاحظي من حيث درجة حدّته، إلاّ من خلال تتبع المواضيع التي أظهر فيها عن هذا الموقف في عدد من مؤلفاته، هذا التتبع والتفكيك وإعادة التركيب كفيل في نظر القراءة التي نقدمها بالكشف عن أصوات متعددة للعمري حول القضية نفسها، فهذه الأصوات المتعددة لمتكلم واحد تكشف لنا الحرج الذي عاناه العمري في الالتفاف على ما أجمع عليه جمهور الباحثين حول قيمة الإسهام الجاحظي ومركزيته، وتجنبهم مطالبته بما لا يحق أن يطالب به من جودة الإنجاز في زمن لم يكن يتيح مفاهيمه العامة حول البيان، ومفاهيمه الخاصة حول بلاغة اللغة الطبيعية عندما مارس بواسطتها أكبر قدر من التأثير على المتلقي.

[1]- محمد عبد البشير مسالتي، الجاحظ في قراءات الدارسين المحدثين، رسالة دكتوراه، جامعة سطيف2، 2013-2014، ص: 99.

نطمح في هذا البحث كذلك إلى تقييم قراءة حوارية لخطاب العمري في كتابه: (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)، الذي أراد من خلاله أن يقوّم الإسهام الجاحظي وفقاً للثنائية المشهورة لديه: (**المأمول والمنجز**)، فتطرح على هذا الخطاب أسئلة وتتجرأ عليه بعض الاعتراضات، وتختبر خصوبة ما انتهى إليه من أحكام واستنتاجات.

ننطلق في هذه القراءة الحوارية من فرضية عززتها قراءتنا لعدد من مؤلفات العمري التي تعرض فيها لتقويم الجهد الجاحظي في حركة تطور البلاغة العربية، ولا سيّما ما تضمّنه كتابه (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)، وكذلك قراءتنا لكتابات تناولت الموضوع نفسه، وصدرت في مواعيد زمنية متقاربة نسبيا، ونخصّ هنا بالعناية كتاب حمادي صمود (**التفكير البلاغي عند العرب**)، والكتابان في الحقيقة هما يتحاوران فيما بينهما ثنائياً، يحاوران عدداً من الأصوات الأخرى بمقتضى الخاصية الحوارية أو التناصية الملازمة لكل خطاب.

والذي دعانا لحصر قراءتنا الحوارية في هذين المؤلفين الأسباب التالية:

- هو قيمتهما المرجعية الثابتة عند المشتغلين بالدراسات البلاغية المعاصرة.
- تبني كل واحد لطريقته بمنظور تحليلي معاصر.
- تتبع كليهما لحركة تطور البلاغة العربية القديمة منذ نشأتها إلى قوتها، من مرحلة النضج إلى التحجر.
- اشتغال الكتابين على مادة بحثية تكاد تكون متشابهة، وإن افترقا في تأويل مدلولاتها، وتعليق الأحكام بجملتها وتفاريقها.

حاولنا في هذا الفصل طرح بعض الأسئلة التي استخلصناها من قراءتنا للكتابين، ولمؤلفات أخرى لها نفس التوجه، هي أسئلة تبنتها **خطاطة الأطروحة** حول **الحوار الوهمي** الذي جرى بين الكتابين والكاتبين، بين (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**) وبين (**التفكير البلاغي عند العرب**)، بين العمري الذي أراد أن يلزم به نفسه، في مواجهة كتاب صمود، وهو بصدد موضوع تاريخ البلاغة العربية عموماً.

يقول محمد العمري: «لم يقدم لنا الجاحظ ما يدل على تفريقه بين المستوى المعرفي العام للبيان والمستوى الاقناعي التداولي الخاص، بحيث يكون الثاني، الذي اعتبرناه بلاغياً، مستوى من مستويات الأول الذي اعتبرناه لغوياً أو سيميائياً»[1]، وهذا فيه إغفال والتفاف على ما أصبح معروفاً ومعتمداً في الدراسات الجاحظية من اعتذار للجاحظ عن العيوب المنهجية التي تكشفت للمعاصرين، بسبب الفارق الزمني وما نتج عنه من تراكم معرفي مكّنهم من إعمال الأدوات المنهجية المتعددة، والرؤى العلمية الناضجة، للكشف عن اختلالات التأليف ونقائصه، ومع أنّ هذه الأدوات تتيح ذلك، إلاّ أنها لا تبيح لنا أن نطالب الكاتب بما يتعدى الأفق المعرفي لعصره، ومن الغريب اللافت للانتباه أن العمري نفسه يشير إلى ذلك في كتاب آخر، دون أن يوظفه في تلطيف حكمه حول الإسهام الجاحظي[2].

وفي الفصل نفسه نجد العمري وفي الكتاب نفسه يؤكد حكمه القاسي في حق الجاحظ بكلام شديد، حين يقول: «لم يكد الجاحظ ينتهي من تعريف البيان باعتباره فهماً وإفهاما بالوسائل اللغوية وغير اللغوية حتى قايض كلمة بيان بكلمة بلاغة ... قلنا قايض لأنه يقدم **بيان** يرتب العلاقة بين المفهومين، كان يتحدث عن البيان باعتباره موضوعاً للكتاب ثم صار يتحدث عن البلاغة باعتبارها الموضوع نفسه ... فيتحدث عن الخطابة كمرادف للبلاغة، ولا غرابة في ذلك فقد كانت البلاغة في تصور ذلك العصر تنظر إلى الخطابة بقدر ما سينظر البديع إلى الشعر»[3]، ما يسوّقه العمري هنا من ملاحظات ينفرد بها بين جمهور النقاد، يناقض ما يدعيه من استعانة بالمناهج المعاصرة، ولا سيما مناهج القراءة والتلقي، التي كانت محاورها غير موجودة[4] بنسبة كبيرة.

فقراءة النصوص القديمة تقتضي استحضار آفاقها المعرفية، وانتظارات قراء تلك الحقبة التاريخية، من خلال النظر في منجزات النقاد والبلاغيين الذين

---

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية اصولها وامتداداتها، ص: 201.

[2]- محمد العمري، البلاغة بين التخييل والتداول، (د ط)، دار افريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، 2005، ص: 39-40.

[3]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 201.

[4]- أنظر الجداول اللاحقة من هذا المبحث، ص: 24-25، حول تمظهر نظرية القراءة والتلقي في كتاب محمد العمري (البلاغة العربية أصولها وامتداداته)،

عاصروا الجاحظ، أو تقدموا عليه في الزمن، وهذا ما يغفله العمري إغفالاً متعمداً، ليكون بمقدوره إنجاز القراءة المخالفة للتراث البلاغي القديم بأي ثمن، ويتجنب الحوار الصريح مع صمود.

والذي يدلنا على هذا الحرج الذي نستشعره بوضوح عند قراءة كتاب العمري، وإصراره على تهميش الجاحظ في إعادة بناء النظرية البلاغية العربية، وذلك ظاهر في فلتات لسانه أو زلات قلمه التي لم يستطع أن يتحكم فيها، وهو يخوض في قضايا البلاغة في كتب أخرى له.

في هذا الفصل نحاول أن نستعرض الحوار الذي جرى بين حمادي صمود ومحمد العمري حول بلاغة الجاحظ، كما نحاول إبراز ماهية هذا الحوار الذي جرى بينهما، وهو محاولة كشف بلاغة أبي عثمان وتقييمها من طرف العمري وصمود، فكلا الرجلين حاولا استثمار رصيده المعرفي في إيجاد طريقة مثلى لاستمالة القارئ العربي عموماً، وبما أن أسبقية صمود لتأليف كتابه: (**التفكير البلاغي عند العرب**) على العمري في كتابه: (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**) قد تفتح لنا مجال البحث حول تصورهما لبلاغة أبي عثمان بصورة عامة.

ومن خلال كتاب (**التفكير البلاغي عند العرب**) الذي ينتهي فيه حمادي صمود للارتقاء بالجاحظ كمركز للبلاغة العربية، نجد محمد العمري في كتابه (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**) حاول جاهداً أن يؤخر الجاحظ، وينزع عنه مركزيته في الأدب والبلاغة، معاكساً حمادي صمود الذي كان سباقاً في وضع الجاحظ في مركز البلاغة العربية، في حين نجد محمد العمري يفضل ابن وهب كمركز للبلاغة العربية، على اعتبار أن الجاحظ لم يأت بجديد في **البيان والتبيين** خاصة ما تعلق بالبيان، ويرى أن المؤسس الحقيقي للبيان العربي هو ابن وهب.

2. اشكالية البحث ونموذج التحليل:

ننطلق من فرضية عززتها محورية الجاحظ ومركزيته في البلاغة العربية، كما افترضنا فرضيات أخرى من خلال هذه القراءة، قد نصل بها لنتائج تساعدنا على تصور من هو الأولى بالتقديم **الجاحظ** أم **ابن وهب** في التربع على عرش البيان، فافترضنا أن الجاحظ هو أس ومركز البلاغة العربية،

وافترضنا أن كتاب (**التفكير البلاغي عند العرب**) قد سدّ الثغرات وقدّم ما كان مرجوا منه.

وبين ذا وذاك نجد هذه (**القراءة الحوارية**) ولّدت لنا بعضا من الأسئلة التي أنتجتها قراءتنا للمشروعين، وقد جاءت التساؤلات كالتالي: ماذا أضاف العمري إلى ما جاء به صمود في كتابه؟ وإن كانت هنالك إضافة حقيقية، فلماذا خلا كتاب العمري من الاعتراض على صمود في مجمل الأطروحة التي حملها كتابه ؟ ولماذا اختار العمري أن ينتقد بعض الباحثين (صغيري الأسماء)، على أن يخوض مناقشة علمية جادة مع كتاب اعترف بفضله في مقدمة كتابه، وعمل على نقضه في متنه وعتباته، دون الإحالة الواضحة إليه ؟.

وهنا إذ ننوه بأن الجاحظ هو واضع اللبنة الأولى للبلاغة العربية باتفاق الدارسين، فهو صاحب السبق في التأسيس لها، «ولعلنا لا نغلو إذا قلنا بعد ذلك كلّه بأن الجاحظ يُعدّ – غير منازع- مؤسس البلاغة العربية، فقد أفرد لها لأول مرة كتابه (**البيان والتبيين**)، ونثر فيه كثيراً من ملاحظاته وملاحظات معاصريه»[1]، ولم يتحقق له هذا إلاّ بالدراسات والبحوث البلاغية والنقدية العربية التي صاحبت المدوّنة الجاحظية، ولعل هذا ما أكسبه مكانة سامقة في تاريخ البلاغة العربية.

لقد حاول حمادي صمود تبني البحث في هذه البلاغة قديمها وحديثها، وحاول في مشروعه إبراز أحقية الجاحظ ومركزيته في البلاغة العربية، كما «يمكن اعتبار أطروحة حمادي صمود حول (**التفكير البلاغي عند العرب**)، التي صدرت طبعتها الأولى عن الجامعة التونسية بداية الثمانينات، من الاجتهادات التي شكلت قفزة نوعية في إعادة قراءة البلاغة العربية القديمة وفق منظورات جديدة»[2]، فقد استعان بالبنيوية والأسلوبية واللسانيات للاشتغال على التراث البلاغي الجاحظي.

يقول الباحث عن مشروعه هذا: «يمتد عملنا على ستة قرون وهو إطار يحيط ببداية التفكير البلاغي وبأقصى ما وصل إليه من نضج واكتمال، كما

---

[1]- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ط:14، دار المعارف، القاهرة، 2013، ص: 58.

[2]- عبد الواحد مرابط وآخرون، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة قراءات في أعمال الدكتور محمد مشبال، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط:1:، ص: 4.

نوعنا المصادر التي استقينا منها مادتنا فلم نقتصر على المؤلفات التي اشتهرت بمنزعها البلاغي الصرف وحاولنا الاستفادة من كتب التراث الأخرى التي تناولت ظاهرة اللغة من زوايا مختلفة»[1]، في ظل المكتسبات اللغوية الجديدة التي ساعدته كثيراً في تقصّي بلاغة أبي عثمان الجاحظ.

المنهج والآليات

1.تمهيد:

لابد لأي عمل رصين من منهج علمي يسلكه الباحث، لأن الاستفادة الحقيقية من المناهج الغربية لا تكون بالنقل والتكرار فحسب، بل بإعادة إنتاجها في سوق النقد الأدبي العربي، عبر رؤية تاريخية تقوم على دراسة متأنية ومعمقة للمادة النقدية البلاغية العربية في شرطها التاريخي والحضاري[2]، وهذا ما حاول استغلاله حمادي صمود في مؤلفه هذا، فكان بحق بشرى للدارسين من بعده، عبر المادة التي زجّ بها فيه.

في هذا المبحث وفي قضية المنهج والآليات التي أحاطت بمشروع قراءة المدونة الجاحظية، لأن أول ما تكشف عنه آثار الجاحظ «شيوع الروح المنهجية في ثناياها، ففكره قائم على الملاحظة والتحليل والمقارنة والنقد والتمحيص وكشف التضاد والتناقض الداخلي في الأفكار المطروحة عليه»[3]، فهذه طريقته وآلياته في الكتابة، كيف لا وهو عاشق للمعرفة، مولع بها وبامتلاكها وامتلاك مفاتيحها، شغوف بالاطلاع على مختلف مصادرها ومراجعها وأصولها.

ومن جانب آخر يعتبر المنهج الذي وظّفه حمادي صمود لقراءة البلاغة والنقد العربيين، من أهم الأشياء الجديدة التي أتى بها في كتابه (**التفكير البلاغي عند العرب**)، وباقي الأبحاث السابقة التي قامت بدورها في قراءة التراث العربي بلاغة ونقدا، نخص بالذكر قراءة شوقي ضيف في كتابه (**البلاغة العربية تطور وتاريخ**)، وقراءة عباس أرحيلة في كتابه (**الأثر الأرسطي في**

[1]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 13.

[2]- ينظر: عبد الله العروي، الإيديولوجية العربية المعاصرة (صياغة جديدة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط:1، 1995.

[3]- عباس أرحيلة، الكتاب وصنعة التأليف عند الجاحظ، ص: 21، نقلا عن إلياس فرح، الصراع الفكري عند الجاحظ، ص: 10.

البلاغة والنقد العربيين حتى القرن الثامن الهجري)، وقراءة محمد الوالي في كتابه **(الاستعارة في محطات يونانية وغربية وعربية).**

أصبح معروفاً تميز حمادي صمود عن معاصريه في قراءته الجديدة للبلاغة العربية، فقد استعان بمناهج غربية محضة، استثمر في المكتسبات البنيوية واللسانيات، فكان مشروعه تركيبياً يعتمد النظرة الشمولية في قراءته للتراث، هذا دون إغفال (المنهج التاريخي) الذي رصد به الظواهر البلاغية والنقدية والتفكير البلاغي عند العرب، كالبيان والبديع والمجاز، وغيرها من المباحث البلاغية العربية.

يقول حمادي صمود: «إن المنهج في تصورنا لا يقتصر على طرائق العلماء في التأليف وتنظيم فصول أبوابها، كما لا يتحدد بالصبغة الغالبة على دراستهم أدبية كانت أو كلامية، وإنّما يتجاوزوها إلى تدقيق مسالكهم في الاهتداء إلى مواطن الجودة والقبح في الكلام واستكناه المستندات النظرية والمتطلبات المبدئية التي على أساسها واجهوا مسألة القيمة الفنية وأخرجوا كتبهم»[1].

ولأهمية المنهج في توجيه القارئ واستمالته يقول أيضا: «والمؤلف على بيّنة من غزارة المادة التي يعالجها وتشعبها، حاد الوعي بضرورة ترسم منهج محكم يمكن من إخضاعها وسوقها إلى القارئ في أبواب واضحة الفواصل متينة الروابط، إلاّ أن الإنجاز الفعلي بقي دون الوعي المنهجي النظري فجاء تخطيط الكتاب صورة لهذا الصراع الذي حملناه على التقاء مفهومين للكتابة لديه: التدوين والتنظيم»[2]، وهذا منهجه في التأليف الذي أصبح مشروعا بحق ينتفع به المتلقي والباحث في أفانين البلاغة.

وتبعا لهذا التصور حاول الباحث رجاء عيد بمنطق (نقد النقد) أن يتابع رحلة صمود التي كانت في تقديره شاقة مشوقة، ومن ثم فقد وقف ابتداءً على منهج صمود في كتابه قائلا: «إنه لم يلتزم بمنهجه في القسم المخصص لدراسة الجاحظ وتعليل المؤلف لذلك الخروج في كلتا المرتين يبدو غير مقنع»[3]، ففي

[1]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 480.
[2]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 12.
[3]- رجاء عيد، مقال: مجلة فصول، ص: 234.

الخروج الأول يكون تعليله بأن الجاحظ وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي، وقد جره ذلك لبعض الاضطرابات المنهجية.

وفي ما يخص المقاربة المنهجية للكتاب يقدم لنا حافظ الجمالي قراءة في مشروع صمود «وبمنطق النقد الواصف (**Critique descriptive**) يبين أن منهج صمود في مقاربته للبلاغة العربية طريف متميز»[1]، وهذا اعتراف منه بأن منهج حمادي صمود في الكتاب هو منهج دقيق توصل به إلى ما يريد الوصول إليه.

وهنا نقف على نظرية متكاملة عند حمادي صمود تقدّر «أن الكلام وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحض، جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية (**extra linguistique**) من روابط»[2]، وهو سبقٌ للمؤلف شحن البلاغة العربية بنظريات غربية ساعدته في اكتشاف مضمرات التراث العربي القديم.

ومع استجابة المؤلف لما تتطلبه المفاهيم اللسانية المعاصرة، نجده قد «تنبه إلى استباق مهم عند الجاحظ، يتمثل في إدراكه لأفضلية اللغة الطبيعية وهيمنتها كنظام سيميائي على الأنظمة السيميائية الأخرى، وهو ما يقول به السيميائيون المعاصرون»[3]، وفي البيان والتبيين نجد الكثير من هذه المفاهيم التي استطاع الجاحظ أن يوظفها في كتابه.

يحاول صمود كشف أسرار المادة البلاغية عند الجاحظ، وذكر سبب إشراكه للمادة اللغوية بالمادة البلاغية، و«يبدو من وجهة ألسنية عامة، أن البحث البلاغي والنظر في الأساليب نظرا يرغب عن الانطباع ومجرد الانفعال ويروم كشف السر في جودتها وفضل بعضها على بعض لا يتأتى إلاّ بعد معرفة دقيقة بقواعد اللغة والضوابط التي تتحكم في ما قد يقوم بين أقسامها من

[1]- ينظر: حافظ الجمالي، ملاحظات قصيرة حول كتاب التفكير البلاغي عند العرب، نقلا عن: محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ط:1، 2019، ص:240.

[2]- ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 185.

[3]- دردار بشير، مقال: إسهام الجاحظ في تاريخ البلاغة العربية قراءة حوارية لأطروحة العمري في كتابه، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، مجلة الآداب واللغات، مجلة دولية علمية أكاديمية، المجلد السابع، العدد الثاني، ربيع الثاني 1440ه، ديسمبر 2018م، ص: 231.

علاقات»[1]، كما أن توظيف الطاقات الصوتية التي تنتج عن الوظيفة الأدبية والفنية كالسجع مثلا.

والجاحظ لم يقتصر على اللغة وحدها، بل عدّ **العقد** و**الإشارة**، و**الخط**، و**النصبة**، من وسائل التواصل، و«بدأ الجاحظ من البيان كنظرية معرفية عامة وانتهى إلى خطابية قائمة على المقام والإشارة»[2]، حتى وإن اعترف تصريحا بأن اللغة أهم تلك الوسائل وأوفاها، وفي خضم هذه المباحث لا ينبغي أن نحمّل المؤلف ما لا يحتمل، فالمعاني وإن كان للباحثين فيها مقالات بين من يرى بأهميتها، وبين من يرى قلة وزنها مقارنة بالألفاظ بصفة عامة، وهذه هنة لا يُعرف بها الجاحظ، فالألفاظ والمعاني كلها درر من درر الجاحظ كما بيّنه صمود.

إنّ القراءة التي تتعامل مع التراث اللغوي العربي القديم «كموجود لغوي قائم الذات، باعتباره كتلة من الدوال المتراصفة، وإعادة قراءته، فقراءة صمود عرضت آراء لغوية جاحظية في محاولة منه لاستنطاق نصوصه، والوقوف على ما فيها من نظرات لسانية «لم تهتد إليها البشرية إلاّ مؤخرا بفضل ازدهار علم اللسان منذ القرن العشرين»[3]، فمقولات الجاحظ تحاكي حد التطابق مقولات الدرس اللساني الحديث، الذي يراعي البعد الاجتماعي للغة.

تحدث الجاحظ عن مفاهيم لها صلة بلسانيات النص، وإلى علم أمراض الكلام، وعيوب النطق، فقد تحدث عن اللثغة، فذكر أربعة أحرف تدخلها اللثغة وهي: القاف والسين واللام والراء، وهي لثغ تتأدى باللسان ويصورها الخط، ولم يفت الجاحظ تصنيف اللثغ السابقة حسب مدارج الرفعة والحقارة، واليسر والعسر، كما تحدث عن التعتعة واللفلفة «**إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألف، وقيل بلسانه لفف**»[4]، كما تحدث عن عيوب كثيرة تصيب المتكلم تعتبر عيبا في البيان والتبيين.

---

[1]- حمادي صمود، التفكير البلاغي، ص: 46.
[2]- محمد العمري، المحاضرة والمناظرة في التأسيس البلاغة العامة، مواجهة بين زمن الجرجاني وزمن القزويني، أفريقيا الشرق، 2017، ص: 115.
[3]- عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، للنشر والتوزيع، تونس، (ب ط)، ص:31.
[4]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج:1، ص:31.

وقف الباحث حمادي صمود على نص الجاحظ التالي: «**وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الاشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور وكان أنفع وأنجع والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي الله عز وجل يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه بذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم**»[1]، فالإفصاح وجلاء الألفاظ هو من مباحث الجاحظ البلاغية التي اشتغلت عليها النظريات الغربية اليوم.

وقد حفلت الساحة بمؤلفات وأطروحات نهجت نهج حمادي صمود في إبراز بلاغة الجاحظ هي كالآتي:

- **التفكير اللساني في الحضارة العربية الإسلامية** لعبد السلام المسدي.
- **تأملات في نظرية الدلالة في الفكر اللغوي العربي** لأحمد المتوكل.
- **أصول تراثية في علم اللغة** لزكي حسام الدين.
- **بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب** لعبد الجليل مرتاض.

والناظر في هذه المؤلفات وفي مضامينها يدرك جليا تقارب وجهات النظر بينه وبينها، بين نظرة لسانية خالصة، وبين تراثية تتزين بتراث العرب.

مشروع محمد العمري

1.تمهيد:

يبدأ العمري مبحثه الخاص بالجاحظ في كتابه: **(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)** بهذا التمهيد محاولاً التقليل فيه من جهود الجاحظ البيانية والتأليفية، بحيث نجده يقول: «وكثيراً ما اعتبر الجاحظ مجرد جامع لما استقر إلى حدود عصره من مصطلحات ومفاهيم نقدية وبلاغية»[2]، ومن خلال هذا الكلام الذي استهل به دراسته حول بيان الجاحظ: والسؤال المطروح: لماذا حاول العمري الاستفتاح بهذا الكلام الذي جعل من الجاحظ مجرد جامع لا غير، وهو كلام عار

[1]- المرجع نفسه، ج:1، ص:90.
[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 189.

عن الصواب بشهادة المحققين والدارسين الذين أثبتوا للجاحظ (أنه معلم فكر وأدب)، وكثير من الشهادات التي تنسف قول العمري هذا.

كما أن العمري أورد كلاما لمحمد الصغير بناني في كتابه: (**النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب**)، حول استغرابه من (**البيان والتبيين**) هل هو كتاب بلاغي؟ أم هو كتاب أدبي؟ أم هو كتاب ديني؟ أم هو كتاب عقدي؟ أو هو كتاب للمتكلمين؟ وبالرغم من أن محمد الصغير بناني حاول الاجابة عن هذه التساؤلات حيث نجده يقول: «سنبين أنه وإن كان يتناول جميع هذه المواضيع إلا أنه يدور حول محور أساس هو محور الإعجاز»[1]، وهي إجابة أوردها العمري دليلا على تخبطه في إبعاد البيان عن الجاحظ على الأقل وإلا ما هو سبب إعجابه بكلام محمد الصغير بناني بأن (**البيان والتبيين**) لا يخرج عن محور الإعجاز؟

ثم لا يبرح أن يعيد نفس الكلام في الصفحة الموالية بحيث نجده يقول: «الغرض من إيراد هذا الكلام إظهار مدى الحيرة والتضارب في الرأي حول استراتيجية الكتاب»[2]، وهو كلام صحيح في فحواه وقال به الكثير من الدارسين، والسؤال المطروح: ما هو السبب الذي يجعل العمري يصدّر به مبحثه هذا خاصة وأنّ (**البيان والتبيين**) يعتبر من أصول الكتب الأدبية، وما غايته في ذلك ؟

وبالمقارنة مع مبحث آخر في نفس الكتاب نجده يدافع عن ابن قتيبة ويذكر جميل خصاله، أما الجاحظ لم يذكره بخير كما ذكر مع ابن قتيبة، يقول ممتدحا ابن قتيبة: «خصّص ابن قتيبة حيزا كبيرا من كتابه تأويل مشكل القرآن لاستعراض مطاعن الطاعنين في القرآن حكاية عنهم قبل أن يصنفها في موضوعات متميزة، ويتصدى لها بالرد»[3]، وهذا لا نجده في استفتاح كلامه عن الجاحظ ! فهل يفقد عدله في الحكم على الرجلين، وإنصافه لكل منهما كما يتطلبه البحث العلمي الرصين؟ أم أن العمري حاول منذ البداية أن ينتقص جهود

[1]- محمد الصغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب، ص: 45.
[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 190.
[3]- المرجع نفسه، ص: 143.

الجاحظ الأدبية والبيانية والبلاغية، وينتزع منه المركزية البلاغية انتزاعاً ؟ هذا ما نحاول الوصول إليه بشكل أو بآخر في بحثنا هذا.

والذي يهمنا في هذا البحث هو رأي البلاغيين القدماء، الذين استعان بهم العمري لتمرير مشروعه الذي خالف فيه حمادي صمود (**مركزية جهد الجاحظ البلاغية**) بابن وهب أولاً، والعسكري ثانياً، وابن سنان ثالثاً، على اعتبار أن ابن وهب سيكون البياني الأول ومركزاً للبلاغة العربية، ولذا جعل العمري كتاب (**البيان والتبيين**) عرضة لسهام النقد لهؤلاء الثلاثة، بادئاً بابن وهب، الذي سيكون مشروعه كبيراً عند العمري على اعتبار أن «مفهوم البيان عند الجاحظ مفهوم إجرائي»[1] فقط.

من جهة أخرى نجد حمادي صمود يرى قراءة ابن وهب لمنجز الجاحظ (**البيان والتبيين**) قراءة شاذة، فابن وهب يرى أن ما قدّمه الجاحظ عن البيان لا يتطلع للمتوقع من عنوان الكتاب، فكتاب (**البيان والتبيين**) قُرئ رفضاً وقبولاً، من زاويتين، «رفض البيان (من قبل ابن وهب) وقبلت الفصاحة (من قبل ابن سنان)»[2]، هذا الرفض من طرف ابن وهب ليس مقياساً لرفض البيان وإخلاء كرسي البلاغة لابن وهب، بعد أن شغله الجاحظ لردح من الزمن.

كما أن ابن وهب حاول تجاوز الجاحظ على الأقل من جانب البيان، يقول ابن وهب: «البيان على أربعة أوجه: فمنه بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال القلب واللب، ومنه البيان بالكتاب الذي يبلغ من بعد وغاب»[3]، وقد غاب (العقد) من خطاطة ابن وهب وهو نوع من الإشارة خاص بأصابع اليدين، وهو عنصر مساعد للّغة عند الجاحظ، بينما عند ابن وهب يتمثل في الاعتقاد أو التصور، أي معالجة المعرفة عقلياً، ولكن عند الجاحظ لسانياً.

من هنا ندرك جليا أن ابن وهب أراد أن يؤسس مشروعاً بيانياً يستدرك فيه على المشروع البياني عند أبي عثمان الجاحظ، ولذا نجد العمري يرى بأن

---

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 191.

[2]- محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، المغرب، 2013، ص: 131-134.

[3]- ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص: 56.

لا سبيل لفهم بيان الجاحظ ومشروعه، دون المرور على قراءة ابن وهب للجاحظ، فابن وهب يرى أن الجاحظ لم يقدم شيئا يستحق في باب البيان[1]، وعلى هذا الأساس نجد العمري يقدم إبن وهب على الجاحظ.

2.مشروع العمري ومقاصده:

من المهم أن نذكر عبارة العمري في مدخله العام حول التأريخ للبلاغة العربية، إذ يستهل عمله بأن كتابة تاريخ البلاغة العربية مسألة ملحة لاعتبارين: عام وخاص وهو اعتبار منهجي يختص بتغير ظروف القراءة، حيث يقول: «وقصارى ما يطمح إليه (عمله) أن يكون خطوة في السعي لكتابة تاريخ شامل للبلاغة العربية»[2]، ثم يحدد المسار الذي يسير فيه من أجل مقصده[3]، مذكراً بأن التيارات النقدية الحديثة «ترى إمكانية إعادة قراءة البلاغة على ضوء المكتسبات المنهجية الجديدة»[4]، ويضع العمري أعماله في هذا الإطار.

إذن مشروع العمري يهدف إلى تأريخ البلاغة العربية تأريخاً يحافظ على الأصول التي بنيت عليها، ولا يهتم فقط بالتسلسل التاريخي المتتابع لأنّ هناك من التيارات والاتجاهات التي تنشأ متوازية ومتابعتها تحتم اعتماد مفاهيم كالنسق والبنية .. وغيرها من المفاهيم التي سنتوقف عندها لنكتشف استثمار العمري لها.

وبين -بعدين- بعد بيداغوجي، والآخر تحليلي، قد سبق الحديث عنه، فإنّه «يساهم في ربط المشاريع والمنجزات والكشف عن خلفياتها أو تفسيرها واستكشاف مساراتها الكبرى»[5]، هذا البعد الأخير هو ما أراد العمري كذلك الوصول إليه، أي كتابة تاريخ للبلاغة العربية أو دراسة مشاريعها، بالبحث الشامل عن الأصول، والربط بين المنجزات، وإقامة العلاقات، واختيار المشاريع وقراءتها في ضوء معطيات عصرها، والتفريق بين المشروع الذي يحمل هماً نسقياً وبين عمل تراكمي.

---

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 13.

- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:9.[2]

[3]- ينظر: بوعافية محمد عبد الرزاق، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة، مذكرة ماجستير، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 02، 2014-2015، ص:76.

- المرجع نفسه، ص:11. [4]

- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:6.[5]

2. مناهج البحث في مشروع محمد العمري:

كذلك رأينا في كتاب محمد العمري (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)، أنه استعان ببعض مناهج البحث العلمي، أبرزها المنهج اللساني البنيوي، والذي سمح لنا بقراءة نسقية للمستوى الصوتي، الذي عانى من الإهمال ردحاً من الزمن، ومن إيجابيات طرقه لهذا البحث أنّه أنتج ثلاثة كتب هي كالتالي:

- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية.
- تحليل الخطاب الشعري: البنية الصوتية.
- اتجاهات الصوتية في الرؤية البلاغية.

4.المنهج اللساني البنيوي:

تكمن أهمية المعالجة اللسانية البنيوية «في استخراج الأنساق، وتفسير الفعالية، ذلك أن الأسئلة التي تطرحها القراءة تتطلب مبدئيا في نظر الباحث معالجة بنيوية تقوم على التحليل والإحصاء، كما تتطلب معرفة سوسيو أدبية، إنها قراءة تركيبية تفهم السابق من اللاحق واللاحق من الساب»[1] ، وهذا كان سبباً أن ُكتبت له الشهرة في كل طبعة من طبعاته، وبطرقه للمناهج الغربية واستغلاله لها، في التعامل مع النصوص التراثية.

هذه الكتب تناولت الإيقاع في البلاغة العربية والشعر القديم، حيث أدخل الكتاب الأول المادة الصوتية الإيقاعية المبثوثة في البلاغة العربية في نسق دال يفسر فاعليتها ويجعلها إجرائية، وذلك من خلال مقولات أساسية، هي: الكثافة والفضاء والتفاعل الصوتي الدلالي، وبين مدى غنى التراث البلاغي العربي، وقدرته على توفير المادة اللسانية الواصفة للنص الشعري، في حين قدم الكتاب الثاني خطة لقراءة التراث الشعري العربي، أمّا الكتاب الثالث فكان قراءة جديدة لتاريخ الفكر البلاغي العربي[2]، وهو بحق كتاب لا يستغني عنه باحث في الحقل البلاغي خصوصاً.

---

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 11.

[2]- ينظر: محمد العمري، المشروع العلمي بين المأمول والمتاح، 11 مارس، 2006، www.medelomari.net

بالإضافة للمنهج التاريخي، ونظرية التلقي، والمنهج التداولي، وكذلك الترجمة التي كانت من أبرز الآليات التي ساعدت محمد العمري على رصد القضايا البلاغية الغامضة، وبالتالي نستطيع القول إن منهج العمري في الكتاب قد تعدد من منهج لآخر، ومن نظرية لأخرى.

5. نظرية التلقي:

باشر العمري مشروعه مستعينا بآليات **نظرية التلقي** التي لا تخرج محاورها عن الذي سنرفقه في الجدول أدناه، مستعينين بمقال للدكتورة ابتسام بن خراف في مجلة قراءات[1]، ومقال للدكتورة سميرة سلامي تحت عنوان **إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ**[2]، **وفعل القراءة** لآيزر، وكتاب **أنماط تلقي السرد** لعبد الواحد التهامي.

1. جدول يبين محاور نظرية التلقي:

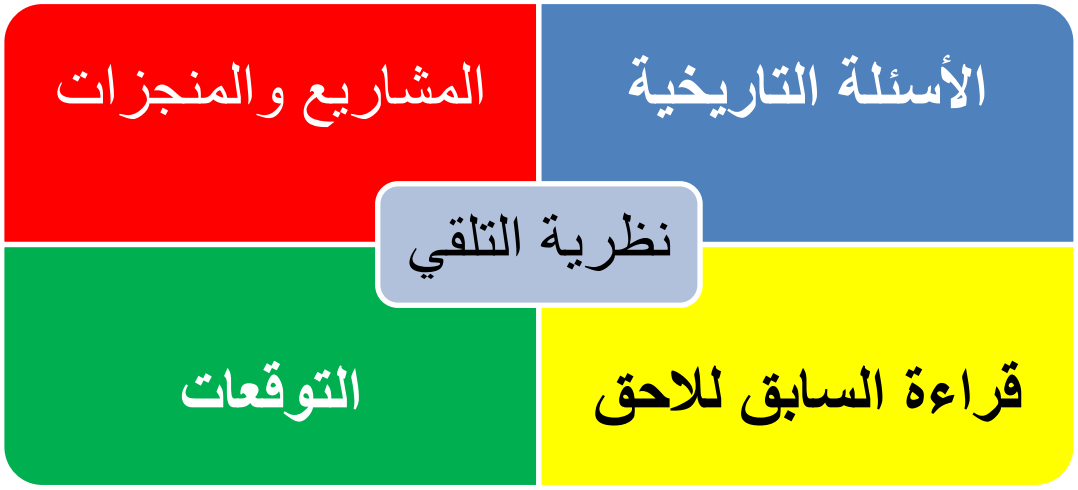

2.تمظهر نظرية التلقي في نصوص العمري:

في هذا المبحث نحاول إسقاط آليات التلقي الكبرى على مدونة العمري، عندها يمكن لنا أن نحكم على كتابه (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)، وهل نجح في توظيفها كآلية من آليات المعالجة للنصوص، واستخراج ما لا يستخرج من دونها.

---

[1]- ابتسام بن خروف، جامعة باتنة، الجزائر، تلقي النص البلاغي عند الدكتور محمد العمري مقاربة وصفية تحليلية، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، مجلة قراءات، جامعة بسكرة.

[2]- سميرة سلامي، إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ، مجلة التراث العربي، عدد: 106.

2. **الأسئلة التاريخية**: الأسئلة التاريخية التحقيبية كان لها النصيب الأوفر في كتاب العمري (البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)، وكذلك مركز الجذب والمحور المستقطب في منهاجية هذا البحث هو الكشف عن الأسئلة والأجوبة والكشف عن المشاريع والمنجزات، ومرحلة السرد التاريخي، (ص:9)، ومرحلة تلخيص الكتب (ص: 9)، وانطلق من هذه المحاور باعتباره نحا منحا تاريخيا، خاصة في **الأصول** أو في منابت البلاغة العربية الأولى، وذلك في المدخل العام حيث سماه **بالتأريخ قراءة**، وغيرها من الأبواب التي أولى لها أهمية بالغة في الحديث عن التأريخ للبلاغة في إطار تساؤلات اهتدى بها من الأصول إلى الامتدادات، مستأنساً ببارت **Roland Barthes (تاريخ البلاغة)**، وجان كوهن **Jean Cohen**، وكبدي فاركا **Kibedi Varga**، وجان مولينو، **Jean Molino**، وطامين **joelle Gardes tamine** .

4.قراءة اللاحق للسابق:

نستطيع القول إن قراءة اللاحق للسابق قد تحققت بنسبة ضئيلة في كتابه، وذلك حينما تحدث عن قراءة ابن وهب للجاحظ، وقراءة «تفهم السابق من اللاحق واللاحق من السابق، ولكي تكون مثمرة ينبغي أن تتحول إلى مستوى الهم أو الانشغال الموجه الذي يفسح المجال للتحليل والتأريخ لسد الفجوات»[1]، قراءة ابن وهب للبيان والتبيين، قراءة السكاكي لكتاب دلائل الاعجاز.

كما أسعفته المفاهيم القرائية بشكل جلي في إعادة النظر في موقف الدارسين المحدثين من تعامل الفلاسفة العرب مع التراث الأرسطي (**كتاب فن الشعر**).

5.المشاريع والمنجزات:

في هذه القضية نجد العمري يتحدث عن اكتشاف الفروق بين المشاريع والمنجزات، وما يؤدي إليه ذلك من تضارب بين منطوق النصوص من المؤلف البلاغي الواحد.

6.التوقعات: أما فيما يخص محور التوقعات نجده مفقودا في الكتاب.

---

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 12.

7. الاختيارات الشعرية: عملية الاختيار كانت عملية قرائية نقدية من العمري للبيان والتبيين، أعقبتها عملية تأويلية لاستخراج الصور البلاغية، (**اختيار أبو تمام**).

والسؤال المطروح هل نجح العمري في إدراج هذه الآليات في مصنفه، والغالب أنها مفقودة من خلال تفحص ما كتب، وهذا مما يضيّق الخناق عليه، في أنه استعان بنظرية التلقي، ربما في جزئيات صغيرة من هذه النظرية المتكاملة، وأخيرا «يمكن القول بأنه لو أتيح (لهولب) لو أتيح له الاطلاع على ادب الجاحظ، لما توانى في تصنيفه ضمن الإرهاصات الواضحة بنظرية التلقي»[1].

التداولية عند العمري

1. تمهيد:

هذا المنهج يعتبر وسيلة إجرائية لمقاربة النص الخطابي، إن التداولية الحديثة تعطي بُعدا للعمري في مشروعه، وعلى عملية التأثير في المتلقي والإقناع، وقد سميت هذه النظرية عند الجاحظ اليوم بـ: (**التداولية أو نظرية التأثير والمقال**)، «وهي تشبه القراءة التنويرية عند الباحث جابر عصفور»[2].

2.وظائف التداولية عند الجاحظ:

استطاع العمري أن يعيد أصول التداولية من خلال مؤلفات الجاحظ خاصة في (**البيان والتبيين**)، لأنها تهتم بالتواصل من ناحية التأثر والتأثير، وتوصيل المعنى لتعميم الفائدة.

1. جدول يبين الوظائف التداولية المعتمدة في البيان والتبيين:

[1]- سميرة سلامي، إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ، ص: 218.

[2]- محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة، وجدل التأويل بحث في مسارات تلقي الخطاب البلاغي الجاحظي في النقد الحداثي، ص: 15.

3. جدول يبين وظائف الحجاج عند الجاحظ في البيان والتبيين:

4. المنهج التاريخي:

هذا المنهج التحقيبي استعان به المؤلف كثيرا في استكشاف القضايا البلاغية الكبرى من المنابت إلى الامتدادات الكبرى، حيث رصد به القضايا البلاغية في التراث العربي عبر فترات زمنية متعاقبة.

5. الترجمة:

ساعدت الباحث العمري عدة عوامل في عرض مشروعه هذا، وفهم القضايا البلاغية والتأصيل لها، من هذه العوامل نجد الترجمة، حيث نجده ترجم عدة مؤلفات موازية، مثل (**البلاغة والأسلوبية**)، لهنريش بليث، (**والهزلي والشعري**) لجان كوهن، و**النص بنياته ووظائفه** لـ فان ديك، وقد نجح في ترجمة المقاصد، إلى جمل عربية سليمة، وضبط المصطلحات من مصادرها الأصلية[1].

5.المفاهيم والمصلحات التي صاحبت مشروعه:

اعتمد العمري في مصنفه (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**) على الكثير من المصطلحات البلاغية والنقدية.

1. جدول يحتوي المصطلحات المرفقة من قِبل العمري في كتابه:

الرقم	المصطلح	شرحه
01	**الناقد**	هو جزء من مكونات التلقي الأدبي، بل هو عمادها، المتخير ناقد حتى وإن وقع في أقصى حدود النقد التي تفصله عن القراءة العادية[2]
02	**الاختيار**	عملية نقدية صرفة، ينتهي كما وقع بالفعل، أو هو عملا لذات المتخيرة في تفاعلها مع النصوص، لا يهتم بكمالها بل بما تمثله من قيم فنية وفكرية ومقولية لأن صاحبه يعمم مقولات مثل: الاستعارة، التجنيس، الطباق والتشبيه[3]

[1]- ابتسام بن خروف، جامعة باتنة، الجزائر، تلقي النص البلاغي عند الدكتور محمد العمري مقاربة وصفية تحليلية، ص: 52.

[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 67.

[3]- المرجع نفسه، ص: 70.

03	**التخييل**	مفهوم التخييل عند ابن سينا (ت428ه) هو الكلام الذي تذعن له النفس فتستنبط عن أمور، وتنقبض عن أمور من غير رؤية وفكر واختيار، وبالجملة تنفعل انفعالا نفسيا غير فكري سواء أكان القول مخيلا أو غير مخيل فإنه قد يصدق بقول ولا ينفعل عنه[1].
04	**التغيير**	التغيير عند العمري هو انزياح عن مواضعة قائمة على مطابقة بين الدال والمدلول، ويتسع للصور الدلالية كالتشبيه والاستعارة، والاستعارة من الضد، والاستعارة من التشبيه، والاستعارة من الاسم[2].

1.المتلقي في كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها:

يستهدف العمري في كتابه عدة أنواع من جمهور المتلقين، كما يقول: «هذا العمل يستهدف طوائف من القراء من التلميذ في الثانوية العامة إلى الطالب في الدراسات العليا المتخصصة، إلى اللساني إلى المنطقي والفيلسوف، إلى المحامي المجتهد، فضلاً عن الباحث المتخصص في البلاغة والأسلوبية، يستهدف كل من يعاني إشكالات تحليل الخطاب من مراصده المتعددة»[3]، فالمتلقي عند العمري متعدد ومختلف الأطياف.

2. جدول يبين المصطلحات التي لها علاقة بالتأويل:

الرقم	المصطلح	شرحه
01	**الشعرية**	**Poétique** ارتبط لفظ الشعرية بجاكبسون، كان نتيجة جهود الشكلانيين الروس بصياغته اللسانية، وقد اعتبره من سار على درب جاكبسون وظيفة لسانية تتفرع عن نحو اللغة التواصلية[4].
02	**الشعرية عند**	**Roman Jakobson** هي ذلك الفرع من اللسانيات الذي يعالج الوظيفة الشعرية، في علاقاتها مع الوظائف الأخرى للغة، وتهتم

[1]- إبراهيم الحمداني، المصطلح النقدي في كتب الإعجاز القرآني، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع (2013)، الأردن، ط1، ص:2.

[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 260-261.

[3]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 05.

[4]- المرجع نفسه، ص: 21.

	جاكبسون	بالمعدن الواسع للكلمة.
03	**الأسلوبية عند العمري**	يقصد بها تشبيه النظام اللغوي بقطعة الشطرنج وحده كفيل بجعل المبتدئ في اللغة يلاحظ أنه نسق بدون قلب، أي أنه نسق يفتقد الجانب الوجداني، وهذا الذي بحث عنه بالي **bally** وأسماءه الأسلوبية[1].

1. جدول يبين المصطلحات التي لها علاقة بالمجال التداولي:

الرقم	المصطلح	شرحه
01	**النظم عند العمري**	النظم عند العمري: تدخل هذه العملية في نطاق الوظيفة الحفظية للنظم أي تسهيل الاحتفاظ بالصور والأمثلة في الذهن باعتبارها حقائق نهائية، كما يعتبر أيضا درجة تحول العلاقات اللفظية إلى أشكال نصية مخصوصة[2].
02	**النظم عند الجرجاني**	يقول العمري: يدخل مصطلح النظم عند الجرجاني في معناه الحصري الدقيق للدلالة على نسق أجزاء الجمل حسب ما يقتضيه النحو في كل موضع وحسب الأغراض[3].

1. جدول يبين المصطلحات التي لها علاقة بالمجال البنيوي في كتاب العمري:

الرقم	المصطلح	الشرح
01	**النسق**	ظهر مفهوم النسق عند ابن سنان الخفاجي وهو أن يستمر في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقا بالأول وغير منقطع عنه.[4]
02	**البنية**	هي النظام المنسق الذي تتحد كل أجزائه بمقتضى رابطة تماسك تجعل من اللغة مجموعة منتظمة من الوحدات أو العلامات التي تتفاضل ويحدد بعضها بعضا سبيل التبادل[5].

[1]- المرجع نفسه، ص: 24.
[2]- المرجع نفسه، ص: 64.
[3]- المرجع نفسه، ص: 105.
[4]- ابراهيم الحمداني، المصطلح النقدي في الإعجاز القرآني، ص: 278.
[5]- سمير سعيد حجازي، النظرية الدبية ومصطلحاتها الحديثة، دار طيبة للنشر، (د ط)، (د ت)،

2. جدول يبين المصطلحات التي لها علاقة بالمجال البلاغي في كتاب العمري:

الرقم	المصطلح	شرحه
01	**البلاغة عند العمري**	مكون من مكونات النظرية النقدية وثمرة من ثمرات الملاحظة النقدية الأولية[1].
02	**البيان**	نجد أن العمري يذهب مذهب الجاحظ في مفهوم البيان ويأخذ برأيه ولم يعط مفهوما مغايرا، وذلك من خلال التعريفات التي أوردها في كتابه.
03	**البيان عند الجاحظ**	البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب عن الضمير[2].
04	**البيان عند الشافعي**	اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول متعبة الفروع[3].
04	**علم المعاني**	هو مركز البلاغة عند السكّاكي، هو علم المقامات والمقاصد.
05	**علم البيان**	هو العلم المكمل لعلم المعاني، علم الاختلافات الدلالية.
06	**علم البديع**	البديع يستخدم بمعنى الجديد في بلاغة الشعر، الذي أتى به الشعراء المحدثون في العصر العباسي[4].

ص: 118.

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 41.

[2]- الجاحظ، البيان والتبيين، ص: 76.

[3]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 159.

[4]- جميل عبد المجيد، البديع، بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998، ص: 13.

1.تمهيد:

في هذا المبحث نحاول رصد قراءة حمادي صمود في كتابه: (**التفكير البلاغي عند العرب**)، محاولين التركيز على رؤية الجاحظ لبلاغة البيان، «حيث اهتم بالحجاج والجدل المنطقي، وأولى المتكلم (منشئ الخطاب) مكانة كبيرة إلى جانب اهتمامه بالحدث الكلامي، وتنحل معطيات التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس الهجري –في عرفه- إلى ثلاثة مضامين وهي: المفاهيم، والمنهج والإجراء»[1].

إنّ حمادي صمود يعتبر من «الباحثين العرب المعاصرين القلائل الذين تبنوا البلاغة بمفهومها الواسع -الشرقية والغربية، القديمة والمعاصرة- خيارا بحثيا في فترة السبعينات»[2]، وتعد أطروحته -هذه- قراءة في المدوّنة البلاغية العربية حتى القرن السادس الهجري من أفضل المؤلفات في هذا العقد في التأريخ لنشأة البلاغة العربية، وقد قسّمها إلى ثلاث روافد كبرى هي: البلاغة قبل الجاحظ، والحدث الجاحظي، وبعد الجاحظ.

وحاول الاستثمار في هذه -القسمة- ليجعل من دور **الجاحظ** مركزيا في هذه البلاغة، ولا نعرف بالضبط الدوافع التي جعلته يُقدم على هذا الصنيع، وهل اعتماده على هذه القسمة وربطها بالبلاغة العربية سيساعده في حل إشكالية التفكير البلاغي عند العرب.

وها هو الناقد الكبير حماد الجبالي* يشيد بمؤلفي المغرب العربي بتميزهم عن غيرهم في أسلوب الكتابة يقول: لقد اعتدنا أن نجد لأسلوب الكتابة في المغرب طابعا يميزه بعض الشيء عن الأسلوب المألوف في الشرق إما في تركيب بعض الجمل، أو استخدام بعض المفردات دون غيرها، أما في هذا الكتاب فإن الأسلوب يتجاوز الخصائص المحلية إلى أبعد حد، حتى لينسى

---

[1]- رمضان يوسف، البلاغة الجديدة في الدراسات العربية الحديثة (حمادي صمود ومحمد العمري نموذجا)، مجلة التعليمية، جامعة معسكر، المجلد 4، العدد جانفي 2017، ص: 04

[2]- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط 1، 2008، ص 272.

***- حافظ الجمالي ولد في حمص عام 1917، تلقى تعليمه في حمص ودمشق وباريس، عمل مدرساً ومفتشاً للتربية، وسفيراً في الخرطوم وروما، وسمي وزيراً للتربية، ورئيساً لاتحاد الكتاب العرب.**

القارئ أن كاتبه من قطر آخر، وحتى ليقول متى عرف ما نسبه، إن بضاعتنا ردت إلينا[1].

2.عتبة الفهرس:

إنّ الناظر في فهرس الكتاب يرى أن «الأستاذ حمادي صمود خصّص قسما كبيرا (**للتأسيس**) (ص 137-307)، وقد قدّم متنا مهما للبلاغة الجاحظية وضبط الكثير من المفاهيم وقيّد الكثير من الأحكام بشأن هذه البلاغة»[2]، وهي شهادة مهمة من محمد العمري الذي كانت بحوثه تتقاطع مع بحوث صمود، وفي مؤلفاته أبان عن نوايا مضمرة حول- محاولته- التقليل من مركزية الجهد الجاحظي وتحويلها إلى ابن وهب، وهذا موثقٌ في كتابه (**البلاغة العربية أصولها وامتداداها**)، وفي (**مجلة فصول**) نجد الباحث رجاء عيد قد أعاب على صمود غلوه في الجاحظ.

متن الكتاب

تمهيد:

كان عمل صمود في الكتاب مرتكزاً على الجانب التاريخي التطوري، فقد كان اهتمامه كبيرا بالجاحظ «الذي ظلم أيما ظلم عندما اتهم بأنه لم يفرق بين معاني كل من (البيان) و(الفصاحة) و(البلاغة) وأنه خلط بين مدلولات هذه الألفاظ»[3]، وفي القسم الأول من الكتاب ارتكز عمله على بلاغة ما قبل الجاحظ، وهو إعادة لما هو متداول ومكرور - من قبل- من طرف القدماء والمحدثين، وقد ناقش فيه صمود قضية عوامل النشأة، بحيث بدأها بالشعر وبيّن

1- ينظر: حافظ الجمالي، ملاحظات قصيرة حول كتاب التفكير البلاغي عند العرب اسسه وتطوره الى القرن السادس، مجلة الموقف الأدبي –تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق العدد 135 – 136، 1982، نقلا عن: محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل، مركز الكتاب الأكاديمي، الاردن، ط1، 2019، ص:240.

2- ينظر:محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 18.

***- أديب أكاديمي عريق، عميد لكلية الآداب وأستاذ البلاغة والنقد بجامعة بنها بمصر ويمتاز الدكتور رجاء عيد بالبحث الأكاديمي في علوم العرب الأدبية واللغوية والبيانية، يحلل ذلك بثاقب فكره، وعميق أدبه وحسن بيانه وعلى سبيل ذلك كتابه (البحث الأسلوبي معاصرة وتراث).**

3- فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، مكتبة الانجلو مصرية، 2005، القاهرة، 2005، ص169.

أهميته عند العرب، وأورد قصصا مطعون في صحتها، كرواية تحكيم النابغة بين الخنساء والأعشى، أو رواية تحكيم أم جندب بين علقمة وزوجها أمرئ القيس، كما كانت له نقولات حول الشعر الأول، وكيف ساهم في نشأة البلاغة العربية.

وفي مرحلة (**النشأة**) تطرق صمود إلى قضية تقعيد اللغة، وسيطرة اللغويين ردحا من الزمن وحملهم لواء النقد والتصويب في هذه المرحلة، وكشف عن مجهوداتهم في الذود عن حياض اللغة، كما تعرّض لقضية التعليم والتعلم، وقضية المؤثرات الأجنبية، وتحدث عن المجاز القرآني، وأغلب هذه المباحث هي مباحث مجترة في الدراسات السابقة، لم يكن له فيها سبقٌ بعد، أما باقي المباحث التي جاءت في ثنايا كتاب (**التفكير البلاغي عند العرب**)، قد كان بارعا في تصورها، وتصويرها لنا، وأبان عن قوةٍ علمية وجهبذة في التأليف قلّ أمثاله في هذا الزمن.

لقد رام حمادي صمود مباشرة التفكير البلاغي العربي من منطلق التفاعل بين التراث والحداثة، فقد استعان المؤلف بالمفاهيم اللسانية والنقدية الحديثة، وبفعل المزاوجة الذكية بين النظريتين التاريخية التطورية والآنية التأليفية، نجده ربط المناقشات الخارجية بالقضايا الداخلية بتصور الجاحظ العام، وهو عمل خالف فيه صاحبه نمط الدراسات القائمة على السرد التاريخي وتلخيص مضامين الكتب، وبهذا نستطيع القول إن قراءة حمادي صمود تعتبر فتحا جديدا لدى البلاغيين كيفية التعامل البنيوي واللساني مع التراث البلاغي العربي.

نحس مع صمود في هذا المشروع أنه ذو مستوى راقٍ في محاورته للتراث البلاغي عموماً وللجاحظ خصوصاً، حتى أنّه لم يقتصر على الأحكام العامة والانطباعات الذوقية، بل تطرق كذلك إلى مباحث الكلام، والصمت، وهما من المباحث التي أسهم فيهما أبو عثمان بشكل كبير، «ولا تقتصر أهمية ما تفطن إليه الجاحظ على ما فيه من مظاهر الحداثة والمعاصرة، فقد اهتدى في وقت مبكر إلى ما يحف بظاهرة الكلام من الملابسات»[1]، وقد بيّنت الدراسات أنّ الجاحظ كان ذا استباقات مثيرة، في كثير من القضايا التي اكتشفتها الدراسات الحديثة مؤخراً.

[1] ـ حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 185.

اعتراضات محمد العمري على صمود

تمهيد:

لقد كانت اعتراضات محمد العمري مبطنة في الرد على حمادي صمود، وهذا ظاهر وواضح في محاولته تأخير الجاحظ عن مكانته الأساسية في البلاغة العربية، كما أنه حاول جاهدا تأخير الجاحظ عن مركزية البلاغة، وفي هذا المبحث نحاول تدارك هذا الأمر بحيث نرد عليه بآراء من الدارسين والنقاد الذين قالوا بمركزية جهد الجاحظ، وهم الأشهر.

وهنا نقف على أبرز معاصريه، والذين كانت لهم مواقف إيجابية من بلاغة الجاحظ، كأبي حيان التوحيدي في كتابه: (**البصائر والذخائر**)، وياقوت الحموي في كتابه الموسوم بـ: (**معجم الأدباء**)، وابن خلكان في كتابه المعنون بـ: (**وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**)، وأبي الحسن بن علي المسعودي في كتابه: (**مروج الذهب ومعادن الجوهر**)، والهمذاني في: (**المقامات**)، وكل هذه المؤلفات قد أشارت إلى سبق الجاحظ في البلاغة والنثر عموما[1].

أما **أبو حيان التوحيدي** (تـ 414هـ) فقد ألف كتابا يشيد ببلاغته وبراعته وبيانه سماه (**تقريظ عمرو بن بحر**)[2]، ونقل في كتاب (**البصائر والذخائر**) نصاً يدل على إعجاب ثابت بن قرة ببيانه وسعة علمه وثقافته، حيث يقول: فسبحان من سخّر له البيان، وعلمه وسلم في يده قصب الرهان وقدمه[3].

أما ثابت بن قرة (تـ 288هـ) فيشيد بالجاحظ إشادة كبيرة، حيث يقول: «وهمُّك من رجل، وناهيك –من عالم، وشرعك من صدوق-»[4]، وهي شهادة تعني الكثير من (إقليدس العرب) كما يقولون، وتُنبيك عن قيمة الجاحظ وعلو كعبه بين هؤلاء الكبار.

---

[1]- ينظر: عبد الواحد التهامي، أنماط تلقي السرد في التراث النقدي، دراسة في أدب الجاحظ، دار عالم الكتب، للنشر والتوزيع، الأردن، 2015، ص: 07- 08.

[2]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج: 8، ص: 150.

[3]- عبد الواحد التهامي، أنماط تلقي السرد في التراث النقدي، ص: 09، نقلا عن أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ص: 233.

[4]- عبد الواحد التهامي، أنماط تلقي السرد في التراث النقدي، ص: 10، نقلا عن ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص: 95- 98.

وها هو أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد (تـ 360ه) فأشار إلى بلاغة الجاحظ وفصاحته وبيان وذلاقة لسانه وقوة بديهته وحجاجه يقول: ثلاث علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس: أما الفقه فعلى أبي حنيفة ... وأما الكلام فعلى أبي الهذيل، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة، فعلى أبي عثمان الجاحظ[1].

من طليعة هؤلاء نجد شارل بيلا **charle bellat** صاحب كتاب (**الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء**)، وشوقي ضيف في كتابه (**البلاغة تطور وتاريخ**)، وحمادي صمود في كتابه (**التفكير البلاغي عند العرب**)، وحسن السندوبي في كتابه الموسوم بـ: (**أدب الجاحظ**)، ومصطفى ناصف في (**محاورات مع النثر العربي**)، ومحمد الصغير بناني في : (**النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ**)، وادريس بلمليح في كتابه: (**الرؤية البيانية عند الجاحظ**).

مقارنة بين منهج صمود ومنهج العمري:

إنّ الاستفادة الحقيقية من المناهج الغربية لا تكون بالنقل والتكرار فحسب، بل بإعادة إنتاجها في سوق النقد الأدبي العربي، عبر رؤية تاريخية تقوم على دراسة متأنية ومعمقة للمادة النقدية البلاغية العربية في شرطها التاريخي والحضاري[2]، وهذا ما حاول استغلاله حمادي صمود في مؤلفه هذا، فكان بحق بشرى للدارسين من بعده عبر المادة التي زجّ بها فيه.

ولأجل هذا أدرج حمادي صمود مبحثا في كتابه عنونه بـ: (**المنهج**)، حيث تحدث فيه عن المنهج أو المناهج التي سار عليها علماء البلاغة في تحديد جودة الكلام وما هي الصعوبات التي تواجه الباحث في طرح المشكلة، أو تطرحه بناء على تصورات غامضة، وغير فعالة، وهذا فيما يخص منهج علماء البلاغة أما المنهج الذي سار عليه في كتابه (**التفكير البلاغي عند العرب**) الذي سيأتي في هذا المبحث.

---

[1]- المرجع نفسه، ص: 11، نقلا عن معجم الأدباء، ص: 102- 103.

[2]- ينظر: عبد الله العروي، الإيديولوجية العربية المعاصرة (صياغة جديدة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1995.

والمنهج في تصور حمادي صمود، لا يقتصر على طريقة العلماء في التأليف وتنظيم فصول أبواب، كما لا يتحدد بالصبغة الغالبة على دراستهم ادبية كانت أو كلامية، وإنّما يتجاوزها إلى تدقيق مسالكهم في الاهتداء إلى مواطن الجودة والقبح في الكلام واستكناه المستندات النظرية والمتطلبات المبدئية التي على أساسها واجهوا مسألة القيمة الفنية، وأخرجوا كتبهم بالصفة التي هي عليها[1].

المنهج عند حمادي صمود

تمهيد:

بغض النظر عن المنهج المتبع في الكتاب الذي لا يستغني عليه مؤلف أي كتاب، فإن حمادي صمود أكّد طيلة هذا البحث نجملها في النقاط التالية:

- أن المادة البلاغية المتوفرة تجمعت من روافد عديدة.
- تداخل المواضيع البلاغية وعملية الاختيار تكون عسيرة.
- تحديد المنهج يصعب في تمييز المؤلفات البلاغية عن غيرها.
- اقتصر حمادي صمود على المؤلفات التي عرفت بطابعها البلاغي المتميز أي تلك التي حاولت وضع مبادئ عامة لتقسيم الكلام، ولم يرتبط بجنس أدبي معين.
- المادة البلاغية في بعض المؤلفات النقدية لا تقل، من حيث الكم على الأقل.

والمنهج الذي استعان به الكاتب سيجعل القارئ يدرك بحق صعوبة إدراكه «لأن طبيعة المنهج وخصائصه ستظل عصية الفهم على القارئ العربي الذي سيخفق، لذلك، في إدراك القيمة الثورية للبنيوية، أما تقديم المنهج من خلال تجليه في تحليل نصوص مألوفة لدى القارئ العربي فإنه، فيما يرجى، سيتيح له الفرصة لإدراك الهوة العميقة بينه وبين المناهج الأخرى السائدة في الدراسات العربية»[2].

---

[1]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 480.

[2]- كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، بيروت، ط:01، 1979، ط:02: 1984، ص: 11.

ولأهمية المنهج في توجيه القارئ واستمالته يقول أيضا: «والمؤلف على بيّنة من غزارة المادة التي يعالجها وتشعبها، حاد الوعي بضرورة ترسم منهج محكم يمكن من إخضاعها وسوقها إلى القارئ في أبواب واضحة الفواصل متينة الروابط، إلاّ أن الإنجاز الفعلي بقي دون الوعي المنهجي النظري فجاء تخطيط الكتاب صورة لهذا الصراع الذي حملناه على التقاء مفهومين للكتابة لديه: التدوين والتنظيم»[1]، وهذا منهجه في التأليف الذي أصبح مشروعا بحق ينتفع به المتلقي والباحث في أفنان البلاغة.

1. اعتراضات على حمادي صمود منهجيا:

لا يمكن لأي باحث أن يخلو عمله من النقص، نقول هذا في الأعمال العادية المتواضعة، فكيف بمشروع ضخم كمؤلف حمادي صمود، الذي بلغت شهرته أقصى الدنيا، ولا يستغني عنه باحث، يبحث في علوم البلاغة، وعلى هذا الأساس كان هذا الكتاب وكغيره عرضة لسهام النقاد حيث وقفوا على بعض الزلل فيه والنقائص التي كان يمكن أن يتداركها الكاتب.

فمن هنّاته وسقطاته المنهجية التي كان للباحثين فيها نصيب من الرد عليه، ومن أحسن ما وجدناه يثلج الصدر في تقويم ونقد ما في هذا الكتاب، هي دراسة جادة لرجاء عيد، وهو مقال نشر في مجلة (**فصول**) وتبعا لهذا التصور حاول الباحث رجاء عيد بمنطق (نقد النقد) أن يتابع رحلة صمود، ومن ثمّ نجده يقف منتقداً لصمود قائلا: «إنه لم يلتزم بمنهجه في القسم المخصص لدراسة الجاحظ وتعليل المؤلف لذلك الخروج في كلتا المرتين يبدو غير مقنع»[2]، ففي الخروج الأول يكون تعليله بأن الجاحظ وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي، وقد جره ذلك لبعض الاضطرابات المنهجية.

وفي ما يخص المقاربة المنهجية للكتاب يقدم لنا حافظ الجمالي* أيضا قراءة في مشروع صمود «وبمنطق النقد الواصف **Critique descriptive** يبين أن منهج صمود في مقاربته للبلاغة العربية طريف متميز»[3]، وهذا اعتراف

---

[1]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 12.

[2]- رجاء عيد، مقال: مجلة فصول، ص: 234.

[3]- ينظر: محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ط1، 2019، ص:240.

منه بأن منهج حمادي صمود في الكتاب هو منهج دقيق توصل به إلى ما يريد الوصول إليه.

وفي كتابه **(التفكير البلاغي عند العرب)** نجده اختار **الحدث الجاحظي** في البلاغة العربية كمرجع له، في تدوين هذا العلم في إطار قراءة لسانية، «وصورة هذه القراءة أنها ناقشت أفكار البلاغيين في جملة من المقولات اللسانية التي جاء بها العلم الحديث، ويبدو أن الرجل كسب هذه الثقافة اللسانية جيدا، وحاول أن يقدم قراءة جديدة لتاريخ البلاغة العربية من منطلق التفاعل مع النصوص اللغوية»[1].

ونحن هنا نقف على نظرية متكاملة عند حمادي صمود تقدّر «أن الكلام وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعي فيه بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحض، جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية **(extra linguistique)** من روابط»[2]، وهو سبقٌ للمؤلف شحنُ البلاغة العربية بنظريات غربية ساعدته في اكتشاف مضمرات التراث العربي القديم.

المنهج عند محمد العمري من خلال البلاغة العربية أصولها وامتداداتها

تمهيد:

تعد مقاربة محمد العمري _انطلاقاً من المنهج الذي اعتمده وصولاً إلى النتائج التي توصل إليها- امتداداً لمشروع حمادي صمود في كتابه: (**التفكير البلاغي عند العرب**)، «ولعلنا لا نبتعد عن الصواب إذا اعتبرنا الباحث محمد العمري أحد أبرز البلاغيين العرب المعاصرين الذين أسهموا في تجديد مفهوم

[1]- عثماني عمار، ملامح تجديد البلاغة العربية في كتاب البلاغة العربية قراءة أخرى لمحمد عبد المطلب، دراسة تحليلية نقدية، رسالة دكتوراه، جامعة احمد بن بلة وهران، 2015-2016، ص: 20.

[2]- ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 185.

البلاغة وتطويره تنظيراً وانجازاً»[1]، وقد تمثل هذا في تتبعه للموروث البلاغي على مختلف مستوياته، كيف لا وهو المحقق في الامتدادات الكبرى وبداياتها في الأسيقة التاريخية والمعرفية التي تلتها.

فكتاباته أعادت للمكتبة العربية توهجها، وأسهمت في تطوير آليات النظر البلاغي والمقاربة المنهجية، عن طريق تتبع مسار الموروث البلاغي العربي القديم، الأمر الذي مكّنه من إعادة الاعتبار للبلاغة عبر بناء نظرية حديثة وعامة تستوعب ما هو تخييلي وحجاجي، «وتنفض الغبار عن المكون الاقناعي الحجاجي والمعرفي العام للبلاغة العربية، الذي ظل مهملاً عبر تاريخ طويل من المدارسة والتحليل والتنظير، ممّا مكّنه من الإسهام في بناء نموذج بلاغي يستوعب الخطابين معاً في سياق ما يسمى بالبلاغة العامة»[2].

وعن المنهج الذي استعان به محمد العمري يقول مسالتي: «لا شك أن للمعالجة البنيوية اللسانية، جدوى كبيرة في استخراج الأنساق وتفسير الفعالية، ولذلك حاول الباحث العمري استثمارها إلى أقصى حد ممكن»[3]، وقد ساعدته هذه المناهج على تقصي الحقائق وتحليل الأسس الكبرى التي قامت عليها مملكة البلاغة العربية، كما أنه استغل مقترحات جمالية التلقي في بعدها التاريخي، وفي قراءته للجاحظ ارتكزت دراسته على الجمع بين البنيوية والتلقي، وآلية البنيوية تقدم وتساهم في مستوى الوصف والتفكيك والتركيب.

إن المنهج الذي وظفه محمد العمري لقراءة البلاغة العربية، منهجا مغاير عن الذي كان سائداً في السابق، حيث لم تكن التآليف تخرج عن المنهج التاريخي، بحيث تعتبر دراسته من أهم القراءات، والمشاريع الجديدة التي تشرف بها العمري، وتشرفت بها المكتبة العربية عموماً، وكما هو معلوم فإنّ الأبحاث السابقة التي قامت بدورها في قراءة التراث العربي، نخص بالذكر قراءة شوقي ضيف في كتابه: (**البلاغة العربية تطور وتاريخ**)، ومشروع حمادي صمود في كتابه الموسوم بـ: (**التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس، مشروع قراءة**)، وكذلك قراءة عباس أرحيلة في كتابه الموسوم بـ:

---

[1]- محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة، ص: 253.

[2]- المرجع نفسه، ص: 254- 255.

[3]- المرجع نفسه، ص: 26.

(الأثر الأرسطي في البلاغة والنقد العربيين حتى القرن الثامن الهجري)، وقراءة محمد الوالي في كتابه الموسوم بـ: **(الاستعارة في محطات يونانية وغربية وعربية)**.

ولقد استثمر الباحث محمد العمري في المكتسبات المنهجية الجديدة، في قراءته للبلاغة العربية القديمة، ولاسيما مكتسبات اللسانيات فجاءت قراءته تركيبية تعتمد النظرة الشمولية، وكذلك نظرية التلقي في بعدها التاريخي، إضافة إلى البعد البيداغوجي الذي يمنح المتعلم مساحة أكبر من تلقي المعلومات ويسهل ويختصر عليه المسافات، وذلك في وضع الخطاطات التي أكثر منها في كتابه.

حاول العمري في كتابه الجمع بين البعد البيداغوجي والبعد التأويلي «ولا شك في أن للمعالجة البنيوية اللسانية جدوى كبيرة في استخراج الأنساق وتفسير الفعالية، ولذلك حاولنا استثمارها إلى أقصى حد ممكن، غير أننا حاولنا أن نستعمل بعض مقترحات جمالية التلقي في بعدها التاريخي»[1]، وهذا الذي يقوم عليه الكتاب في الكشف عن مضمرات تاريخية سواء ما تعلق بالبلاغيين القدماء أو بالمؤلفات البلاغية.

1. مستوى التفاعل الحواري بين العمري وصمود:

2.العمري محاوراً للعمري:

لا يمكن لنا أن نتجاوز موقف العمري من الإسهام الجاحظي من حيث درجة حدّته، إلاّ من خلال تتبع الأماكن التي كشف فيها عن هذا الموقف في كثير من دراساته، وهنا نريد أن نتتبع العمري بمؤلفه بالتفكيك وإعادة التركيب، وهو كفيلٌ في هذه القراءة التي نحن بصددها في هذا البحث، كما نحاول الكشف عن حقيقة الأصوات المتعددة للعمري حول القضية الواحدة، فهذه الأصوات المتعددة لمتكلم واحد، تكشف لنا الحرج الذي عاناه العمري في الالتفاف على ما أجمع عليه جمهور الباحثين حول قيمة الإسهام الجاحظي و**مركزيته**.

يقول شارل بيلا **charles Pellat**: «ولا ندري إلى أية ظروف أو تأثيرات مباشرة يدين الجاحظ في انقطاعه إلى العلم، في حين أن لا شيء يؤهله لمهنة الكتابة، ولم نتوصل بعد إلى الإجابة عن هذه المسألة الشائكة إجابة مرضية،

---

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 11.

ولذا وجب علينا الاكتفاء بالظواهر دون محاولة تفسيرها إلا بنسبتها إلى ذكاء حاد فريد في نوعه، وميل وراثي للتفكير العقلي»[1].

في كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها

1. **عتبة الفهرس:** حتى نحيط بالكتاب لابد لنا من إجراء فحص فهرس لموضوعاته، الذي امتلأ بـ: (532 صفحة)، مقسّم على قسمين، خمسة للأول، وأربعة للثاني زيادة على مدخل عام من (37 صفحة)، لا يخصص الكاتب سوى فصل واحد، هو الفصل الرابع للجاحظ (ص 187-211)، أي (24 صفحة) من مجموع (519 صفحة) هو حجم الكتاب، وزيادة على ضآلة حجم ما خصص للجاحظ من صفحات، في كتاب يؤرخ لتطور البلاغة العربية، لم يذكر العمري اسم الجاحظ في عنوان الفصل: (**المعرفة والإقناع، من البيان إلى البلاغة**)، ولا في عناوين مباحث تابعة له، وهي أربعة مباحث على التوالي: مشروع البيان، مفهوم البيان، المعرفة والاقناع، مكونات الطاب البياني، المحتوى الفكري للبيان، ولا يذكره إلا في مبحث خامس في عبارة تحمل دلالة سلبية: (**البيان بعد الجاحظ**)[2].

2.جدول يبين موضوعات كتاب العمري:

كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها للعمري		
المدخل	التاريخ قراءة، البحث عن الأنساق، المنابت، العوامل، المسارات الكبرى، المنجزات البلاغية	**33 -9**
الأصول	تداخل البلاغة والنقد، البلاغة ومعيرة اللغة، البلاغة والنص المقدس، المعرفة والإقناع، البلاغة اليونانية.	**272-37**
الامتدادات	مقدمات، الخلفيات المذهبية، البلاغة المعضودة	**219-277**

[1]- شارل بيلا، الجاحظ في البصرة، بغداد وسامراء، ترجمة: ابراهيم الكيلاني، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص: 350.

[2] - أنظر: فهرس كتاب محمد العمري، البلاغة العربية ، أصولها وامتداداتها.

3.جدول يبين حجم الفصل الرابع من القسم الأول من الكتاب:

	المعرفة والاقناع من البيان إلى البلاغة
أ	مشروع البيان:
ب	مفهوم البيان: المعرفة والاقناع
ج	مكونات الخطاب البياني
د	المحتوى الفكري للبيان
ه	البيان بعد الجاحظ

محتوى كتاب التفكير البلاغي عند العرب

المجم	
1	البلاغة قبل الجاحظ (النشأة)
2	المادة البلاغية (المفهوم والمصطلح)
3	الحدث الجاحظي (البيان- المتكلم-الكلام)

4	البلاغة بعد الجاحظ إلى القرن السادس
المجم	

نلاحظ من خلال هذا الدول أن الحدث الجاحظي نال قسطاً كبيراً من فهرس الكتاب، وهذا يدلك دلالة واضحة على اعتناء حمادي صمود بالجاحظ، حيث أفرد له (170 صفحة)، أمّا الصفحات الخاصة بالجاحظ لم تتعد 27 صفحة أي بنسبة (5.07 بالمئة) في كتاب العمري، وهي نسبة ضئيلة مقارنة بما خصصه لبقية المباحث في كتابه (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)، نسبة الصفحات الخاصة بالجاحظ عند حمادي صمود تجاوزت (170 صفحة)، أي بنسبة **(23.7)**، وهي نسبة كبيرة مقارنة بالمباحث الأخرى التي تناولت الجاحظ.

ومع أن الفهرس لا يمثل سوى عتبة من عتبات الخطاب، فإن القراءة الفاحصة له تدلنا دلالة واضحة على أن صاحبه أراد مخالفة خطة صمود، واحتفائها الكبير بالجاحظ من خلال ذكره في عناوين الفصول الثلاثة الكبرى للكتاب: البلاغة قبل الجاحظ، الحدث الجاحظي، البلاغة بعد الجاحظ إلى القرن السادس[1].

1.متن الكتاب:

2.الموقف من الجاحظ:

والمستغرب في لائحة الاتهام التي يتفنن العمري في إعدادها ورفعها في وجه الجاحظ ومناصريه، هو مطالبته بإنجاز بحثي وتأسيس نظري مفاهيمي، لم يتحقق إلاّ في العصر الحديث، متجاهلاً الاستباق الذي حققه الجاحظ في عصره عندما حدّد موضوع علم العلامات، وعدد أصنافها، وهو ليس بالشيء الهين،

[1]- ينظر: فهرس كتاب حمادي صمود: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة).

يقول العمري: «لهذا أعتقد أن الرؤية البيانية عند الجاحظ مهما اتسعت، خاصة في بعض النصوص التي أوردها في باب البيان وفي الحيوان، وذكر فيها أصناف البيان الأخرى فكان عملية إخلاء لتحديد الموضوع الذي هو الدلالة باللفظ أي (باب العبارة) حسب خطاطة ابن وهب .. »[1]، ما العيب في أن ينطلق الجاحظ من المفهوم العام للبيان (العلامة السيميائية) كمقدمة، ليتعرض بعد ذلك للبيان اللغوي (العلامة اللغوية)، وهما يمثلان الشق النظري، ثم ينتهي إلى التطبيق على الممارسة البيانية، ممثلة في الخطابة[2].

إذا تركنا هذين الكتابين التوأمين واتجهنا إلى استنطاق كتاب ثالث للعمري أحدث صدورا منهما، ألفينا الفرق كبيراً جداً في درجة حدة الموقف السلبي من الجاحظ، بل لعلنا نخرج من قراءة هذا النص الأخير بانطباع أن صاحبه ليس هو العمري المتحدث في كتابيه السابقين.

العمري محاورا لصمود [3]

1.تمهيد:

يحضر صوت حمادي صمود في نص العمري حضوراً طاغياً حتى وإن لم يستشهد به العمري إلاّ مرتين في متن كتابه، فقد قضت خطة العمري الذي وجد في كتاب صمود صورة لما كان يعتزم كتابته من منظور معاصر، أن يتجاهل محتويات الكتاب وطروحاته وآراءه، وأن يموه خطته بأن يخرب الحجر الأساس فيها وهو مركزية الجاحظ في النظرية البلاغية العربية القديمة، باعتباره مؤسساً ملهماً لكل من جاء بعده، فيضمن بذلك لكتابه موقع القراءة الخلافية لموضوع تاريخ البلاغة العربية، غير أن ذلك المشروع الذي تحكمت فيه الاعتبارات الذاتية شعورياً ولا شعورياً، دفع العمري دفعاً إلى التضحية بالجاحظ ليصنع منجزه النادر، كيف تم ذلك؟

---

[1]- محمد العمري، الموازنات الصوتية/ في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، ص: 73.

[2]- المرجع نفسه، ص: 224.

[3]- عنوان مستل من مقال: دردار بشير، إسهام الجاحظ في تاريخ البلاغة العربية قراءة حوارية لأطروحة العمري في كتابه، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها.

الهاجس الذي صاحب العمري هو كيف أتميز عن صمود ولا يكون كتابي نسخة منه بنسبة من النسب، أو صورة من الصور؟ لم يكن بإمكان كتابي نسخة منه بنسبة من النسب، أو صورة من الصور؟ لم يكن بإمكان العمري أن يتجنب الإشارة إلى كتاب حمادي صمود، وهو الكتاب الذي صدر بحوالي عشرين سنة قبل كتابه، سنة 1980، فكان الذكر الصريح للكتاب وصاحبه مصحوبا بالإشادة[1].

في المدخل العام عند تعرضه لمراحل التأليف في تاريخ البلاغة، عادّا الكتاب ممثلا للمرحلة الثانية التي يسميها (مرحلة الكتابة من منظور حداثي لساني...) ملحا على تاريخ التأليف، وهو سنة 1980، إلحاحاً يكشف عن رغبته في تبرير استئناف القول في الموضوع[2]، فكأنما يكفي مرور عشرين سنة على تأليف كتاب ليكون مشروعا استئناف القول في موضوعه بالضرورة والحتم.

يعزز هذا الرأي الهامش الذي يعود فيه العمري إلى ذكر حمادي صمود وإبراز مخالفته له في تقدير قيمة الإسهام الجاحظي، يقول: «خصص الأستاذ حمادي صمود قسما كبيرا من أطروحته: التفكير البلاغي عند العرب لـ (**الحدث الجاحظي**) وهو حدث (**التأسيس**) (ص137-307)، وقد قدم متنا مهما للبلاغة الجاحظية وضبط الكثير من المفاهيم وقّد الكثير من الأحكام بشأن هذه البلاغة، وهذا الفصل من كتابنا يتقاطع ويتكامل مع عمله برغم أن توجها مصوب نحو بنية البيان والتبيين ومبادئ بلاغة الإقناع»[3]، ولنا أن نتساءل بعد إيراد هاتين الملاحظتين: لماذا استحضار حمود في الهامش، وإهمال محاورته في المتن؟ ولماذا الاكتفاء بالنقد المبطن لاحتفاء صمود بالجاحظ من خلال الإشارة إلى طول الفصل المخصص له وتحديد عدد صفحاته؟ ولماذا إغفال ملاحظة حضور الجاحظ في عناوين كل الفصول في كتاب صمود: (**البلاغة قبل الجاحظ**) و(**البلاغة بعد الجاحظ**) ؟ وأخيرا لماذا حصر الدراسة في البيان والتبيين، وقسرها على إبراز مبادئ بلاغة الإقناع دون غيرها من البلاغات[4] ؟

---

[1]- دردار بشير، إسهام الجاحظ في تاريخ البلاغة العربية قراءة حوارية لأطروحة العمري في كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 226.

[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 10.

[3]- المرجع نفسه، ص: 189.

[4]- دردار بشير، إسهام الجاحظ في تاريخ البلاغة العربية قراءة حوارية لأطروحة العمري في كتابه

وهنا نستطيع القول أن صمود باختياره الجاحظ لمشروعه القرائي كمركز للنظرية البلاغية العربية وذلك حين نجده يقول: «ولم نخرج عن هذا الالتزام إلا في القسم المخصص للجاحظ لأنه، في اعتقادنا، وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي بحيث تبقى الفترات الموالية تستلهم مادته وتستحضر مقاييسه»[1]، وهو ما يبرر لصمود انتهاج هذا النهج الذي وضع الجاحظ فيه بدل ابن وهي معارضا في هذا محمد العمري جملة وتفصيلا.

2. العمري وابن وهب:

إن المتأمل في ما كتبه العمري في (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**) حول جهود الجاحظ وابن وهب في البلاغة العربية والتأسيس لها، يتبين لها من خلال مطالعتنا المتواضعة أن العمري كان متحاملا على أبي عثمان منتقصا من شأنه تلميحاً لا تصريحاً وهذا ما سنورده هاهنا، في هذا المبحث، وها هو في يحيك مقارنة بين «اجتهادات منظرين آخرين سنحاورهم في أفق المقارنة، خاصة صاحب البرهان في وجوه البيان»[2]، وفي هامش الصفحة نجده يحيل إلى حمادي صمود ويشير إلى أطروحته: التفكير البلاغي عند العرب لـ (**الحدث الجاحظي**) وهو **حدث التأسيس**، مشيراً في الوقت نفسه بإسهام حمادي صمود في مقاربته للبلاغة الجاحظية.

فالمقارنة التي بدأها في هذا الفصل من كتابه: (**البلاغة العربية أصولها وامتداداته**) وكأنّه يحاول تقديم ابن وهب على الجاحظ كاستباق أولي يجعل القارئ يألف هذه المقارنة وذلك بإنزال الجاحظ إلى حد المقارنة وهي منقصة في حد ذاتها، وهي مقارنة غير عادلة.

وفي هذا المقام نستطيع الاستئناس بما يفيدنا في إضاءة هذه المسألة هو الرأي الرصين لعبد السلام المسدي في تفسير نقائص التأليف الجاحظي، يقول المسدي في إدراك واضح لمسألة التراكم المعرفي وأثرها على المنجز الجاحظي: (إنّ أول ما يطالعنا به كتاب البيان والتبيين) هو أن لصاحبه إحساساً واضحاً بضرورة إدراك منهج محكم إحكاما نهائيا، فهو فضلا عن تقسيم كتابه

البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 227.

[1]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 12.

[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 189.

الى أجزاء مقصودة الفواصل، ثم الى أبواب صريحة الحدود، يضع لجل الفصول عناوين فيها من التجريد والشمول ما يجعلها محركا دلاليا لكل المادة في الحامل للعنوان كما في باب البيان (75/1)[1].

3. الجاحظ وابن وهب التأسيس والاتباع:

بداية ومع التسلسل الزمني فإن الجاحظ سابق لابن وهب، ولا يشك أحد في انتفاع ابن وهب من الجاحظ خاصة وأنّه اطلع على بعض مؤلفات الجاحظ، وهي نفيسة، نفهمها من هذا الاتصال -اتصال ابن وهب بالجاحظ- ، وأكيد تتحقق هنا أفضلية التابع على المتبوع والأول على الآخر، وهنا يظهر مدى أهمية البيان والتبيين لدى ابن وهب.

وفي الصفحة (189) من **(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)** نجد العمري مبتدئا بأثر لأمجد الطرابلسي يقول في آخره «البيان والتبيين، وهو اختيارات أدبية صرف تحاول أن تتخذ صفة كتاب في البلاغة، وهي فعلا كتاب في البلاغة إلا أنها جد فتية وغير منضبطة»[2]، هنا يحاصرنا هذا التساؤل مثيرا بعضا من الدهشة لماذا صدّر العمري مبحثه هذا من كتابه بهذا الحكم القاسي والقادح في بلاغة أبي عثمان، وهل كانت هذه الخطة في تصدير كتابة مصادفة ؟

ثم نجده يواصل اتهاماته للجاحظ بطريقة ذكية، وذلك بذكر المثالب أولاً، استعداداً للانقضاض على بلاغة الجاحظ، والحكم عليه ابتدائياً، هو يرى أن **البيان والتبيين** هو مجموعة معارف، ونتيجة للاستطرادات، وليس ذا استراتيجية محددة ومضبوطة، والمصطلحات البلاغية والنقدية التي لا يربط بينها تصور نظري أو استراتيجية، هذا التفتيش عن المثالب أولا والتركيز عليها لن نجدها حاضرة في كلامه عن ابن وهب جملة.

والمستغرب في لائحة الاتهام التي تفنن العمري في إعدادها ورفعها في وجه الجاحظ ومناصريه هو مطالبته بإنجاز بحثي وتأسيس نظري مفاهيمي لم يتحقق إلاّ في العصر الحديث، متجاهلا الاستباق الذي حققه الجاحظ في عصره

---

[1]- دردار بشير، إسهام الجاحظ في تاريخ البلاغة العربية قراءة حوارية لأطروحة العمري في كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 227.

[2]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 189.

عندما حدد موضوع علم العلامات وعدد أصنافها وهو ليس بالشيء الهين، يقول العمري: «لهذا اعتقد أن الرؤية البيانية عند الجاحظ مهما اتسعت خاصة في بعض النصوص التي أوردها في باب البيان وفي الحيوان، وذكر فيها أصناف الدلالات على المعاني، هي رؤية بيانية لغوية تهتم بالبيان باللفظ بيانا متفاوتا أي بلاغيا، ذكر أصناف البيان الأخرى فكان عملية اخلاء لتحديد الموضوع الذي هو الدلالة باللفظ أي (**باب العبارة**) حسب خطاطة ابن وهب ...»[1]، وقد أكثر من الاستدلال على هذا في باب مفهوم البيان في كتابه (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**)[2].

ثم يضيف العمري في نفس الكتاب على أنّ بيان الجاحظ لا يخرج عن دائرة الرموز والعلامات في المجال السميائي العام «وهو المجال الذي وضع فيه الجاحظ البيان من الوجهة النظرية»[3]، وهنا يؤكد العمري أنّ البيان لا يخرج عن التنظير، خاصة في البيان والتبيين، أما البيان بالمفهوم المعرفي أو التطبيق، يبدو أنه متواجد في كتابه الحيوان (**النصبة والاعتبار**) كما دعاه الجاحظ.

ثم نجد العمري يعمل مقارنة بين الجاحظ وابن وهب، حيث يجعل العملية العلمية تتساوى بين الرجلين، وها هو يقول: «إن مراحل العملية العلمية هي نفسها أبواب البيان عند ابن وهب مع قليل من التأويل»[4]، وهي مقارنة توحي للتمهيد الذي يريد العمري أن يوصلنا إليه ويقنعنا به، هو تقديم ابن وهب على الجاحظ، وقد أورد هذا المخطط:

الجاحظ	الصمت + الاستماع	الحفظ + العمل	= النشر

[1]- محمد العمري، الموازنات الصوتية، في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، ص: 73.

[2]- دردار بشير، إسهام الجاحظ في تاريخ البلاغة العربية قراءة حوارية لأطروحة العمري في كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 196.

[3]- المرجع نفسه، ص: 196.

[4]- دردار بشير، إسهام الجاحظ في تاريخ البلاغة العربية قراءة حوارية لأطروحة العمري في كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 196.

ابن وهب	=1- الاعتبار	= 2- الاعتقاد	3- العبارة 4- الكتاب

وفي (الصفحة 200) من نفس الكتاب يستدرك العمري على الجاحظ في قضية البيان بحيث نجده يقول: «لم يقدم لنا الجاحظ ما يدل على تفريقه بين المستوى المعرفي العام للبيان والمستوى الاقناعي التداولي الخاص، بحيث يكون الثاني، الذي اعتبرناه بلاغياً، مستوى من مستويات الأول اعتبرناه لغوياً أو سميائياً»[1]، بينما نجد حمادي صمود في كتابه (**التفكير البلاغي عند العرب**)، وفي باب (**مفهوم البيان عند الجاحظ**) قد أولى بيان الجاحظ عناية كبيرة، بحيث احتوى على أكثر من (96 صفحة) كلها في البيان بأقسامه المتعددة، والبيان عند الجاحظ في نظر صمود يتدرج «من "العلامية" مطلقا إلى العلامة اللغوية بمستوييها العادي والأدبي»[2]، ومن خلال الرأيين نستنتج إن العمري ضيّق الخناق على بيان الجاحظ، بينما صمود استرسل كثيراً في توضيح ما استشكل من بيان أبي عثمان.

يرى العمري في نفس الكتاب أنّ الجاحظ قايض كلمة بيان بكلمة بلاغة (1/88 بالضبط)، يقول: «قلنا "قايض" لأنه لم يقدم أي بيان يرتب العلاقة بين المفهومين، كان يتحدث عن البيان باعتباره موضوعا للكتاب ثم صار يتحدث عن البلاغة باعتبارها الموضوع نفسه، غير أنه

من جهة أخرى لم يعتمد تعريف البيان السابق تعريفا للبلاغة بل صار يورد اقتراحات مختلفة منسوبة إلى الأمم مثل الهند والفرس وإلى أعلام من الثقافة العربية»[3]، والسؤال المطروح لماذا يرى العمري أن الجاحظ قايض البيان بالبلاغة ومن قال بهذا من المحققين من قبله؟ وهل حقا نعتبر الجاحظ تجاوز البيان واستقر على البلاغة؟ وهل تسمية كتابه بالبيان إقرارا باشتغاله على البيان أساسا في هذا المؤلف؟

3. بيان الجاحظ، بين حمادي صمود ومحمد العمري:

---

[1]- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 200.

[2]- المرجع نفسه، ص: 157.

[3] - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 201.

في هذا المبحث نحاول إجراء مقارنة بين البيان عند **محمد العمري، وحمادي صمود،** حتى نتمكن من معرفة حجم البحث في هذا البيان لدى الباحثين، وفي مثال غير بعيد عن هذا نبدأ بكتلة الصفحات التي أولاها حمادي صمود للبيان في كتابه (**التفكير البلاغي عند العرب**)، وهنا نجده عنون هذا المبحث بـ: **بمفهوم البيان عند الجاحظ** (من الصفحة 157-174) وضمّنه عناوين فرعية جاءت كالتالي:

1. جدول محتوى عناوين الفصل الخاص بالبيان عند محمد العمري:

العدد	العنوان	الصفحة
1	أنواع الدلالات على المعاني	162-158
2	من العلامة مطلقا إلى العلامة اللغوية	174-162
3	**البيان باللغة**	**200-175**
4	فضل الكلام على الصمت	182-175
5	عناصر الفعل اللغوي ووظائفه	200-182
6	**المتكلم**	**249-251**
7	مقتضيات الوظيفة	218-202
8	مقتضيات الابانة	232-218
9	مقتضيات المقام	249-233
10	**الكلام**	**296-251**
11	حد البلاغة	263-253
12	خصائص الكلام البليغ	296-263
	مجموع الصفحات التي تناولت البيان عند	**139** صفحة

	الجاحظ	

لقد كان نصيب (**البيان**) عند الجاحظ ضئيلاً في كتاب (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**) مقارنة بحمادي صمود، وقد جاء على النحو التالي حيث ابتدأه بفصل المعرفة والاقناع من البيان إلى البلاغة: (من الصفحة 187 إلى 214).

2.جدول محتوى عناوين الفصل الخاص بالبيان عند حمادي صمود:

العدد	العنوان	الصفحة
1	**مشروع البيان**	**190-189**
2	الاختلاف قراءة بيان الجاحظ من الصفحة	191-190
3	بناء كتاب البيان والتبيين	195-191
4	**مفهوم البيان، المعرفة والإقناع**	**197 -195**
5	البيان معرفة واستكشاف	(201-197
6	**مكونات الخطاب البياني**	**206 -201**
7	**المحتوى الفكري للبيان**	**211-208**
8	**البيان بعد الجاحظ**	**214 -211**

البيان عند محمد العمري

مجموع الصفحات التي تناولت البيان عند العمري: 26 صفحة.
من 189 إلى 215

البيان عند حمادي صمود

مجموع الصفحات التي تناولت البيان عند حمادي صمود: 139 صفحة.
من 157 إلى 296

2. جدول محتوى عناوين الفصل الخاص بالبيان عند حمادي صمود:

العدد	التعريفات التي أدرجها العمري في تعريفه للبيان
1	البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب عن الضمير
2	والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان/ الجاحظ
3	ومدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام

أما مادة **البيان** عند الجاحظ لا تخرج عن ثلاث محاور، كما يقول محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ففي الوظيفة الأولى نجد الحديث عن طبيعة البيان وقيمته من خلال تعريفه وربطه بالفهم والإفهام والدفاع والخطابة وما يتصل بها، بينما نجد الوظيفة الثانية الحديث عن المقام الخطابي (أحوال المخاطبين) وأنواع الأدلة على المعاني (اللغة، الإشارة، الخط، العقد ...)، أما الثالثة فيها الدفاع عن البيان العربي[1].

[1]- ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط: 01، 2008، ص: 213.

1. مادة البيان عند الجاحظ:

وظيفة البيان وقيمته

العملية البيانية وأدواتها

وظيفة خاصة بالبيان العربي

نسبة البيان عند الجاحظ بين حمادي صمود ومحمد العمري

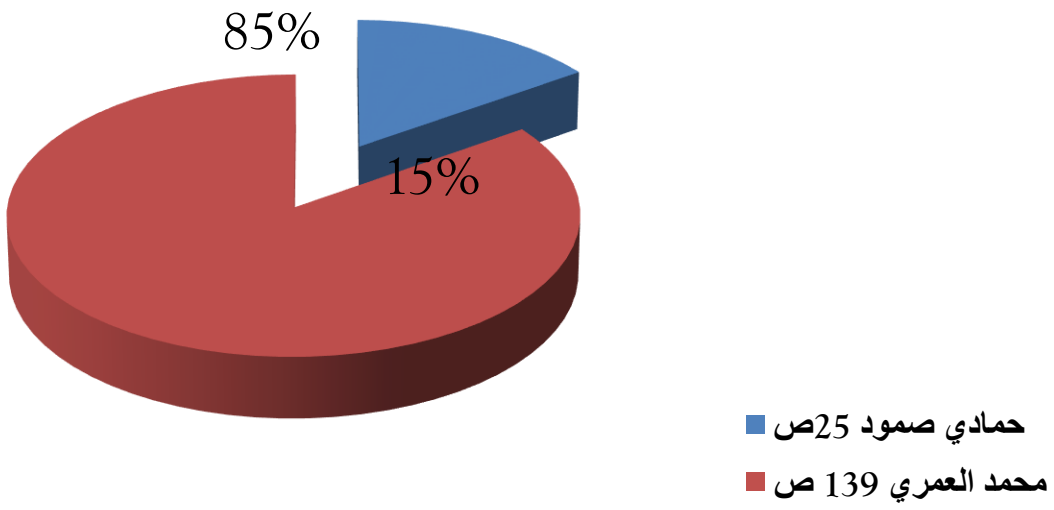

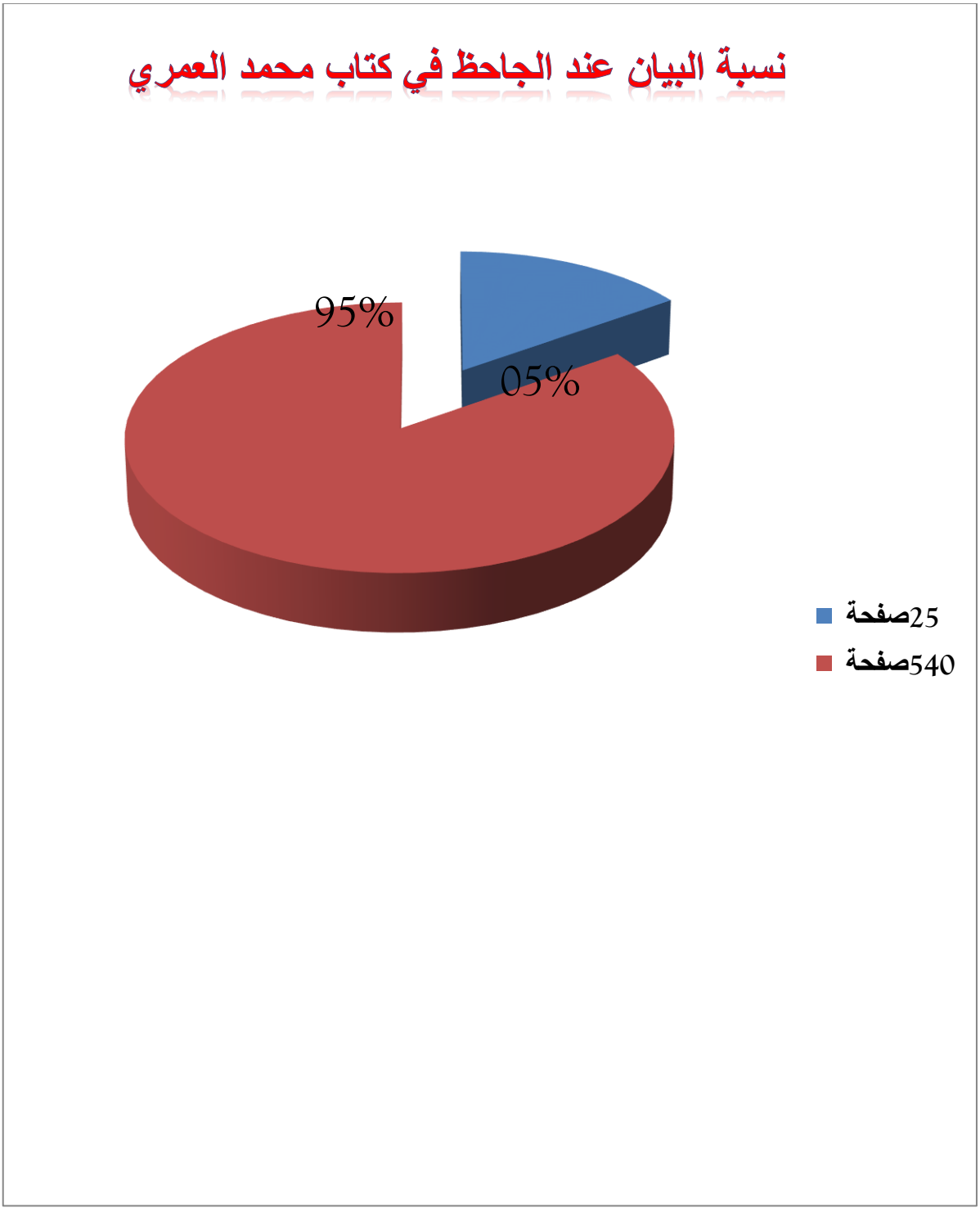
نسبة البيان عند الجاحظ في كتاب محمد العمري
95%
05%
25صفحة
540صفحة

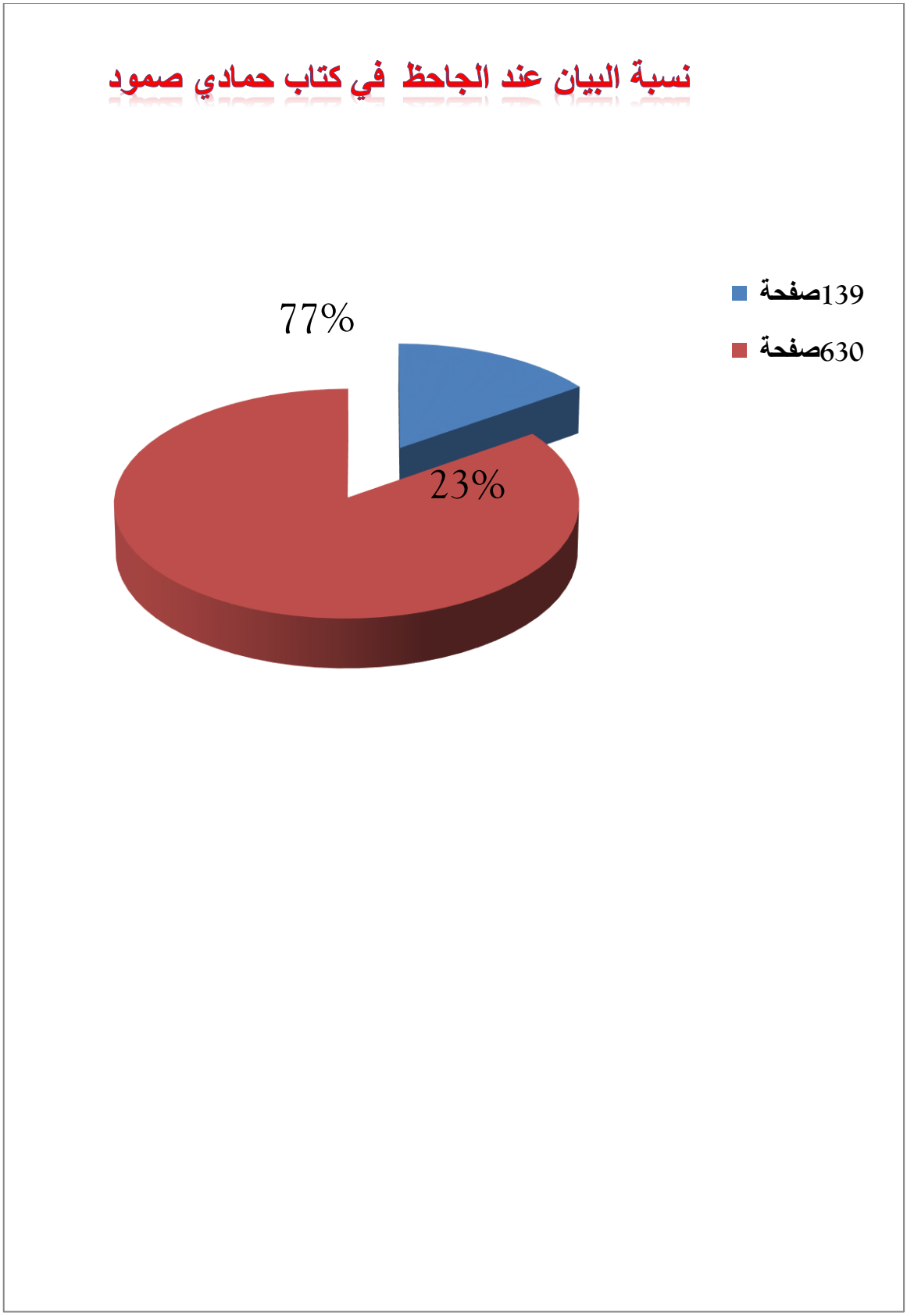
نسبة البيان عند الجاحظ في كتاب حمادي صمود
77%
23%
139صفحة
630صفحة

كما أن البيان عنده تتنازعه وظيفتان: أولاهما إفهاميه (عناصر المقام وخصائصه)، والثانية حجاجية (إقناعيه) كل ما يتعلق بالفصاحة وإحكام الحجة ومعرفة أحوال المخاطبين[1].

4. العمري ومفاهيم نظرية التلقي:

وفي السياق نفسه ونحن بصدد المقارنة بين منهج صمود ومنهج العمري في المباحث السابقة، تبادرت لأذهاننا بعض الأسئلة التي لا تخرج عن التركيز على الإيفاء باشتراطات المنهج ؟ وهل التزم العمري فعلا بمناهج القراءة والتلقي التي أعلن عنها في المقدمة ؟ هل استحضر مفاهيمها؟ أين مفهوم تاريخ القراءات في تقييم الإسهام الجاحظي؟ أين استحضار مفاهيم المنهج النظرية والإجرائية ؟

أما عن جمالية التلقي، «في بعدها التاريخي، فقد كان العمري مضطراً لدراسة الاختيارات الشعرية ذلك أنّ عملية الاختيار كانت قرائية نقدية لاستخراج الصور البلاغية»[2]، وقد أفرد بحثاً مستقلاً تحدث فيه عن (**الاختيارات**) الشعرية.

5. خاتمة:

وفي خاتمة هذا الفصل قد كنا كشفنا ولو قليلاً عن تباين في الموقف من الإسهام الجاحظي من طرف محمد العمري، ثم مقابلتها بأطروحة حمادي صمود، بوصفها الصوت الأكثر حضوراً، في مدونته.

- التوظيف الواضح والفعال لمفاهيم اللسانيات والعلوم اللغوية المعاصرة.
- تجلي الحوار الحياد العلمي في اللغة المستخدمة، والتي تخلو من المفردات والعبارات ذات الدلالة التمجيدية أو القدحية.
- يفضل العمري مفردات ذات دلالة قدحية تحيل إلى الجاحظ، مثل: قايض، لم يقدم لنا الجاحظ، كان يتحدث، صار يتحدث، وغيرها.

---

[1]- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص: 213. بتصرف يسير.

[2]- ابتسام بن خراف، تلقي النص البلاغي عند محمد العمري، مقاربة وصفية تحليلية، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، ص: 53.

- رغم اطلاعه على الكتاب، لا يستحضر العمري أياً من طروحات صمود التي اعترف بغناها المعرفي، وسلامتها المنهجية، وموافقتها أحياناً لما تنتهي إليه معالجاته من نتائج أو أحكام، وهذا أكثر ما يقلق القارئ الذي يخيب العمري أفق انتظاره.

خـــاتـــمة

خاتمة:

من دون شك أنّ ما كُتب حول الجاحظ سيظل مفتوحاً للقراءة والتحليل والتأويل على مرّ الأزمان، فمدونته لا تحدها الحدود، ولا تنهيها الدراسات، من هذا المنطلق كان بحثنا يحاول الاقتراب من تلك القراءات التي تفاعلت أنواعاً شتى من التفاعل، مع نصوص الجاحظ البلاغية.

حاولنا في هذه المقاربة -**الحوار حول بلاغة الجاحظ في الدراسات اللسانية العربية المعاصرة**- تعميق القلق المعرفي الذي ساد [illegible]

الجاحظية، وسعينا إلى تقليص ذلك الخلاف الذي طغى -حول مركزية الجاحظ في البلاغية العربية-بين القدماء والمحدثين، فكان لنا بحث مستفيض حول قراءة القدماء، كقراءة ابن قتيبة، والهمذاني، لبلاغة الجاحظ، وهؤلاء يمثلون المدرسة القديمة، وبالمقابل كان لنا بحث في الدراسات العربية المعاصرة لبلاغة الجاحظ، والتي مثلنا لها بمدرستين كبيرتين المغربية والتونسية (حمادي صمود ومحمد العمري).

لقد زودت نصوص الجاحظ -الدراسات البلاغية العربية-بإجراءات كانت مهمّة في تحليل وكشف تلك القراءات التي تشكّلت حول النص الجاحظي، تحديدا من تلقيه وتمظهره لاحقا عبر التاريخ، ومن ثم فقد أفضى الاستئناس بمقولاتها إلى النتائج التالية:

1- رصدنا في هذه المقاربة مسارين كبيرين من التلقي، تمثل الأول في مقاربات أبرزت ما في التراث النقدي الجاحظي من مظاهر الحداثة ومن قيم ومفاهيم يقدّر أصحابها أنها غير بعيدة عن التصور اللساني الحديث، وبين المسار الثاني فينصرف إلى قراءة التراث النقدي الجاحظي من وجهة داخلية، قاصداً تعرف آلياته الفكرية، وآليات إنتاجه المعرفة النقدية. هذا المسار يميل أكثر إلى التراث والنزوع إليه مستبعدا كل آليات الحداثة في قراءة النصوص الجاحظية.

2- قراءة ابن قتيبة كانت من أبرز القراءات القديمة التي رصدت بلاغة الجاحظ، بحيث قوّمت بلاغة أبي عثمان من منظور أخلاقي بحث، بحيث نرصدهما -الجاحظ وابن قتيبة- يلتقيان أدبيا ويفترقان عقائديا.

3- من أبرز القراءات التي حاول صاحبها زعزعة الجاحظ عبر تهجين الشعر، تمثلت في قراءة الهمذاني لبلاغة الجاحظ وذلك ظاهر بيّن في مقاماته، فقد حاول التقليل من نثر الجاحظ بطرق ملتوية، وآليات مستحدثة.

4- نجد أن مصطلح البيان عند الجاحظ لابس كل الممارسات الدّالة، وذلك من دون الاكتراث بجنس الشيء الدال أو نوعه، أو كما يسميه الجاحظ، (جنس الدليل)، ومن دون أخذ شرط توفر القصدية الإبلاغية، أو عدم توفرها بعين الاعتبار أيضا، وهو ما وقفت عليه أكثر المقاربات السابقة، لأن البيان عند الجاحظ (**عبارة عن اسم جامع لكل شيء كشف قناع المعني وهتك الحجب**

دون الضمير)، أو كما يقول في مواضع أخرى: فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع).

5-كما أن أبا عثمان ينطلق من مفهوم عام للبيان من خلال المبدأ الذي تتأسس عليه نظرته للمخلوقات، بوصفها رموزا أو دوالا لمدلول أزلي يهتدى إليه من خلالها، بالتعقل والتدبر والتأويل، وهي نظرة ترجع إلى المعتقد الاعتزالي المعظم لمقام العقل.

5- من خلال متابعتنا لبلاغة الجاحظ رأينا أن هناك قراءات متباينة منها ما أحدث قطيعة مع التراث الجاحظي والتصورات الجمالية الحديثة. وهذا نجده متمثلا في قراءة محمد مشبال، الذي نجده يقرب بين النص الجاحظي من بلاغة النادرة، حيث أن الحجاج والهزل والواقعية، في سرد الجاحظ قد فسحت المجال للقارئ بالتأويل والمشاركة في تكوين النص.

6- قامت بلاغة الجاحظ على مكونين رئيسين هما: الحجاج والتصوير، فالجاحظ بلاغي كبير ومصور بارع دقيق في قصصه الممتعة.

7- هذا فيما يخص القدماء، أما المعاصرون فقد شمل البحث مشروعين كبيرين تمثل الأول في مشروع حمادي صمود، والثاني محمد العمري، فحصرنا دراستنا في المشروعين لاكتشاف ذلك الحوار الخفي الذي دار بين الكتابين: كتاب (**التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس الهجري مشروع قراءة**) لحمادي صمود والثاني كتاب (**البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**) لمحمد العمري، وكانتا أطروحتين متضادتين نجمل أهم النتائج التي ترتبت على الحوار الذي جمع بينهما:

1- نستطيع القول أن حمادي صمود وظّف مفاهيم اللسانيات والعلوم اللغوية المعاصرة، واتخذها مرجعا لتحليل نصوص الجاحظ، وكان حريصا على إنصاف الرجل، ورصد استباقاته ووضعها في مكانها من حركة تطور الدراسات اللغوية والبلاغية عند العرب.

2- نستطيع القول أن حمادي صمود ومحمد العمري وظّفا مفاهيم اللسانيات والعلوم اللغوية المعاصرة، واتخذاها مرجعا لتحليل نصوص الجاحظ.

3- وبخلاف العمري كان حمادي صمود حريصا على إنصاف الجاحظ، ورصد استباقاته ووضعها في مكانها من حركة تطور الدراسات اللغوية والبلاغية عند العرب.

4- نجد شارل بيلاّ bellat chl، يتتبع الجاحظ من بيئة لأخرى، وكيف انعكست الحاضرة على بلاغة أبي عثمان، كما أن اعتماد كتابين من كتب الجاحظ فقط بالدراسة والتفكيك لتحقيق أحكام نقدية شاملة أمر لا يخلو من المخاطرة فهو مدعاة لسلب الرجل حقه فالجزء لا يغني عن الكل.

5- المسدي يؤكد وعي الجاحظ بثنائية توظيف الظاهرة اللغوية بين دلالة غايتها البث كما تتبدى في الاستعمال اللغوي العادي، ودلالة أسلوبية غايتها الخلق الفني كما تظهرها خصائص النص.

6- قراءة بلمليح لبلاغة الجاحظ انه كانت دراسة جد مهمة، كما كان له إسهام في العرض لأهم المؤلفات التي اعتنت ببلاغة الجاحظ فقد كان موفقاً إلى حد كبير في حصر المادة المعرفية الخاصة ببلاغة الجاحظ عند المعاصرين.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم (رواية حفص).

المصـــــادر

1. أرسطو طاليس، **فن الشعر**، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، 197
2. أرسطو طاليس، **الخطابة**، الترجمة العربية القديمة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، وكالة

المطبوعات، دار القلم، الكويت، 1979.
3. الأصفهاني، **الأغاني**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 03، 2008.
4. الباقلاني، **إعجاز القرآن**، تحقيق: السيد صقر، دار المعارف، مصر، ،04، 1977.
بديع الزمان الهمذاني، **المقامات**، تقديم: الامام محمد عبدو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 2008.
5. ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، مجمع الملك فهد، لطباعة المصحف الشريف، السعودية، 2004 .
6. التوحيدي، **الإمتاع والمؤانسة**، صححه أحمد أمين وأحمد زين، منشورات هنداوي، بيروت، 2017.
7. الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي ، القاهرة، تحقيق: عبد السلام هارون، ط:7، 1998.
8. الجاحظ، **الحيوان**، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الثانية، 1424 هـ.
9. الجاحظ، **البخلاء**، تحقيق: طه الحاجري، دار المعارف، مصر، ط: 05، (ب ت).
10. الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط:1، 2003.
11. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمد شاكر، القاهرة، 1952.
12. أبي عبد الله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1977.
13. أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، **البلاغة**، تحقيق: رمضان بن عبد التواب، مكتبة الثقافة
الدينية، ط:2، 1985.
14. ابن قتيبة، **أدب الكاتب**، شرحه وقدمه: علي فاعور، دار الكتب العلمية، لبنان، ط: 01،
1408ه – 1988م.

15. فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ، دار صادر، بيروت، ط:1، 1424ه- 2004م، ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط:8، 2014.
16. أبي هلال العسكري، **كتاب الصناعتين (الكتاب والشعر)**، تحقيق: علي محمد البجاوي
محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ط: 02، 1971.
17. ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، وزارة المعارف العمومية، مصر، 1936.
18. السكاكي، **مفتاح العلوم**، دار الكتب العلمية، لبنان، ط:2، 1987.
19. ابن سنان الخفاجي، **سر الفصاحة**، دار الكتب العلمية الطبعة: الطبعة الأولى 1402 ه-1982م.
20. عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، علق عليه: محمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، ط:3، 1413ه-1992م.

المـــــــــــراجـــــع

الكتب باللغة العربية:

21. ابراهيم سلامة، **بلاغة أرسطو بين العرب واليونان**، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، ط: 01، 1369 هـ- 1950.
22. أحمد مطلوب، **أساليب بلاغية، الفصاحة-البلاغة-المعاني**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط:1، 1980.
23. ابراهيم عوض، مع الجاحظ في رسالة (الرد على النصارى)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، (ب ت).
24. الرافعي، **إعجاز القرآن الكريم وبلاغته النبوية**، دار الكتاب العربي، بيروت.
25. الطاهر بن عاشور، موجز البلاغة، دار الامام مالك، باب الوادي، الجزائر، (ب ط)، 1438ه- 2017م.
26. إحسان عباس، **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، الاصدار الثالث، 2001.

27. أحمد مطلوب، **عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1973.
28. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، عربي – عربي، مكتبة لبنان ناشرون، ط:2، 2007.
29. أحمد محمد الحوفي، **أبو حيان التوحيدي**، مكتبة النهضة، مصر، ط:2، 1964.
30. السندوبي، **أدب الجاحظ**، المطبعة الرحمانية، مصر، ط: 1، 1350ه- 1931.
31. ادريس بلمليح، **الرؤية البيانية عند الجاحظ**، دار الثقافة، المغرب، ط:01، 1984.
32. إبراهيم الحمداني، **المصطلح النقدي في كتب الإعجاز القرآني**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2013.
33. بدوي طبانة، **علم البيان – دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية- ،** دار الثقافة، بيروت، 1981.
34. بسمة عروس، **التفاعل في الأجناس الادبية، مشروع قراءة لنماذج من الاجناس النثرية القديمة من القرن الثالث الى السادس هجري**، كلية الآداب والفنون والانسانيات، منوبة، تونس.
35. بلخير أرفيس، **البلاغة العربية بحث في الأصول والامتدادات**، (ب ت).
36. بدوي طبانة، البيان العربي، **دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1958.
37. جميل جبر، **الجاحظ في حياته وأدبه وفكره**، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني
بيروت، ط:1، 1429ه، 2008.
38. جابر عصفور، قراءة في التراث النقدي، دار سعاد الصباح، ط:1، 1992.
39. جابر عصفور، **دفاعا عن التراث**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2013.
40. جميل عبد المجيد، **البديع، بين البلاغة العربية واللسانيات النصية**، الهيئة المصرية العامة
للكتاب، مصر، 1998.
41. حمادي صمود، فريق البحث في البلاغة والحجاج، **أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم**، إشراف جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس.

42. حمادي صمود، **التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة**، دار الكتاب الجديدة، المتحدة، ط:03، 2010.
43. رجاء عيد، **فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور**، منشأة المعارف، الإسكندرية.
44. رشيد يحياوي، **التبالغ والتبالغية، نحو نظرية تواصلية في التراث**، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط:01، 20140.
45. زهدي جار الله، **المعتزلة**، مطبعة مصر، القاهرة 1947.
46. زكي مبارك، **النثر الفني في القرن الرابع**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012.
47. سامي أبو زيد - منذر كفافي، **الأدب الجاهلي**، دار المسيرة، عمان، ط1، 2011.
48. سيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، كتاب أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، طهران ج:1، ط1، 1968.
49. الشاهد البوشيخي، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، دار القلم
للنشر، والتوزيع، الكويت، ط: 2، 1415-1995م.
50. شوقي ضيف، **المقامة**، دار المعارف، القاهرة، ط:4، (د ت).
51. شوقي علي الزهرة، **في المفهوم البلاغي عند الجاحظ قراءة إبداعية جديدة**، دار الآفاق العربية، مصر ط1، 2016.
52. شكري عياد، **القصة القصيرة في مصر**، دار المعرفة بالقاهرة، الطبعة: 2، 1972.
53. شوقي ضيف، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، دار المعارف، مصر، ط:5، (د ت)، ص:164.
54. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط:9، (ب ت).
55. طه حسين، **من حديث الشعر والنثر**، دار المعارف، بمصر، ط:1، (د ت).
56. عبد القادر حسين، **فن البلاغة**، عالم الكتب، بيروت، ط 2، 1984.
57. عبد العزيز عتيق، **في البلاغة العربية، علم المعاني –البيان- البديع**، دار النهضة العربية، بيروت، (دت).
58. عبد الله ابن المعتز، كتاب البديع، شرح وتحقيق: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1 2012.

59. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، مصر- دار المدني، جدة السعودية، ط:3، 1992.
60. عماد حسن مرزوق، **الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم عند المعتزلة،** مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1 2005.
61. علي شلق، **الجاحظ،** دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2006.
62. علي عشري زايد، النقد الأدبي والبلاغة في القرنين الثالث والرابع (المصادر والقضايا)، مكتبة
الشباب، القاهرة، ط2، 1995م.
63. عمار ساسي، **المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم،** عالم الكتب الحديث للنشر
والتوزيع أربد الأردن- جدار للكتاب العالمي، عمان الأردن، ط: 01، 2007.
64. عباس أرحيلة، **الكتاب وصنعة التأليف عند الجاحظ،** وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية قطاع الشؤون الثقافية، إدارة الثقافة الإسلامية، الكويت، الإصدار 70، أكتوبر 2013.
65. عبد الفتاح كيليطو، **الكتاب والتناسخ مفهوم المؤلف في الثقافة العربية،** ترجمة: عبد السلام عبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط:2، 2008.
66. عبد العاطي غريب علي علام، **البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي،** دار الجيل، بيروت، ط:01، 1413ه- 1993م.
67. عيسى علي العاكوب، **التفكير النقدي عند العرب،** دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 09، 1433 ه- 2012.
68. عبد السلام المسدي، **قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون،** دار سعاد الصباح
الكويت، ط 4، 1983.
69. عبد السلام المسدي، **مباحث تأسيسية في اللسانيات،** مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، للنشر والتوزيع، تونس، (ب ط).
70. عبد الواحد مرابط وآخرون، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة قراءات في أعمال الدكتور

71. عباس أرحيلة، **الكتاب وصنعة التأليف عند الجاحظ**، المطبعة والوراقة الوطنية – زنقة أبو
عبيدة- الحي المحمدي- مراكش، ط: 01، 2004.
72. عبد الفتاح كيليطو، **الأدب والغرابة دراسات بنيوية في الأدب العربي**، دار توبقال للنشر،
الدار البيضاء، المغرب، ط:3، 2006.
73. عبد الله العروي، الإيديولوجية العربية المعاصرة (صياغة جديدة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1995.
74. عبد العزيز شبيل، **نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري جدلية الحضور والغياب**، دار محمد علي الحامي، تونس، ط:1، 2001.
75. عبد العزيز عتيق، **في البلاغة العربية علم البيان**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،
1985.
76. عبد الواحد التهامي، **أنماط تلقي السرد في التراث النقدي، دراسة في أدب الجاحظ**، دار عالم الكتب، للنشر والتوزيع، الأردن، 2015
77. عطوي فوزي، **الجاحظ دائرة معارف عصره**، دار الفكر العربي بيروت، ط:02، 1998.
78. فضل حسن عباس، **البلاغة المفترى عليها بين الأصالة والتبعية**، دار الفرقان، ط2، 1999.
79. غركان رحمن، نظرية البيان العربي، خصائص النشأة ومعطيات النزوع التعليمي –تنظير وتطبيق- ، دار راني للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط:1، 2008.
80. غنارسكيريك - نلز غيلجي، **تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين**، ترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط:1، 2012.
81. فوزي السيد عبد ربه، **المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين**، مكتبة الانجلو
مصرية، 2005، القاهرة، 2005.

82. فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى
اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة، فريق البحث في البلاغة والحجاج، تونس، (بـ ت)
83. قصي الحسين، **النقد الادبي عند العرب واليونان، معالمه وإعلامه،** المؤسسة الحديثة للكتاب
طرابلس، لبنان، ط:1، 2003.
84. كمال أبو ديب، **جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر،** دار العلم للملايين، بيروت، ط:01، 1979، ط:02: 1984.
85. محمد عبد البشير مسالتي، **خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل بحث في مسارات تلقي الخطاب البلاغي الجاحظي في النقد الحداثي،** مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ط: 01، 2019.
69. مظفر بن الفضل العلوي، **نظرة الإغريض في نصرة القريض،** تحقيق: نهى عارف الحسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، (دت) (دط).
70. مصطفى الغرافي، **البلاغة والإيديولوجيا دراسة في الخطاب النثري عند ابن قتيبة،** دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 1436- 2015.
71. محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية،
مركز دراسات الوحدة العربية، ط:8، بيروت.
72. محمد مشبال، **البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ،** منشورات كلية الآداب، المغرب، 2010.
73. محمد مشبال، **البلاغة والخطاب،** منشورات الاختلاف، الجزائر، ط:01، 1435ه- 2014.
74. محمد الصغير بناني، **النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين،** ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.
75. محمد مسعود جبران، **فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)،** دار المدار الثقافية، الجزائر، ط: 01، 2009.

76. محمد خفاجي، **الحياة الأدبية في العصر العباسي**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، ط:1، 2004.
77. محمد العمري: **المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة مواجهة بين زمن الجرجاني**
وزمن القزويني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2017.
86. : **البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**، أفريقيا الشرق، المغرب، ط:02، 2010.
87. **: الموازنات الصوتية، في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية**، نحو كتابة تاريخ
جديد للبلاغة والشعر، أفريقيا الشرق، 2001، (د ط).
88. **: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات**، أفريقيا
الشرق، المغرب، 2013.
89. **: في بلاغة الخطاب الاقناعي**، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2002.
90. **: البلاغة بين التخييل والتداول**، أفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 2005.
91. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، **الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط: 1، 2008.
92. مصطفى ناصف، عالم المعرفة، محاورات مع النثر العربي، إشراف: أحمد مشاري العدواني،
93. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1923-1990، ع: 208.
94. محمد زغلول سلام، **أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع هجري**، مكتبة
الشباب، مصر، ط: 01، (ب ت).
95. مجدي إبراهيم محمد إبراهيم، ابن قتيبة الدنيوري حياته وأدبه، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،
الاسكندرية، ط: 01، 2009.

96. مختار الخلفاوي، **عتبات في الكلام على الكلام دراسات في أدب ابن المقفع والجاحظ وابن حزم،**
97. سلسلة آفاق – برسبكتيف للنشر، تونس، ط:01، 2013.
98. وليد محمد مراد، **نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني،** دار الفكر، دمشق، ط: 1403ه- 1983.

كتب مترجمة:

99. آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الاسلام، ترجمة:
محمد عبد الهادي أبو ريده، مجلد: 1، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط: 5، (د ت).
100. بول ريكور، من النص الى الفعل، أبحاث التأويل، ترجمة: محمد برادة، حسان بورقية، دار الأمان، الرياض، ط:1، 2004.
101. غنار سكيريك- نلز غيلجي، **تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين،**
ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، مراجعة نجوى نصر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،
لبنان، ط1، 2012.
102. عبد الفتاح كيليطو، **المقامات، السرد والأنساق الثقافية،** ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار
توبقال للنشر، البيضاء، ط:1، 1993.
103. فرونسوا مورو، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة: الولي محمد- عائشة جرير، أفريقيا الشرق، المغرب، 2003.
104. شارل بلات، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ت: إبراهيم الكيلاني، المؤسسة الثقافية للنشر والتوزيع سوريا، 1961.

كتب غربية:

105. Bracops. M, 2006M introduction a la pragmatique – **les theories fondatrices**, actes de langage, pragmatique, integree, Louvain.
106. Charaudeau. Patrick et maingueneau. Dominique, 2002,

dictionnaire danalyse de discourse, Paris, seuil, p175

107. A. revuz; **La representation du discourse autre, un champ ultiplement heterogene, Dans; Le Discours rapporte dans tous ses etats** (textes reunis et presentes par juan Lopez Munoz, sophie marnette et laurence rosier), Lharmattan, paris, 2004, Actes Du colloque international, 08-11-Nov 2001, p35-36.

مقـا لات:

108. محمد الغرافي، **البلاغة والتلقي نثر الجاحظ بين التشابه والاختلاف**، مقال منشور في البلاغة
العربية والمقاربات النقدية المعاصرة الآفاق العلاقات والوظائف.

109. مصطفى الغرافي، **في البلاغة والإيديولوجيا: تحكّم الفكر والعقيدة الدينية أو السياسية في إنتاج الخطاب**، مقال منشور في: القدس العربي، الأحد، 2020/12/13.

110. عبد القادر العربي، مقال: **بلاغة الخطاب وإبلاغيه التأويل في محاورات أبي حيان التوحيدي**، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة- الجزائر.

111. دردار بشير، مقال: إسهام الجاحظ في تاريخ البلاغة العربية قراءة حوارية لأطروحة العمري في
كتابه، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، مجلة الآداب واللغات، مجلة دولية علمية أكاديمية،
المجلد السابع، العدد الثاني، ربيع الثاني 1440ه، ديسمبر 2018.

112. سميرة سلامي، **إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ**، مجلة التراث العربي، عدد: 106.

113. رجاء عيد، مقال: التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس مشروع قراءة، عرض
ومناقشة، **فصول** مجلة النقد الأدبي، مركز تحقيقات كامبيوتر لوم اسلامي، المجلد: 05، العدد: 1-2، 2013.

114. ابتسام بن خروف، جامعة باتنة، الجزائر، **تلقي النص البلاغي عند الدكتور محمد العمري**
مقاربة وصفية تحليلية، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، مجلة
قراءات، جامعة بسكرة.
115. ينظر: حافظ الجمالي، ملاحظات قصيرة حول كتاب التفكير البلاغي عند العرب اسسه وتطوره الى القرن السادس، مجلة الموقف الأدبي –تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق العدد 135 – 136، 1982.
116. محمد أنقار، **تجنيس المقامة**، فصول، المجلد: 13، ع:3، خريف، 1991.
117. هند بوسكين، مرجعيات البيان عند ابن وهب الكاتب، (ت335ه) وأثرها في التفكير البياني العربي، جامعة الجزائر 02، الجزائر، العدد: 03، ديسمبر 2012.
118. هيثم سرحان، الحجاج عند الجاحظ بحث في المرجعيات والنصيّات والآليات، المجلة
العربية للعلوم الانسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، العدد: 115، السنة: 29.
119. رمضان يوسف، **البلاغة الجديدة في الدراسات العربية الحديثة (حمادي صمود ومحمد العمري نموذجا)**، مجلة التعليمية، جامعة معسكر، المجلد 4، العدد جانفي 2017.
120. محمد محمود أحمد الدروبي، آثار الجاحظ دراسة توثيقية، مذكرة ماجستير، كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية، 1994.

الرسائل:

121. عثماني عمار، **ملامح تجديد البلاغة العربية في كتاب البلاغة العربية قراءة أخرى لمحمد عبد المطلب**، دراسة تحليلية نقدية، رسالة دكتوراه، جامعة احمد بن بلة وهران، 2015-2016.
122. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، **الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر**، دار عثماني عمار، ملامح تجديد البلاغة العربية في كتاب البلاغة العربية قراءة أخرى لمحمد عبد المطلب، دراسة تحليلية نقدية، رسالة دكتوراه، جامعة أحمد بن بلة وهران، 2015-2016.

123. بوعافية محمد عبد الرازق، **البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة**، مذكرة ماجستير، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 02، 2014-2015.

مواقع الكترونية:

124. **www.aljabriabed.net/n41_07khadir.htm#_ednref1** ضياء خضر، مسألة الأثر الأجنبي في البلاغة العربية، محاضرة ألقيت في المجمع العلمي العراقي بتاريخ 1998/3/9.

125. **https://www.marefa.org**، ابن وهب الكاتب، موقع معرفة، نظر يوم: 14.06.2021، الساعة: 12:38.

126. محمد العمري، المشروع العلمي بين المأمول والمتاح، 11 مارس، 2006، www.medelomari.net .

127. ينظر: حافظ الجمالي، **ملاحظات قصيرة حول كتاب التفكير البلاغي عند العرب**، نقلا عن: محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ط1، 2019.

128. https://www.aljabriabed.net/n41مسألة الأثر الأجنبي في البلاغة العربية، ضياء خضير، 2020/11/14، 02:36.

فهرس

الموضوعات

الفهرس:

العنوان	الصفحة
مقدمة	ب
الفصل الأول: البلاغة بين العرب واليونان	
البلاغة عند العرب	
البلاغة بين اللغة والاصطلاح	09
تعريف البلاغة عند الجاحظ	13
سهل بن هارون والبلاغة	14
تعريف البلاغة عند العسكري	16
البلاغة عند ابن سنان الخفاجي	16
البلاغة عند عبد القاهر الجرجاني	17
البلاغة عند الرازي	18
البلاغة عند ابن الأثير	18
البلاغة عند السكاكي	19
مفهوم البلاغة عند الهند	21
البلاغة عند اليونان	22
السفسطائيون والتمهيد للبلاغة	23
بلاغة سقراط	24
القضايا المستوردة من اليونان	25
الفصل الأول: لمحات بلاغية في العصر الجاهلي والاسلامي	
العصر الجاهلي	29
البلاغة في صدر الإسلام	34
البلاغة في عصر بني أمية	38
البلاغة في عصر بني العباس	39
صناعة التأليف كما مارسها الجاحظ	45
أوليات التفكير البلاغي عند العرب	46
الوعي اللغوي	47
المؤثرات الأجنبية	48
البلاغة في صدر الاسلام	51
البلاغة نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني	52
ازدهار التصنيف في حقل البلاغية	

البيان والتبيين الجاحظ	**52**
رسالة البلاغة للمبرد	**55**
كتاب البديع لابن معتز	**57**
كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر	**54**
مجاز القرآن لأبي عبيدة	**55**
معاني القرآن للفراء	**56**
تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة	**56**
عيار الشعر لابن طباطبا	**57**
كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري	**59**
العمدة لابن رشيق	**60**
سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي	**60**
نقد النثر (كتاب البرهان في وجوه البيان) لإسحاق ابن وهب	**61**
إعجاز القرآن للقاضي عبد الجبار	**62**
دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني	**64**
كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي	**68**
الكشّاف للزمخشري	**66**
مفتاح العلوم للسكاكي	**69**
كتاب المثل السائر لضياء الدين بن الأثير	**70**
بدر الدين بن مالك	**71**
تلخيص المفتاح والإيضاح للخطيب القزويني	**71**
الفصل الثاني: الدراسات البلاغية العربية القديمة للجاحظ	
تمهيد	**75**
تقديم لقارئي بلاغة الجاحظ	**76**
ابن قتيبة والمعيار الأخلاقي	**77**
موقف ابن قتيبة من بلاغة الجاحظ	**82**
أبو حيان التوحيدي قارئا للجاحظ	**90**
قراءة بديع الزمان الهمذاني للجاحظ	**96**
محاولة زعزعة بلاغة الجاحظ	**98**
الهمذاني وتطويع النثر للشعر	**100**
البلاغة بين الجاحظ والهمذاني	**102**

قراءة أبو هلال العسكري للجاحظ	**104**
عبد القاهر الجرجاني قارئا للجاحظ	**108**
قراءة ياقوت الحموي للجاحظ	**121**
قراءة المبـــــرد للجاحظ	**122**
قراءة ثعلب للجاحظ	**126**
قراءة عبد الله بن المعتز للجاحظ	**128**
قراءة ابن وهب الكاتب للجاحظ	**131**
البيان بين ابن وهب والجاحظ	**136**
الفصل الثالث: الدراسات العربية الحديثة لبلاغة الجاحظ	
تمهيد	**138**
شارل بلاّ والقراءة التصويرية	**149**
الاستعمال المعجمي في نصوص الجاحظ	**153**
حسن السندوبي وأدب الجاحظ	**152**
شوقي ضيف والتأريخ للبلاغة العربية	**155**
محمد العمري والأفق البيداغوجي التأويلي لبلاغة الجاحظ	**161**
حمادي صمود والقراءة البنيوية لبلاغة الجاحظ	**173**
عبد السلام المسدي والوعي بمظاهر الأسلوب	**179**
مصطفى ناصف وبلاغة الجاحظ	**188**
محمد الصغير بناني وبلاغة الجاحظ	**191**
إدريس بلمليح والبلاغة الجاحظية	**194**
محمد مشبال والتأصيل لبلاغة الجاحظ	**202**
بلاغة النادرة عند محمد مشبال	**198**
الفصل الرابع: الحوار حول بلاغة الجاحظ بين صمود و العمري	
أسبـــاب الاختـــيار	
تمهيد	**206**
خطـــة الـــدراسة	**208**
عرض المحتوى العام للكتابين	
التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس	**209**
عرض لكتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها لمحمد العمري	**210**

مستوى التفاعل الحواري الأول: العمري محاورا للعمري	
المنهج والآليات	216
مشروع محمد العمري	
تمهيد	221
مناهج البحث في مشروع محمد العمري	225
المنهج اللساني البنيوية	225
نظرية التلقي	226
التداولية عند العمري	229
المنهج التاريخي	230
مناهج البحث في مشروع حمادي صمود	
عتبة الفهرس	236
اعتراضات محمد العمري على صمود	238
المنهج عند حمادي صمود	241
المنهج عند محمد العمري من خلال البلاغة العربية أصولها وامتداداتها	244
في كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها	246
الموقف من الجاحظ	249
العمر محاورا لصمود	250
العمري وابن وهب	252
الجاحظ وابن وهب التأسيس والاتباع	253
بيان الجاحظ بين حمادي صمود ومحمد العمري	256
خاتمة	267
قائمة المصادر والمراجع	283
فهرس	286

ملخص

ملخص البحث بالعربية :

يروم هذا البحث الكشف عن موقف الدارسين القدامى والمعاصرين من بلاغة الجاحظ، كما يتغيا أيضا تسليط الأضواء على الإيديولوجيا وكشف حجم الصراع الحاد بين القدماء أنفسهم، كما أنه يمثل رؤية حوارية بين النقاد المعاصرين حول هذه البلاغة من أبرزهم حمادي صمود، ومحمد العمري، ومحمد مشبال، بحيث ولّد حواراً افتراضياً بين العمري وصمود، كلٌ له زاوية رؤية يحشد القراء لها، ومن خلال القرائتين وبالجمع بينهما توصلنا إلى: استفادة ابن قتيبة من الجاحظ في كثير من القضايا، ورفضه لطريقة الجاحظ في الكتابة لدواع ثقافية وفكرية، كما توصلنا إلى أن قراءة القدماء رصينة ومتينة، وكانت بين رفض ومعجب بها، كما كانت مركزية الجاحظ متباينة بينهم، بحيث جعله حمادي صمود مركزاً للبلاغة ينازع محمد العمري الذي جعل ابن وهب مركزا لهذه البلاغة العربية، وبه يجب نقرأ بيان أبي عثمان.

ملخص البحث بالإنجليزية :

abstract

This research aims to reveal the position of ancient and contemporary scholars regarding the rhetoric of Al-Jahiz, it also aims to shed light on the ideology and reveal the extent of the sharp conflict between them. It also represents a dialogue vision among

contemporaries about this rhetoric, such as Hammadi Somoud and Muhammad Al-Omari and Muhammad Mashbal, this has generated a hypothetical dialogue between Al-Omari and Sumud, each has his own point of view to polarize readers through the two readings and by combining them. We conclluded: ibn Qutayba benifited from Al-jahiz in many issues and rejected Al-jahiz way of writing for cultural and intellectual reasons we also concluded that the reading of the ancients is thoughtful and substantial, it was between rejecting and admiring, however centrality of Al-jahiz was different between them, in wich hammadi samoud made him a center for arabic rhetoric, unlike muhammad Al-omari, who made Ibn Wahb a center for thise rhetoric and by him we should read by him we should read Al-jahiz's statment.

ملخص البحث بالفرنسية:

Resume:

cette thèse se propose de faire la lumière sur l'attitude chercheurs anciens et mode rnes vis-a-vis de la rhetorique jahizienne, tout en clarifiant le role de lideologie dans le de'bat controverse qui opposa les anciens a ce sujet, ceci est valable aussi pour les cherche urs modernes, dont les avis sur la rhétorique jahizienne, se sont opposes, et ont pris la forme d'un dialogue virtuel. Ainsi; H.sammoud, M.el omari, et M.mechbal, ont pris part 'a ce dialogue. Les deux premiers ont tente' chacun de sa part, et 'a sa manière de faire prévaloire sa propre lecture auprès des lecteurs. L'analyse détaillé de ce dialogue nous nous a permis dévaluer l'influence d'El jahiz sur Ibn qutaiba, de valoriser les lectures anciennes, et de juger le plus correctement possible la centralité de théorie jahizienne, le theme qui était au centre du debat des contemeporains se sont interesser a El jahiz.